

ترجمة هيفاء أبو النادي

الحياة السرّيّة لزوجات بابا ساغي

لولا شونيَن

لولا شونِيَن

الحياة السريّة لزوجات بابا ساغي

ترجمة: هيفاء أبو النادي

الحياة السريّة لزوجات بابا ساغي

الحياة السرّيّة لزوجات بابا ساغي

تأليف: لولا شونين
ترجمة: هيفاء أبو النادي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-46-825-7

روايات
REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2022

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني للإعلام /
المرجع: MC-02-01-8216391
التصنيف العمري: +17

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The Secret Lives of Baba Segi's Wives

مجموعة كلمات
KALIMAT GROUP

إلى تِنُواي وبِتُنْدِه شونِيَن

... وإلى أولَؤُكُن

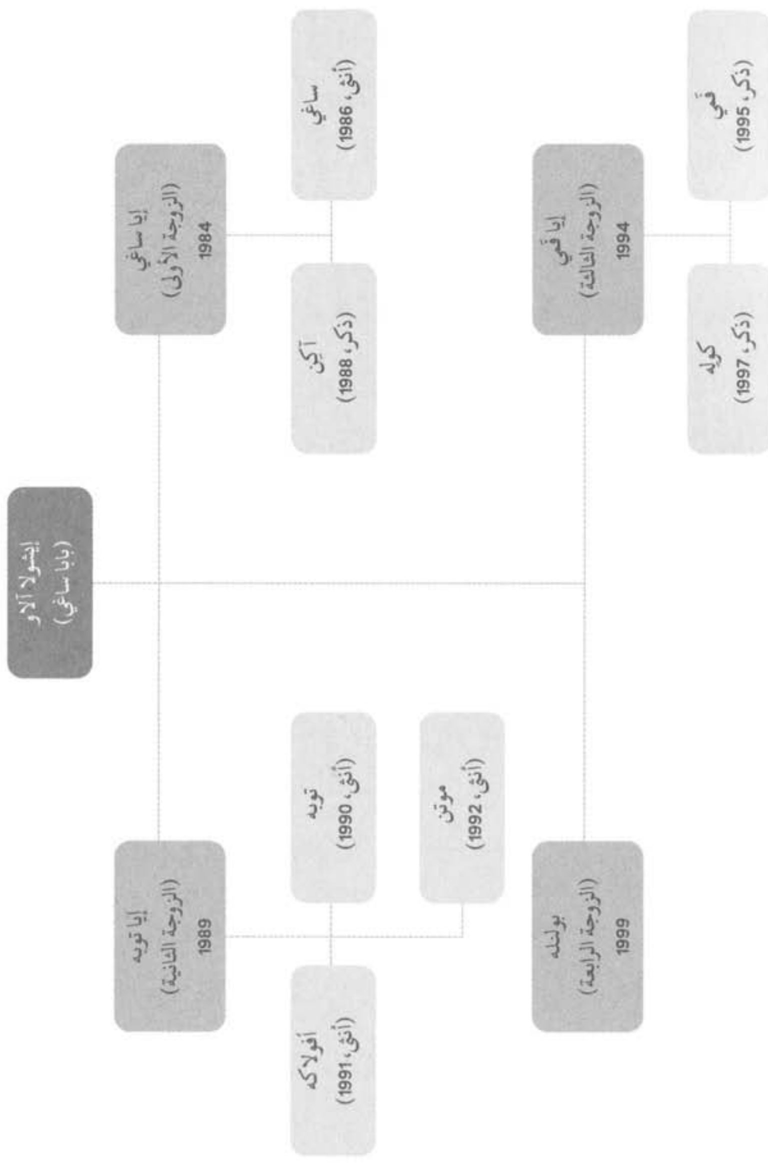
شكرٌ وعرفان

أشكرُ أولَؤُكُن على صبره وسعادته عندما تسيرُ أموري بصورةٍ جيدة. أشكرُ أطفالي؛ مايووا، وكيسا، وليولا، وجولا لأنهم تحمَّلوا تعبي عند الفجر، وعصبيتي وقت النوم، ووعودي العديدة التي لم أفِ بها. أشكر أيضًا والدي؛ تِنُواي شونِيَن، على إيمانه بي، وشقيقي؛ ديلِه شونِيَن، على دعمه.

أشكرُ آيك آنيا؛ مستشاري الطبي في هذه الرواية، وآن أُزؤويويه؛ لأنها هي مَنْ قصَّتْ عليَّ حكاية هذه الرواية. كما أنني في غاية الامتنان لكلٍّ من: بوس مالومو، وننوروم أزونيه، وفرانسِس كِنغ، وسايمون واتسون، ومايكل بيل، وإيما كرو، وديران أديبايو، وياتيش بارمر، وفيليشيا غرين، وريمي راجي، وبايس أديسانمي، وكلير مالوني، وأديغوكيه أودوكويا، وموجيسولا آني، وإيكيديه إيكيلو، وأبيادون إيدو.

أتقدم بخالص الشكر لوكلائي المتميزين: جيسيكا وولارد، وعايشة باندي، والمُحرِّرين: بيبي باكاري، وكاري فيرون، وريبيكا غراي.

شجرة عائلة آلاو



مغص مرير

لحظة استيقظ على ألمٍ مريرٍ في بطنه، لليوم السادس على التوالي، عرف بابا ساغي أنَّ الوقت حان ليحسم أمر زوجته الرابعة التي لم تنجب بعد. كان واثقًا أنَّ قلقه المتزايد شهورًا بعد أخرى، لا الجوع أو الغاز المحتبس، هو ما سبَّبَ الألم في بطنه. وها نخرةٌ تُفْلِتُ من المرأةِ الرَّاقدةِ جواره. ينظر من طرف عينه ليرى ساقَهُ وقد غرزَتْ إيا توبه؛ زوجته الثانية، في السرير. لاحظ صدرَها المتقبِّضَ يعلو ويهبط، لكنه لم يتحرَّك ليخفف انزعاجها. يفكر في بولنله؛ فتنقبض معدته ثانية. يقرِّرُ، حينها وهناك، أن يزور **المُعلِّم**. يريد أن يصل عند شروق الشمس حتى يعرفَ **المُعلِّمُ** أنَّ زيارته ليست عادية.

لمْ يَكَدْ سائقُهُ يُوقِفُ سيارة النقل جوار المزراب المحيط بمنطقة أييكارا، حتى فتح بابا ساغي الباب بعنف مزهوًّا بنفسه. وانطلق في زقاقٍ ضيق دون أن ينبس بكلمة أو يُلقيَ نظرةً خاطفةً على سائقه. لو لم يكن نظره مثبَّتًا بكليَّته على كوخ **المُعلِّم**، لربَّما لاحظَ اندفاعَ سائقه خلفه. تنحَّى بابا ساغي جانبًا مُفسِحًا الطريق أمام أطفال المدرسة في رحلةِ حجِّهِم اليومية.

بذلَ هؤلاء الأطفالُ جهدًا عظيمًا من أجل أنْ يُلقوا تحيةَ الصَّباح على المُعلِّم، فقط ليُشاهدوه يردُّ عليهم بانفعال. وإذ بالحكيم ذي العينينِ الدخانيَّتَيْن يهمهم قائلًا: "حداد الرب". يلوّح له الأطفالُ بسعادةٍ ثمَّ يمضون إلى المدرسة. يهزُّ بابا ساغي رأسَهُ مُفكِّرًا. ماذا لو اكتشفَ آباؤُهُم أنهم حادوا عن الطريق الترابية المُؤدِّيةِ إلى الحكمة، وخَطَوْا خطواتٍ واسعة فوق المزاريبِ المُبتلَّة، وتنقَّلوا بين الأبنيةِ العشوائية؟ سيكونون في مأزق كبير حتمًا. يقعُ كوخ المُعلِّم في أييكارا، ولم تكن أييكارا مكانًا ملائمًا للأطفال.

إنه مكان غير معروف، ولكن عندما يطلب أحد اتجاهات الطريق ليستدلَّ عليه، يشيح الناس بوجوههم عنه. ثمة ثلاثةُ أسبابٍ لذلك. أوَّلًا، لا يريد أحد أن يعترف، على مسمع من الجيران، بأنه يعرف أين تقع أييكارا. ثانيًا، لا حدود واضحة أو مميزة للمكان. وأخيرًا، تعجُّ أكثر من أربعة أو خمسة شوارع متوازية فيها بالمجون: كانت هذه روح المكان. حيث البناياتُ المظلمةُ تمتلئ بنسوةٍ بوجوه تتوهَّجُ تحت الأضواء البنفسجية. يعشن من أجلِ رجالٍ نسوةٍ أخريات. يطبخْنَ لهم. ويشربْنَ معهم. ويتعاركْنَ بغية الحصول عليهم. ويمارسْنَ الجنسَ معهم. ويتعهَّدْنَ برعايتهم. ويصفعنهم ويحببنهم. ولمَّا يصيبهنَّ الحبُّ الملتاعُ بالمرضِ، يسلمن أنفسهنَّ ويمتن من أجلهم.

انحشرَ كوخ المُعلِّم، بنوافذه الزجاجية البرَّاقة، وأقداح الشراب اللامعة، بين ماخورَيْن. غالبًا ما تجلبُ النساءُ اللاتي يرتدين الثيابَ البسيطة زبائنَهنَّ لشرب الويسكي المصنوع في هذا الكوخ، غيرَ أنهنَّ في أيامٍ معينة كنَّ يصلْنَ إلى المدخل فقط، ثمَّ يَعُدْنَ أدراجهُنَّ. يتكرر ذلك عندما ينظر الرجالُ إلى النِّسوة بسخطٍ وأعينٍ مُغمَضَة - إنها الأيامُ التي يلتقي فيها الرجالُ بالرجالِ ليتكلموا عن النساء وشرورهنَّ.

لمْ يُخَطَّطْ لهذه اللقاءات سلفًا؛ إذ كانت تحدثُ صدفةً حالَ اجتماعِ رجلَيْنِ أو ثلاثة. يستهلُّها واحدٌ يشكو عذاباتِ معيشتِهِ مع زوجةٍ مُجادِلَةٍ ومماحِكَة. ثمَّ تنهالُ عليه الحُلولُ بانضمام المزيد من الرجال: من الحلول ما نجح وصنع العجائب، ومنها ما لمْ ينجح، ومنها ما استحقَّ المُحاولة، ومنها ما قد يقتل الرجلَ؛ صاحبَ الشكوى، في نهاية المطاف، إنْ لم يتوخَّ الحذر.

لكلٍّ منهم رأيه وكلمته، غير أنَّ الكلمةَ الأخيرةَ من نصيبِ المُعلِّمِ دومًا. إنه رائع! لا شكَّ في ذلك. ينشغل المُعلِّمُ بنوافذه، دون أن تنساب منه قطرة عرق واحدة، حتَّى عندما يجلسُ الرِّجالُ، بِشُعورهم المُتجعِّدَةِ من فرط الحرارة في المكان، مُطَوَّقين بمستنقعٍ من مُخلَّفات الإنسان والحيوان! تمتلئ عينا المُعلِّمِ بالدخان والدموع شيئًا فشيئًا. لحظتئذ، يبدأ حديثه، وباللغة الإنجليزية الفصيحة فقط!

حذَّرَتْ امرأةٌ ضعيفة الحجة بابا ساغي، للمرة الأولى، من ولوج منطقة أيبكارا عندما كان متدرِّبًا مبتدئًا. وفوق ذلك، كان قد انتقل للتو إلى مدينة إيبادان، وتحولت براءته إلى عبء ساعدته نساءُ أيبكارا الودودات جدًّا في التخفيف من وطأته. له أربع زوجات وسبعة أطفال. وكان قد سئم من الرائحة الكريهة، كما تضاءلت زياراته إلى مرة أو مرتين في الشهر الواحد. ومع ذلك، عاونه هؤلاء الرجال في أحلك أيامه.

جلس بابا ساغي مع المُعلِّم ورجلين آخرين، عندما كان زوجًا نافذ الصبر يبلغ من العمر ستة وعشرين عامًا، لمناقشة مأزقٍ شبيهٍ بما هو فيه الآن، قبل ستة عشر عامًا. كان توّاقًا ليُرِيَ أمَّهُ طفلًا من صلبه، لكنَّ طمثَ زوجته لم ينقطع. اقترح المُعلِّمُ عليه أن يُراجعَ مُعالجًا بالأعشاب، فتجرَّعَتْ

إيا[1] ساغي المسحوق الأخضر الداكن الذي نثره زوجُها في راحة يدها. كان مفعولُ الدَّواء سريعًا. بكى بابا ساغي في جنازة أمه حزنًا وسعادة، بعد ستة أسابيع من ولادة ابنته ساغي.

كان بابُ الكوخ مُواربًا ليتسنَّى لبابا ساغي دخول الغرفة الصغيرة. عبس. أزعجه أن تكون بولنله السبب في مجيئه، لا سيما وأنه تفاخر بفتحه العظيم قبل عامين فقط: بولنله ضيقة مثل عنق زجاجة؛ ظلَّ يُجامعها إلى أن أُصبحَتْ زوراء؛ استقبلَتْ رجولته كاملةً في ظهرها: حيث كان جسدها منفرجًا وخاضعًا. لم يعرف بالضبط كيف سيخبر الرجال أنَّ كلَّ جهوده معها باءت بالفشل.

وبينما كان بابا ساغي داخل الكوخ، واجهه الرجال أنفسهم الذين صافحوه بحرارة عندما أعلن لأول مرة عن عزمه الزواج من بولنله. كانوا يتحدثون إلى المُعلِّم على طاولةٍ تقع إلى جانب النافذة، فجرَّ بابا ساغي كرسيًّا وانضمَّ إليهم. سألوه عن السبب الذي أتى به إلى هناك باكرًا جدًّا، فحدَّثهم عن المُعاناة التي سبَّبها له عقمُ بولنله. أغمض المُعلِّمُ عينيه وهزَّ رأسَهُ في حين زفر أولابا طويلًا بشفتيه البنيتين دومًا من جوزة شجرة الكولة. مع أنَّ لديه أربع زوجات، إلّا أنَّهُ لم يستطع أن يتذكَّرَ كيف طغت قضيةُ "الزوجة المتعلمة" على مآثره الشهوانية. لم تعرف أيٌّ من زوجاته كيف يمسكن بالقلم؛ إنهن أُمِّيَّات.

"بابا ساغي، أعتقد أنه يجب عليكَ أن تَجُرَّها إلى الطبيب إن لم تُطِعْكَ. أنتَ الزوج! فما هي إلا زوجة! إنها حتى رابع زوجاتك! إن جذبتها من شعرها،

---

1 Iya: مفردة تعني "أم" باللغة اليوروبية التي يتكلمها معظم سكان غرب أفريقيا. المترجمة.

فستتبعك إلى أيِّ مكان، أقسم لك بذلك!" لعق أتاندا سبَّابته، ووجَّهها صوب خالقها. وحتى عندما نشل سيجارةً مُدخَّنَةً إلى النصف من صنف كابتن بلاك من علبة نَشوقٍ رثَّةٍ، ارتسمت على وجهه تعابير قاسية لا ترحم.

"أتاندا! أتريدُ أن تُلقيَ ببابا ساغي في السجن؟ ومن ذا الذي يجرؤ على جرّ جامعية من شعرها؟ حالَ تفتح فمها ويتدفق حَديثُها باللغة الإنجليزية منه مثل زيت نخيل ساخن، حتى يصيرَ الشرطيُّ أسيرَ كلماتها، ولسوف يزجُّ بصديقنا خلف قضبان السجن!" كان أولابا رقيبًا متقاعدًا من الشرطة، وكان يدري، أكثر من أيِّ شخص آخر، أنَّ العنف المنزليَّ يُنظَرُ إليه، بصورة واسعة، على أنه إهدارٌ لموارد الشرطة.

"أنتَ مُحِقٌّ تمامًا، يا أولابا." عرف بابا ساغي ما في داخله حقَّ المعرفة. "وفوق ذلك، تتغذى هذه الأنواعُ المتعلِّمةُ على حليب البقر. أمَّا نحن، كما تعلم، لم نملك مثل هذه الرفاهية. فقد رضعنا الحليبَ من أثداء أمهاتنا. فأنا، إن رفعْتُ يدي عليها، أعرف أنَّ ما سيأتي لاحقًا هو حديثي مع إليدومار[2]. لا، يجب ألَّا نُعامِلَ نساءَنا بخشونة. لا سيما شخص متواضع وهزيل مثلك، يا أولابا."

دخل المزيدُ من الرجال عبر الباب المنخفض متوجهين نحو الغرفة المزدحمة. ضحك الجميع.

"بلى، لكن من منكم بطنُ زوجتِهِ مُسطَّحٌ مثل مسند قدمي فقير؟ قد أكون متواضعًا وهزيلًا، غير أني قادر على إنجاز المهمة بنجاح." كان أولابا خاسرًا مُنزعِجًا.

"شكرًا لك على إعادتنا إلى المسألة المطروحة، يا صديقي." رفع بابا ساغي

2 مفردة تعني "إله الخلق في الكون وكل ما فيه، وفقًا للغة اليوروبية. م.

مؤخرة رأسه باتجاه أولابا، والتفت إلى الرجال الآخرين الحاضرين. حدقوا فيه مرة أخرى بتعاطف بائن في أعينهم. حكَّ حارسٌ ليليٌّ عجوز الكلمات المطبوعة على قميصه. تقولُ الكلمات إن **عام 2001 هو عام زيادتي.**

"بابا ساغي، لماذا تندفع بتعجل وفوضى؟" دوى صوتُ **المُعلِّم** وسط الصمت. اخترق ضوءُ الشمسِ شبكة البعوض الممزَّقة، أصاب الزجاجَ، وأنارَ هالةً على الحائط بالقرب من رأسه. "إنك تمضي باحثًا عن الحقيقة من مكان لآخر في حين أنَّ الإجابة ماثلة أمامك. تصغي المرأة المتعلمة إلى من يشبهها في هذا العالَم. اصحبها إلى المستشفى؛ فهو المكان الأنسب."

حين وصل بابا ساغي إلى متجره، كان مُساعدوه ينتظرونه جوار القفل العملاق. قوبلت تحياتهم بنخرٍ رافضٍ، وتبادلوا النظرات العارفة. كان من المفترض أن يكون هذا يومًا من تلك الأيام التي يجلس فيها بابا ساغي بوجهٍ متحجر جامد، في الغرفة الخلفية، مُسنِدًا رأسه بقبضته. كان بابا ساغي على دراية بالأمر أيضًا. جلس إلى مكتبه، ومدَّ يده إلى الدُّرج، وأخرج منه الصورة التي دسَّتْها بولنله في كفِّهِ يومَ التقيا. وبينما يمسحُ طبقة الغبار عن الصورة، ويفكر كم تغيرت شخصيتها، وكيف فقدت وداعتها وأصبحت ملأى بالجسارة الهادئة، وكيف رافقتها الفتنةُ إلى منزله وأقلقت مضجع زوجاته الأخريات.

تذكَّر اليومَ الذي التقاها فيه أول مرة. ذهبت برفقة صديقتها يميسي إلى متجر مواد البناء الخاص به. أبرمت يميسي عقود بناء صغيرة لمن ضاجعتهم من الرجال المتزوجين؛ وأصدر بابا ساغي الفواتير الباهظة التي طلبَتْها، والبضائع. كان هذا كله جزءًا من العمل.

"فقط ضاعِفْ كلَّ الأسعار،" ألحَّتْ يميسي.

لاحظ بابا ساغي الحرج عند بولنله وشعر بارتياح كبير عندما هرعت يميسي إلى الخارج لتستقبل مكالمةً على هاتفها النقال. عادت إلى المتجر، في غضون لحظات، وأعلنت أنَّ لديها عملًا مستعجلًا يجب أن تنجزه. اقترحت بولنله على صديقتها انتظارها في متجر بابا ساغي.

ساد سكون وجيز، بعد مغادرتها، فاغتنم بابا ساغي الفرصة وسمح لعينيه بلعق أظافرها غير المصبوغة، ووجهها النحيل، وشفتيها الداكنتين، وعينيها. كانت كلُّ طرفة عينٍ متمهِّلَةً وجميلة. أدرك فجأةً أنه كان يستنشقُ الهواء الخارج منها، أمَّا هي فكانت تلتهم هواءه. لقد أرسلتها الآلهةُ إليَّ، هكذا فكَّر بينما استقرَّتْ عيناهُ على نهديها.

"الآن، وبعد أن أنهيتِ أنتِ وصديقتكِ الدراسة الجامعية، فهل ستتزوجين برجل يعتني بك؟" سألها.

"حالما أجده،" أجابت.

لم يبدُ ذلك مدخلًا جيدًا لرجلٍ في منتصف العمر، لديه ثلاث زوجات، ومنزل مليء بالأطفال، لكنه عَدَّهُ استهلالًا مُناسبًا. راقبها حين دسَّت يدُها في حقيبتها وأخرجت منها رواية ممزقة.

"ألستُ مُضيفًا مُسلِّيًا؟"

أغلقت بولنله الكتاب.

همس بهدوء قائلًا: "أخبريني حين ترجعين إلى هنا بمفردك."

ثبَّتت بولنله عينيها على المكتب بينهما.

"تعالَيْ غدًا، أو بعد غدٍ. سأعرف أنِّيَ المُفضَّلُ عند الآلهة كلما رأيتكِ."

حتى هو فُوجئ بصفاقته، غير أنه شعر بضعفها أمامه.

"ولكن، ألن تأتيَ زوجاتُك ليُخرِجْنَني بالمكنسة؟"

"لا تزورني زوجاتي في مكان عملي. كان الأجدى بصديقتك أن تخبرك عن هذا الأمر. ولِمَ يأتين لزيارتي؟ فأنا أعتني بهنَّ، ولا أسباب لديهنَّ لإزعاجي." أَحَسَّ بابا ساغي برغبةٍ عارمةٍ لِمَدِّ يده، مُتجاوزًا الطاولة، ولمسِ بولنله، لكنه أخفى كَفَّيْهِ تحت المكتب.

هكذا ابتدأت الحكاية. جاءت في اليوم التالي، ثم الذي يليه، ثمَّ صارت تحضر في كلِّ يومٍ من أيام العمل من كلِّ أسبوع، إلى أن صار بابا ساغي يتنعَّمُ بنبيذ النخيل في عطلات نهاية الأسبوع ليمُرَّ الوقتُ سريعًا. لم يستطع الانتظار ليحظى بها، ويتباهى بوصفها مُلْكَهُ. أرادَ أن يصيرَ موضع حسدٍ من جميع أقرانه. وفعليًّا، لم يخف استياء الكثيرين منهم. أخبروه بأنَّه أحمق إن تزوَّجَ جامعية، تسعى للحصول على ماله فقط، ولا تحبه حقًّا، وستتركه من أجل رجل متعلِّمٍ أصغر سنًّا، بعد أن تحصل على ما أتت من أجله. ضحك بابا ساغي في وجوههم إلى أن فهموا، في نهاية الأمر، نقائصهم.

اتصل بابا ساغي بسائقه تاجو، في الخامسة، وطلب منه تشغيل محرك سيارة النقل. كان قد اتخذ قراره؛ سَيُكَلِّمُ بولنله في تلك الليلة. إنه يوم الثلاثاء، وكان سيقضي الليلة معها بكل الأحوال. ارتمى في مقعد الراكب الأمامي ومسَّد ذقنه الخالية من الشعر طوال طريق عودته إلى منزله.

وبينما كان تاجو يقود السيارة باتجاه المُجمَّع الكبير، أطلق الزامور مرتين. خرجت الأسرة بأكملها من عدة غرف ليرحِّبوا بالمُحسن الكبير. جثم أولاد بابا ساغي الثلاثة، وجذوعهم ملتفَّةٌ إلى أعلى مثل حُصُرٍ تنصُبُ حوافها. ركعت البناتُ أمامه. من أكبرهن حتى أصغرهن، ناداهنَّ بأسمائهن:

ساغي وآكِن، ابنة وُلِدَتْ قبل الابن، من زوجته الأولى؛ وثلاث بناتٍ: توبه، وأفولاكه، وموتن؛ ولدن وبين كلٍّ منهنَّ أحد عشر شهرًا، من زوجته الثانية؛ وفمي وكوله، ابناه اللذان أنجبهما بافتخار من زوجته الثالثة إيا فمي. نظر بابا ساغي بحبٍّ إلى وجوه أطفاله الكبار، وقرص وجنات أطفاله الأصغر. جعل كلًّا منهم يشعر بأنه استثنائي.

توقَّفَ بابا ساغي، في منتصف الطريق المؤدية إلى غرفة الجلوس، عند الممر الوهمي وكأنَّ فكرةً خطرت له فجأة أَنْ ليس في وسع الأطفال إنجاب أنفسهم بأنفسهم. ثم التفَّ نحو زوجاته، كما كان يفعل دائمًا. وبغنجٍ لا يعرف الحياء أو الخجل، ألقى التحية على زوجاته: "إيا ساغي. إيا توبه. إيا فمي. بولنله." انحنت كلُّ واحدة منهنَّ فخورةً بأن تُكَنَّى باسم بِكْرِها، باستثناء بولنله، التي لم تكن أمًّا لأحد.

بعد التحايا، رفع بابا ساغي ذراعيه لتساعده إيا ساغي، بأصابعها الماهرة، في خلع ردائه الفضفاض. فعلت الشيء ذاته بقميصه الفضفاض ذي الأكمام الطويلة الواسعة. ثم مشى بابا ساغي، باضطرابٍ، مرتديًا سرواله وسترته، نحو غرفة الجلوس، وعيناه تقودانه إلى أريكته الفاخرة. وقف معطيًا ظهره إليها، وكالعادة، سقط من فوره فيها، وكأنَّ الموتَ يحاصره أو يضربه. بجَّ ساعة يده، وانتزعها من معصمه. وقبل أن يضعها على المقعد الخشبي المُجاور له، كانت إيا ساغي قد مدَّتْ يدها لتأخذها منه. ابتسم ابتسامته المعهودة. "أيا ساغي، أنتِ زوجة شبابي. هل كنتُ لأتنفَّسَ إن لم تكوني زوجتي؟"

توقفت إيا ساغي، والتفتت نحو زوجها. "فلتعش طويلًا ومديدًا، يا مولاي. أين عساي أكون لولاك؟"

جمعهم طقسُ الإجلال المُتبادل إلى أن قاطعهم السعال الزائف القادم

من إيا فمي. لم تحتمل الزوجةُ الثالثة تعبيرهم عن مشاعرهم البالية. فإن لم يشملها هي أو أطفالها أيُّ شكلٍ من أشكال التفضيل أو التمييز، سارعت إلى تسجيل رفضِها.

أحضرت إيا ساغي كرسيًّا خشبيًّا طويلًا ووضعته أمام زوجها، في حين حملت ابنتها ساغي، التي راقبت أمَّها في كلِّ خطوة، وعاءً فيه ماءٌ لغسيل الأيدي. وبعد أن غطَّسَ بابا ساغي يديه في الوعاء، جفَّفَهُما بمنشفة كانت ملفوفةً على ذراع ابنته. سحب الكرسيَّ ووضعه بالقرب من نقطة اجتماع فخذيه المنفرجتين، وشرع يلتهمُ جبل الأمالا[3]، لقمة لقمة، قابضًا بلسانه على كلِّ خيطٍ يسيل من خيوط حساء الملوخية المتقطِّر من معصمه.

وعلى صوتِ لحنٍ مألوفٍ، تزاحم الأطفالُ في فسحة صغيرة أمام التلفاز وغنَّوا سويًّا أغنية مسلسلهم الاجتماعي الدرامي المفضل "Afowofa":

البحث المفقر عن دقيق الكاسافا
في حين يلتهم الأغنياءُ الأرزَّ بوعاء القياس
ينقلبُ موسمُ الأرضِ
وما من أحد يعرف الغدَ

كما في كلِّ المسلسلات الدرامية الاجتماعية الجيدة، كان لهذا المسلسلِ خاتمةٌ مُشوِّقة، دفعت جميع الأطفال إلى نوبة من الغضب والانزعاج. ضحك بابا ساغي. "توبه، موتن، أفولاكه، كوله،" نادى أطفاله، "تعالوا وشاركوا أباكم ما تركه من أجلكم في طبقه."

تجمَّع الأطفالُ عند قدميه، وتنازعوا ما تركه لهم حتى أخذ كلٌّ منهم نصيبه. ابتلع كوله حصته مرة واحدة، ثم بدا متلهفًا للحصول على نصيب أخته.

---

3 معجون سميك مصنوع من طحين البفرة أو الكاسافا. م.

" إيا فمي، إنَّ كوله نحيفٌ مثل عصا رجلٍ عجوز. لِمَ لا تُطعمين ولدي؟"
تبدَّى الكثير من القلق في صوت بابا ساغي ليأخذه أيُّهم على محمل الجد.

"إنني أُطعمه، غير أنَّ الطعامَ يختفي ما أن يصل إلى معدته. بوسع هذا الصبي أن يأكل هذا المنزل بأسره إن سمحْتَ له بذلك."

"فلتطبخي له هذا المنزل إذًا! وعندما ينتهي منه، أعدِّي له منزل الجيران أيضًا. يجب أن يأكل أطفالي حتى يشبعوا. لن يُفيدهم في شيء أن يظهروا كما المتسوِّلين في حين أنَّ والدهم يكدُّ في عمله ليُبقيَ بُطونهم مشدودة. يجب أنْ ينموَ ابني كوله ويكبر ويصبح قويًّا ليتزوَّج الكثير من النساء ولينجب الكثير من الأطفال. أليس كذلك، يا كوله؟"

"بلى، يا بابا. أريد أن أصبح مثلك تمامًا!"

ضحك الجميعُ على نضوج كوله المبكر، لذا لم يسمع أحدٌ إيا فمي تهمس "لا سمح الله،" من بين أنفاسها.

وفي مُحاولةٍ يائسةٍ منه ليكون محور اهتمام الجميع، اتَّكأ بابا ساغي على أحد ردفيه وأطلق ريحًا قوية. نظر الأطفالُ إلى بعضهم بعضًا وقهقهوا. وبملامح جامدة خالية من التعابير، تقدَّمَتْ إيا ساغي ببطء نحوه وسألته إذا كان في حاجة لبعض الماء البارد كي تهدأ معدته. وبينما كانت إيا فمي تضغط أنفها وتقلب شفتيها إلى أسفل زاويتي فمها، حملقت إيا توبه في التلفاز بعينين لا تطرفان. اقتربت بولنله، التي تمنَّتْ ألَّا يزورَها بابا ساغي في تلك الليلة، من مقعد إيا توبه قليلًا. شاهدتها إيا توبه، فتوسَّطتْ مقعدها، وكأنها تُفسحُ لها المجال. هَزِئَتْ إيا فمي مما رأته عبر الغرفة.

أريكةُ بابا ساغي هي الوحيدة التي تواجه التلفاز مباشرة؛ أمَّا زوجاته، عدا بولنله التي لم تستحقَّ بعدُ مقعدها، احتفظْنَ بمقاعدهنَّ في الركن الذي

أصرَّ زوجهنَّ على بقائهنَّ فيه. أَحَبَّ بابا ساغي أن يُراقبَ تعبيرات وجوههنَّ: مدى اتِّساعِ ابتساماتهنَّ حين يُشاهدْنَ الاسكتشات الكوميدية، وكم دمعةً يذرفْنَ حين تستحوذ عليهنَّ الأعمالُ الدرامية الموجعة والحزينة. حملقت الزوجاتُ في شاشة التلفاز، مع علمهنَّ المُسبق بأنهنَّ مُراقَبات، ولم يستدِرْنَ أبدًا للنظر في وجه بابا ساغي.

أعدَّ الجميعُ أنفسهم لطقس المساء الأخير، بعد أن انتهى العرض: المُشاهدة الجماعية لأخبار الساعة السابعة. كان من الواضح أنَّ مذيعة الأخبار غير متوازنة قليلًا حتى قبل أن تفتح فمها لتقرأ أنباء النشرة. طرفت عيناها في تتابعٍ سريع، وتحرَّكَتْ في أعلى حلقومها وأسفله غصةٌ وهي تتكلم: اعتقلت الشرطةُ رجلًا يبلغُ من العمر أربعين عامًا يُدعى جيمس جيروم بعد أن عُثِرَ على ما حدَّده الخبراءُ الطبيون أنه ثلاثة أجنَّةٍ في الحقيبة البلاستيكية التي كان يحملها.

أطلقت الشرطةُ في أبريل/ نيسان نداءً على مُستوى البلاد للحصول على أي معلومات تتعلق بموجة قتلة الطقوس. انتُشِلت، في العام الماضي وحده، جثثُ ثماني عشرة امرأة، جميعهنَّ مصابات بجروح قاتلة في منطقة الحوض. الشرطة واثقة من أنَّ اعتقالَ السيد جيروم سيؤدي إلى مُحاكمة العصابة بأكملها. يُذكَرُ أنَّ السيد جيروم عمل مُعاونَ مَشرحة في مستشفى الكلية الجامعية في مدينة إيبادان.

ظهر على الشاشة، في منتصف فقرتها الأخيرة، مقطعٌ قصيرٌ لجيمس جيروم، جالسًا على مقعدٍ، مُكَبَّلَ اليدين، ومُصابًا بجرحٍ في الرأس. لم يبدُ نادمًا على شيء أبدًا، كان منزعجًا وحسب. صُفَّتْ ثلاثةُ أجنَّةٍ مُلطَّخة بالدماء على قطعة قماشٍ بيضاء أمامه، رؤوس بأجساد صغيرة وهزيلة. بدا كأن الحياة

عادت إليها في كل مرة ترفع فيها ريحٌ قويةٌ نُدَفًا من دمها الجاف.

خلعت إيا ساغي ربطة رأسها، وقذفت بها في الغرفة، وهي تصرخ: "لماذا؟ لماذا تقتل أطفالًا أبرياء؟" ثم أمسكت إيا توبه بطنها كما لو كانت تعاني آلام المخاض، أمَّا إيا فمي؛ التي أعلنت أنَّ يسوع ربُّها ومُخلِّصُها، لم يظهر أنها مؤمنة بذلك حقًّا. أشارت إلى حيث ظهر وجهُ جيمس جيروم، وأطلقت لعناتها عليه. " أدعو الرب أن تجد طريقك إلى الجحيم! وأن يتملكك النوم في يوم الرحمة! وأن تترك باب منزلك مفتوحًا في اليوم الذي يكون فيه الموت على الطريق!"

اقترب الأطفال من بعضهم بعضًا واستنتجوا أنَّ الأخبار تُسبِّبُ جنون النَّفاس. جلس والدهم متسمِّرًا. نظر الأطفالُ إلى بولنله بعيون متوسلة، غير آبِهين أنهم قد يغضبون أمهاتهم. ارتجفت شفتا بولنله، وانهمر سيلٌ من الدموع على وجنتيها. بعد بضع دقائق، نهضت وفرَّتْ من الغرفة.

شعر بابا ساغي بمعدته تقرقر، فأمسك وعاء غسل الأيدي. لكن الوعاءَ أفلتَ من بين يديه، فعبَّأ السجادة قشدية اللون بعشائه غير المهضوم. هرعت كلٌّ من إيا ساغي وإيا توبه إليه، وانتفضتا من حوله مثل دجاجتين مضطربتين. رفعتاه من ذراعيه، وصحبتاه إلى غرفة نومه، تاركتين إيا فمي تغسل السجادة بالماء والصابون والديتول. وتركنْهُ يغفو تحت ملاءة خفيفة.

في وقت لاحق من تلك الليلة، مشى بابا ساغي مترنِّحًا في الممر الواسع المؤدي إلى غرف نوم زوجاته. كعادته، طرق بلطف باب غرفة إيا ساغي على اليمين، وجسَّ مقبض باب غرفة إيا توبه على اليسار. استمع لأصواتٍ آتية من غرفة إيا فمي، وأخيرًا توقف عند عتبة باب غرفة بولنله. لم يطرق بابها؛

وإنما فتحه بإصبع قدمه وأضاء غرفتها بإنارة الممر.

أراد أن يرى بأمِّ عينيه إلى أيِّ حدٍّ أعدَّتْ بولنله نفسها لها. أراد أن يعرف ما إذا غطَّتْ عُريَّها بقطعة قماش، مثلما تفعل نساؤه الأخريات، أو أنها ترتدي تلك البيجاما اللعينة. لمحت عيناه الأكمام الوردية، فأطلق نفسًا قصيرًا وحادًّا من فتحتي أنفه الواسعتين. كثيرًا ما تساءل عن السبب الذي قد يجعل امرأة تخلد إلى فراشها بثياب رجل، لكنه لم يذكر ذلك أمامها أبدًا خشية أن يبدوَ غير متحضِّر.

جلست بولنله في سريرها باعتدال. تظاهرت بالاندهاش، وفركت عينيها واستدارت لتُقِرَّ بصورة الظلِّ التي بزغت في أفق باب غرفتها. كانت مِشْيةُ بابا ساغي الكبيرة ملتوية إلى الداخل مثل قفاز الملاكمة. مدَّ يده إلى الباب وطرقه بأظافر يده. سألها: "أين قرأْتِ أنَّ على الزوجةِ أن تغادر الغرفة عندما يكون زوجها مريضًا؟" كما لو أنَّ التعليمَ الذي تلقَّتْهُ بولنله يُحتِّمُ على كلِّ أفعالِها اتِّباع دليلِ استخدام. لم يدلف إلى الغرفة ولم يغلق بابها. أراد لكلِّ شبحٍ طاف في أرجاء الممرِّ أن يكون شاهدًا على فُجورها.

"كالبقية، شعرْتُ بالاشمئزاز مما رأيت." وضعَتْ قدمَيْها إلى الجهة الأخرى من السرير، وارتدت مئزرًا فوق ثياب النوم.

"ما الذي تعرفينه عمَّا رأيتِ؟ لا تعرف المرأةُ ثقل الطفل حتى يحملُ رحمُها واحدًا."

عقدت بولنله عزمها على حرمانه من متعة إيذاء مشاعرها. رفعت الوعاء الموضوع على المنضدة إلى جانب سريرها ودفعَتْهُ نحو وجهه فرأى الصورة الكاملة للطين ذي اللون الأحمر القاني الغني. ألقى بابا ساغي نظرة سريعة إلى الوعاء وفزع مما رآه. ولتُخفيَ بولنله ارتياحَها، وضعت حفنةً من

المكسرات في فمها.

سار بابا ساغي إلى جانبها واستلقى على السرير. "جئتكِ الليلة لأتحدث، يا بولنله." ثقله جعل الفراش ذا النوابض غير مستوٍ. "نعم، جئتُ لأتحدث في الأمر الذي يهدد بتحويلنا إلى عدوَّيْن."

"ها أنا أُصغي إليك، بابا ساغي. فأنا لا أريد أن أصبح عدوتك،" هكذا ردَّتْ بولنله وهي مرتاحة البال طالما أنَّ الجنسَ لم يكن مُقدَّرًا.

"عقمُكِ يجلبُ العارَ لي. وإنني واثق أنكِ حزينة لهذا أيضًا. ففي كل مرة أقترح استشارة المُداوين بالأعشاب، تقولين إنهم مُحتالون وتهزئين من قدراتهم. حسنٌ..." أخذ نفسًا عميقًا ورفع حاجبيه. "لقد فكرتُ طويلًا ومليًّا، وأرى أنَّ علينا الذهاب إلى المستشفى ومراجعة الطبيب." صمت قليلًا متوقِّعًا رفض بولنله لاقتراحه، غير أنها نظرت أمامها وأخذت تضع المكسرات في فمها دون اكتراث. "غدًا، في السادسة صباحًا، إذًا." وبعد أن حسم الأمر، رفع نفسه فوق قدميه، مستعينًا بأحد أعمدة السرير، وصلَّى من أجل أن يكونوا بصحة جيدة في صبيحة ذاك اليوم.

الفصل الثاني

مزواج

لم أعثر على هذه الغرفة فقط؛ فقد حلمْتُ بالجدران الخضراء الباهتة قبل وصولي. فها هي خزانة الملابس المدمجة ملكي الآن، وكذلك مروحة السقف. تُطلُّ نافذتي على فناء خلفيٍّ بحشائش غير مُتَّسقة لكنها مُشذَّبةٌ بعناية. ترفرف الثيابُ الرَّطبةُ في نسيم المساء وتُعطِّرُ الهواءَ برائحة النظافة. وعلى الجدار الخلفيِّ، يَسْودُّ برميلٌ حديديٌّ من النفايات المحترقة فيه. يبرز صنبورُ مياهٍ من بين الحشائش، تقع تحته بلاطة إسمنتية مائلة. إنه ليس مشهدًا رائعًا، لكنه لي. لا زهور، ولا أشجار، ولا حقول، ولا تلال؛ ثمة فقط رقعة للخضراوات حيث تزرع إيا فمي الفلفل. أعرفُ تلك الرائحة جيدًا. اعتادت أمي أن تُقطِّعُهُ مع البيضِ المقليِّ كلما حَمَلَتْ. كانت الرَّائحةُ المُنبعثةُ من المِقلاة تُبقي الجزء الباقي منَّا على أعتاب العُطاس. ثم في أحد الأيام، وبينما كانت ماما تجلسُ في الفناء الأمامي، وآثار الاشمئزاز والغثيان واضحة عليها، انسرب الأطفال عبر ساقها. مَنْ يستطيعُ لَوْمَهم؟ ربما سمعوا تذمُّرَها المُتعنِّتَ وقرَّروا أنَّ من الأفضلِ أن يُولَدوا غير مكتملين. لا بدَّ أنني قد

غطَّيْتُ أُذُنيَّ عندما كنتُ في رحمها، أو ربما كانت هي أهدأ وقتئذ.

لا تُسيئوا فهمي، فلم آتِ إلى هُنا لأبتعد عن أمي فقط؛ جئتُ إلى هُنا لأتخلَّصَ من شعور القذارة الذي يُلاحقني. كنت أعرف أني إن بقيت في المنزل، سيأتي اليوم الذي تدخل فيه ماما إلى غرفتي، لتجد الدماء تنهمر من معصمَيَّ!

بعد كلِّ ما جرى، حاولْتُ جاهدةً أن أبقى على طبيعتي، غير أنِّي تلاشَيْتُ ببطء. صرتُ بولنله؛ المرأة المُدَنَّسةُ المعطوبة. باستثناء أنَّ هذا الأمر كان صعبًا أيضًا لأنَّ ماما استمرَّتْ في محاولات إجباري على القيام بكلِّ ما كانت بولنله القديمة تقوم به. ألا تعتقدين أنه يجدر بك الحصول على وظيفة، يا بولنله؟ ألن تتقدمي لوظيفة البنك المُعلَن عنها في الصُّحُف، يا بولنله؟ ألم تري الفتى الوسيم الذي كان ينظر إليك، يا بولنله! كيف لي أن أقول لها إنني فشلْتُ في الحفاظ على كرامتي؟ كنتُ أشعر بالخزي الشديد، فكيف لي أن أُطْلِعَها على حالي بعد أن غدَوْتُ صدفة. بات الوضعُ لا يُطاق، من كلِّ بُدٍّ! وكلما ازداد ضغطُها، قاومْتُ أكثر. لم أُرِدْ أيَّ وظيفة! ولم أرغب في حفلِ زفافٍ أبيض! أردْتُ للحرب بين ما كنته وما صرته أن تنتهي فقط! لم أُرِدْ أن أُقاتلَ بعد الآن.

وعندما قابلْتُ بابا ساغي، بدا كلُّ شيءٍ منطقيًّا تمامًا، بطريقة ما. وأخيرًا، سأكون قادرةً على إفراغ الحزن منِّي. سأكون مع رجلٍ يقبل بي كما أنا، رجل لا يطرح الأسئلة عليَّ، ولا يجد هدوئي مُقلِقًا. كنتُ أعرف أنَّ بابا ساغي لا يشبه الرجال الأصغر الذين يطالبونني بتفسيراتِ سرِّ النظرة البعيدة في عيني. كان بابا ساغي سعيدًا حتى عندما لا أقول شيئًا.

لذلك كله، نعم. اخترْتُ هذا المنزل. ليس من أجل العلاوة الشهرية،

ولا أطقم التنورة المزينة بأشرطة الدانتيل، ولا الأساور المرجانية. لا قيمة لهذه الأشياء عندي. لقد اخترْتُ هذه العائلة لأستعيدَ حياتي، ولأشفى دون أن أكشف عن هويتي. عندما تختارين عائلة، تصيرين جزءًا منها. تبقين مع زوجك حتى عندما تسميه صديقاتك غولًا مِزواج. تلازمينه عندما تقول أملكِ عنه إنه قردٌ مُتخَم. ترينه بصورة أخرى روحًا كبيرة سخية، ولكنها عطوفة.

بعد أن قابلْتُهُ أول مرة، أخبرتُ شقيقتي لارا أنني وجدْتُ الرجل المثالي. "أتريدين الزواج من رجل مِزواج، لتكوني جزءًا من عائلة كبيرة وكريهة؟ ماما سَتُجَنُّ! متى ستخبرينها؟" ثم ضحكت بصورة متقطعة. أدركَتْ لارا أن ماما ستغضب مني لأول مرة. قريبًا، هكذا أجبْتُها.

توقَّعْتُ ردَّ فعلِ ماما. أنصتَتْ إلى مقاصدي بفارغ الصبر، ثم قالت إنها تريد أن تحفر بأظافرها عينَيْ هذا الرجل الذي ضلَّلَني. فقط لتسمعه ينوح، هكذا أضافت. عندما أدركَتْ ثباتي على موقفي، جرَّبَتْ طريقتها؛ علامتها التجارية الفريدة، في الإقناع. سيكون مستقبلُكِ عقيمًا وغير مهم، قالت. التعدد مقصد الباحثات عن الثروة، والبدائيين، وليس للأطفال المتعلمين الذين ترعرعوا في بيوت مسيحية جيدة. وجدْتُ هذا مُضحِكًا، إذ لم نكن من روَّاد الكنيسة قط. حيث قالت ماما إنَّه من المُخجل للمرأة أن ترتاد الكنيسة دون زوجها، أمَّا بابا فقال إنَّ من المفترض أن تكون الآحاد أيَّامًا للراحة، كما نصَّ الكتابُ المقدس نفسه. وفي الوقت الذي كانت فيه ماما تبكي وتنوح لأنني سأضع عائلتي في موقفٍ مُحرِج، كنتُ أحلم بالسلام الذي سأحظى به في منزل زوجي.

مسحْتُ بعينيَّ غرفةَ النوم التي كنتُ أُشاركها مع شقيقتي لمدة إحدى

وعشرين عامًا مسحًا دقيقًا، في اليوم الذي جاء فيه بابا ساغي لأخذي. الذبولُ المُغبَرُّ لجدران الغرفة المائلة إلى الأزرق الضارب إلى الاخضرار؛ النافذة ذات الفتحات المفقودة والأُطُر المُهترئة؛ ومسابح خاصرة لارا الخرزية المُدلّاةُ من مسمار فوق سريرها؛ وخزانة الكتب الصغيرة التي تعرض مجموعتي من سلسلة روايات ميلز آند بون الرومانسية. كنتُ سأفتقدُ الحكايات المُسلّية في الروايات الرومانسية العاطفية التي انغمسْتُ في قراءتها. كنتُ أعلمُ أنني لن أستطيع أخذها كلَّها، لذا اخترْتُ ستة منها فقط. كانت لارا تشخر في نومها، فتساءلتُ كيف ستكون لياليَّ دون تنفُّسها المنتظم أو تكلُّمِها أثناء نومها. كثيرًا ما تشاجرَتْ مع ماما في كوابيسها. فكلُّ ما تكبحه مجاملاتُ النَّهار، يتمُّ تجاهله في الليل.

لم يزعجني أنني لن أحصلَ على كعكة زفاف بطبقات، أو قصاصات ملونة من تلك التي تُلقى في الاحتفالات، أو طرحة أو خطبة رنَّانة من كاهن متمرِّس. لم أتوقَّع من أمي أيَّ شذرات من الحكمة، أو صدى صوتِ أبي يقول "اعتنِ بابنتنا،" أو أيَّ اندفاعة جنونية لعناقٍ أخير من لارا إلى جانب السيارة. فمنذ أن أعلنْتُ موعد مُغادرتي، انطوَتْ لارا على نفسِها واعتزلَتْني كما لو كنتُ فارَّةً. كانت تغلق الباب بحزم، ولا تصفقه بقوة، مع معرفتي أنها تريد أن تفعل ذلك، كل مرة تخرج فيها من غرفة نومنا المشتركة.

انتظر بابا ساغي مع سائقه في السيارة، بعد اقتراحٍ وجيزٍ بتوجيه الشكر. وضعْتُ حقائبي في الخلف وجلسْتُ إلى جانبه. كلما ازدادت سرعةُ السيارة، بدا ترددي، فيلتفت بابا ساغي نحوي ونظرة العطف في عينيه. "الجميع مستعدٌّ لاستقبالك. ستنامين الليلة في غرفة نومك." مرَّرَ أصابعه على فخذي. راقبتنا عينا السَّائق، لذا وضعْتُ ركبتي على مقعد السيارة. عرفْتُ أنَّ

ثمة شيئًا لا يعجبني في ذلك المدعو تاجو.

غطسنا على امتداد الطرق التي دمَّرتها الأمطار، وبقينا نهتزُّ من جانب إلى آخر إلى أن توقفنا خلف سيارة مرسيدس زرقاء محطمة عند تقاطع أغبو. لكأنَّ ملعقة خشبية ثقيلة تحرك أحشائي. وبينما كنا ننتظر تلويحة شرطي المرور للسماح لنا بالمرور، هبط بائعو الخبز علينا. كانت الأصابع الصغيرة التي تشقُّ طريقها من النافذة المفتوحة إلى نصفها من جهة الركاب تُرغم السيارة. تراجعْتُ واتَّكأْتُ بثقلي على بابا ساغي. تمسكُ كلُّ يدٍ بكيسٍ شفَّاف من البولي إيثيلين يحتوي على رغيف خبز وملصق مستطيل ذي ألوان زاهية مكتوب عليه: خبز مشيئة الرب. خبز جسد المسيح. خبز بيت التقوى. يوم خبز المعجزة. خبز مذبح الرحمة.

"فليعط كلٌّ منكم زوجتي الجديدة رغيفًا واحدًا!" قال بابا ساغي.

سقطت الأرغفة في حضني واصَّاعدت الرائحة النفاذة للعجين المتخمر إلى أنفي. قاومت رغبتي في التخلص منها ووضعها على الحصيرة أسفل قدميَّ. لو كان بابا ساغي يعرفني جيدًا، لأدرك مدى كراهيتي للخبز، والطريقة التي يسدُّ بها الحلقوم، ويُحجِّرُ البطن. يا ترى إلى أيِّ مدى ستحبني عائلتي الجديدة عندما تقابلني، بذراعين مثقلتين بإمساكٍ دافئ حادٍّ. دسَّ بابا ساغي في أَكُفِّ الأطفال عشرين نيرة نيجيرية، وأشار إلى تاجو بالعودة إلى الطريق.

"ثمة العديد من المُتَعِ في هذه الحياة، فلا تكوني محبطة. فكِّري بزوجك قليلًا."

ابتسمْتُ مُكْرَهةً.

ادفعت الدراجات النارية في زحمة السير وأطلقت في وجوهنا سُحُبًا باهتةً من الدخان. ذرَّى بابا ساغي أنفه وتجشَّأ. نظرتُ بعيدًا حتى لا أحرجه.

لم يكن رجلًا راقيًا، ولكن كان هناك وقت. فلم يكن كبيرًا في السن للدرجة التي لا يمكن معها أن يتغير. قلتُ لنفسي إنني سأخصص وقتًا لتعليمه حسن السُّلوك.

"سنصل إلى المنزل قريبًا." أخذ بابا ساغي يدي اليسرى بكلتي يديه وانحنى إلى الأمام، متحمسًا كان، ضابطًا عينيه على الطريق أمامه مثل طفل.

قلتُ "أتلهف للقاء عائلتي الجديدة،" غير أنَّ الكلمات خرجت واهنة ومفرغة من معناها.

ابتسم تاجو بتكلُّفٍ، ونظر إليَّ نظرة سخرية. كنتُ على حق: لم أحبه.

همس بابا ساغي في أذني، قائلًا: "أنا توَّاقٌ لألقى بجسدي جسدك."

انعطفنا باتجاه درب قصيرة، بعد بضع دقائق من المداعبة بالأيادي. كان هناك غطاء من القماش المشمع ملفوف حول أربعة أعمدة خشبية. وثلاث فتيات يلعبن عند البوابة. كنَّ يرتدين ثيابًا مأخوذة من القماش الرخيص ذي المربعات. اجتمعت خصلاتُ شعرهنَّ المُضفَّر فوق رؤوسهنَّ مثل الأصابع المشدودة. وما أن رصدن السيارة تقترب، حتى قفزن في الهواء وهتفن بابتهاج. قريبًا، سينضمُّ المزيدُ من الأطفال إلى ترنيمة "عاد الأب." ظهر صبي أكبر سنًّا وأبعدهن عن الطريق.

لم يستطع الأطفالُ إخفاءَ خيبةِ أملهم عندما رأوني، لكن بابا ساغي لم يلحظ ذلك. بدا مزهوًّا وطلب من الأطفال أن يُرحِّبوا بخالتهم الجديدة. انحنت الفتياتُ بجلافة، أمَّا الأولاد فانحنوا نصف انحناءة متعجلين.

قلتُ له "بابا ساغي، إنهم صورة طبق الأصل عنك."

"هذا الشبل من ذاك الأسد، أليس كذلك؟ فلندخل لتقابلي أمَّ هذا البيت وزوجتيَّ الأخريين." أزاح بابًا زجاجيًّا مُلوَّنًا، وها زوجاته يقفن في

صف، وقد ضُبِطن وهن يشبعن فضولهن.

نزلتُ على ركبتيَّ وقدمتُ لهن التحية. فقط من كانت ترتدي ثيابًا رثة كلفت نفسها عناء أن تفتح فمها وتردَّ التحية. ثم نظرت بسرعة إلى الزوجات الأخريات. تدحرجت المرأة الكبيرة على أصابع قدميها وأجرت لي فحصًا شاملًا من شعري حتى أخمص قدميَّ. خمنْتُ أنها هي سيدة المنزل. وقفت طويلًا واضعة يديها على ردفيها. ارتدت الزوجةُ ذات أحمر الشفاه القرمزي ثلاث أساور ذهبية مجلجلة حول معصمها. لم أر مثل هذا التباين في لون البشرة قط. ربما كانت حمارًا وحشيًّا. بينما كان لون ساعديها داكنًا، وبراجم أصابعها صفراء رملية. تموَّجت الأوردة الأرجوانية وهي تهاجم رأسًا سوداء على ذقنها. همهمت ردًّا على تحيتي من بعيد. سيحتجن إلى دروس في قواعد السلوك والكياسة.

جلسْتُ على كرسيٍّ في حين جلست الزوجاتُ على أرائك كبيرة. تجول الأطفال في أرجاء الغرفة وتهامسوا فيما بينهم. ومن أجل تخفيف الصمت غير المُريح، أخبرْتُ الزوجة صاحبة البشرة ذات اللونين كم تبدو بلوزتها وتنورتها رائعتين. القماش من الكتان مئة في المئة، ومُطَرَّزٌ بالبنفسج الصغير. حتى الأزهار كانت على شكل براعم الزهور.

أجابت بحدة "حتى النساء غير المتعلمات يرتدين ملابس جميلة أيضًا."

عليَّ أن أبدأ بتعليمهنَّ كيف يتقبَّلْنَ المديح بلباقة.

ولأبتعد بذهني عن الإحراج، نظرتُ إلى الخارج عبر الأبواب الزجاجية الملونة. في تلك اللحظة، ضرب شعاع الشمس الحارقة الزجاج المعتم وتسلل إلى الغرفة عبر رقاقة صغيرة. انكسر الشعاعُ في الرُّقاقةِ ذات الحواف الخشنة وانتثر قبسه في أرجاء الغرفة. سقط الضوءُ على قدمي مثل

يراعة هابطة. ثم تسللت الشمسُ من خلف سحابة وتلاشى كلُّ شيء في الهواء الساخن. غير أنَّ الرُّقاقة ظلَّتْ تُخفي إشراقَها سرًّا من خلف الشق الصغير، متخذة علامة يد مترددة. أدركْتُ أنَّ في الأمر علامة. فأنا في المنزل.

"هل ستبقين منشدهاتٍ أمام زوجتي الجديدة إلى أن أموت جوعًا؟" سأل بابا ساغي.

"ليس في هذه الحياة، يا سيدي." تحوَّلت إيا ساغي؛ أكبر الزوجات، بسرعة، إلى امرأة أُخرى متكيفة. واهتزت الأرضُ مع كلِّ خطوة لها. وانطلقت الزوجات الأخريات في أعقابها.

بالنظر إلى الماضي، بعد أن انقضى عامان، أُدرك كم كنتُ ساذجة لأتوقع منهن ترحيبًا أكثر حرارة. كنتُ حمقاء لأعتقد بأني سأكونُ مجرد إضافة تافهة لهم في حين أنني، في الواقع، جئتُ لأسلبهم جزءًا من العائلة. وبمجيئي، تغير عدد الليالي مع بابا ساغي ليصبح 1,75 بدلًا من 2,33 ليلة. وتوزعت مشاعره، المنقسمة والضئيلة أصلًا، على أربعة نساء، بدلًا من ثلاثة.

لم تتغير النساء. فلا تزالُ إيا توبه ودودة، بل إنها لطيفة في تعاملها معي عندما نكون وحدنا في المنزل. لا تتكلم كثيرًا إلَّا عندما تتحدث عن الشَّعر. تثب مقلتا عينيها في مِحجريهما وتستخدم أصابعها لرسم تسريحات الشَّعر في الهواء. كثيرًا ما أسألها عن تسريحات الشَّعر، فقط لأسمع صوتًا ودودًا لامرأة ناضجة أخرى.

المرأتان الأخريان مختلفتان: فلم تغفرا لي بعدُ تعلُّق بابا ساغي بي ومحبته لي. من عادة إيا ساغي وإيا فمي الصراخ، والهمس، والبصاق. وبينما تكنِّسان الأرض، تردِّدان أغنيات ساخرة طوال الوقت لتهزءا مني. ليس

ذنبهما أنهما فظّتان. علّمني العيشُ معهما قيمة التعليم وأهمية التنوير. لقد رأيت الجانب المظلم للأمية. ومن فرط ازدرائهما لشهادتي الجامعية، كانتا تلطخان كتبي بزيت النخيل، وتخفيانها تحت خزائن المطبخ. غالبًا ما وجدْتُ صفحات ناقصة من رواياتي في سلة المهملات، وخربشة بالفحم على الكلمات فيها.

لا يبدو الأمرُ كما لو أنني لم أحاول. فقد عرضْتُ عليهنَّ أن أُعلِّمهنَّ القراءة. كانت إيا توبه حريصةً على التعلم، غير أني بعد حين وجدْتُ إيا فمي تمزِّقُ الأوراق من دفاتر التمرين لتُرتِّبَ بها خزائن المطبخ. وعندما ذكَّرْتُها بالسبب الذي جعلني أشتري هذه الدفاتر، قالت إنَّ بإمكاني الزحف إلى الخزائن وتعليم الحشرات إذا أردْتُ للدفاتر أن تحقق الهدف من شرائها. حاولْتُ مُساعدةَ الأطفال أيضًا. طلبْتُ منهم أن يجتمعوا في غرفة الطعام لأقرأ لهم. حضرت بناتُ إيا توبه في اليوم الأول فقط. أخبرتني إيا ساغي، في اليوم التالي، ألَّا أتعجَّل، وأنَّ عليَّ أن أتمهَّل حتى يصير لي أطفالٌ من رحمي، إذا كنتُ متلهفة لأصبح معلمة إلى هذ الحد. هذا هو الحدُّ الذي يكتمون عنده توقهم للتنوير. إنهنَّ يحاولْنَ إقصائي كما لو أنَّ فظاظتهنَّ نوعٌ من الافتخار والكبرياء، غير أنَّ حيلتهنَّ هذه لن تنطلي عليَّ. لن أتخلَّى عنهنَّ. وسأنيرُ ظلمتهنَّ.

يقتدي الأطفال بأمهاتهم. فلن يجلس أولادُ إيا فمي على مقعد أفرغه لهم. وعندما أمرُّ بهم في الممرِّ، يستديرون إلى الجدار، ويلتصقون به. وبصرف النظر عن عدد المرات التي أقدِّمُ لهم فيها الحلويات، فإنهم يعاملونني كما لو كنتُ أعاني من مرضٍ مُعْدٍ. لا يسعني إلَّا أن أتساءل عمَّا تحشوه أمُّهم في آذانهم الصغيرة. بناتُ إيا توبه مهذَّبات لكنهن منعزلات. يحضرن وجبات

الطعام إلى باب غرفة نومي أحيانًا. أعرفُ وقعَ خطواتهنَّ. إنهن يتجوَّلْنَ في المنزل معًا، ذراعًا بذراع، مثل ثلاثة توائم ملتصقة.

لدى إيا ساغي طفلان. تبلغ الكبيرة؛ ساغي، خمسة عشر عامًا. وهي أختٌ مُطيعةٌ لإخوتها، ولكني أعتقد بأنها تخشى أن تكون في نيَّتي أخذ مكانتها. أرى غضبها عندما أساعد الأطفال الآخرين في حلِّ واجباتهم. لا تتحدث إليَّ، غير أني كثيرًا ما ألحظ ظلَّها بالقرب من الباب. من المدهش أنها لم تخبر أمَّها بعدُ بأنَّ شقيقَها آكِن يأتي إلى غرفتي عندما يحتاج لمساعدة في حلِّ واجباته المدرسية. آكن هو المفضل لدي. يقرع باب غرفتي قبل الدخول. يأتي لمساعدتي إن كنتُ أحمل حقائب ثقيلة. وكما يفعل مع الزوجات الأخريات، فإنه يلقي عليَّ التحية قبل أن أفعل. قلتُ له إنه وُلِدَ لبقًا. وعندما يسأل عن معنى كلمة "لبق"، فإنني أطلب منه أن يبحث عنها في القاموس. يفعل ذلك ويشاركني اكتشافه في اليوم التالي.

سيحبُّونني جميعًا يومًا ما. سأشتري محبَّتهم بالمال الذي يعطينيه بابا ساغي إن اضطررت لذلك! سأحضر الحلويات للصغار في المنزل. وسأشتري لآكن حقيبة مدرسية جديدة، ولساغي ربطة شَعر مخملية جديدة لشدِّ عُرف الديك في رأسها. سأصيرُ أختًا كبرى لها. وسأخبرها كل ما أعرفه عن العالَم الخارجي لتتلافى الأخطاء التي ارتكبتُها.

ذات يوم، سيقبلونني فردًا من أفراد هذه العائلة. ذات يوم، سيصير لي طفلٌ من رحمي، وكلُّ مُرٍّ سيمرُّ. وسيجد زوجي سعادته معي ثانية، بالطريقة ذاتها التي كانت قبل أن ينخر عقمي محبتَهُ الأولى لي.

الفصل الثالث

حيض ثقيل

وبينما كان بابا ساغي يمشي في الممرِّ بتثاقل، باتجاه غرفة بولنله، صرخ مُهتاجًا: "إيا ساغي! ساعديني! لا أجد بولنله! من المفترض أن نذهب إلى المستشفى اليوم! أين هي؟"

فتحت إيا ساغي باب غرفتها، وسألت: "ماذا أضعْتَ، يا بابا ساغي؟"

"إنها بولنله! لقد رحلت! لا بدَّ أنها هربت في منتصف الليل. ضاع كلُّ ما أنفقتُهُ عليها من أموال. رحلت الخريجة المتعلمة!" إحدى ساقيه داخل سرواله، والأخرى عالقة في الحزام، صار يقفز، والعرق يتقطر من صدره العاري.

"هل بحثْتَ في غرفة نومها؟" حاولت إيا ساغي المشاركة في حالة الذعر الراهنة لكنَّ كلماتها خرجت بطيئة جدًّا.

"بحثْتُ في كلِّ مكان!"

"يا لهؤلاء الفتيات المتعلِّمات. يأخذن مالك ويهجرْنَكَ. بعد كلِّ ما فعلته من أجلها. ما أحقرها! فرَّتْ مع رجل آخر، بلا شك!"

"بابا، إنها هُنا، نائمة في غرفة المعيشة." انحنت ساغي في الممرِّ ورغوة الصابون تغمر ساعديها حتى مرفقيها.

"أين؟ أريد أن أرى بأمِّ عينيَّ! بولنله! بولنله!" وثب بابا ساغي إلى غرفة المعيشة ووقعت عيناه على بولنله؛ كانت مستلقية على أريكة إيا توبه مغمضة العينين.

في الأثناء، اجتمعت الزوجات الأخريات عند مدخل الممر أيضًا مُحاولاتٍ استيعاب حالة الهياج الحاصلة. شاهدن بابا ساغي يمسك بولنله من كتفيها ويهزُّها. ثم هتف: "إنها هُنا! حية ترزق! حمدًا للآلهة!"

عادت إيا ساغي أدراجها، نحو غرفتها، بهدوءٍ تامٍّ.

"أنا مستيقظة الآن،" قالت بولالني لاهثة، حتى لا يشدَّ بابا ساغي أكثر على كتّافتيها القطنيتين ويُجعِّدَ الأشرطة الوردية فوقها.

أشعلت إيا فمي الأنوار، فلمح بابا ساغي وجهَ بولنله للمرة الأولى. من الواضح أنها وضعت زينتها بعناية. حاجباها متسقان لأنها رسمتهما بالقلم، لا يشبهان الخطوط المتعرجة والعجولة التي ترسمها إيا فمي على وجهها. غمرت شفتيها باللون العنَّابي، واستخدمت رأس خنصرها لتضع طبقة شفافة من اللون الذهبي تعبِّئُ بها شفتيها. كان طقم التنورة مُناسبًا لها غير أنَّ عامين دون تناوُلِ البوظة الناعمة أفقداها قليلًا من الوزن عند الخاصرة. كانت أصابع قدميها محشوة في خفين باللون الفوشي. لكأنَّ الأشرطة الوردية قضبان حديدية ساخنة فاندفعت أصابعُ بابا ساغي إلى أعلى. وقف منتصبًا، دون أن ينبس بكلمة، وسار إلى غرفة نومه. عادت إيا توبه إلى غرفتها أيضًا. هرعت إيا فمي في أعقاب ساغي؛ إذ أرادَتْ أن تعرفَ كلَّ التفاصيل. سَوَّتْ بولالني شَعرها إلى الخلف، وابتسمَتْ.

طرق تاجو على إطار الباب المعدني، في الساعة السادسة. لكنَّ النَّومَ غلب بولالني مرة ثانية. تَعالى صوتُ الطرق على الباب إلى أن دخلت إيا فمي إلى المطبخ وأحدثت أكبر قدر ممكن من الضوضاء بالمفاتيح. "لا أفهم كيف ينام بعض الناس كالأموات!" شدَّتْ إزارَها إلى صدرِها. "سأفتح لك، سيد تاجو. لا يعرفُ بعضُ الناسِ أنَّكَ ربُّ عائلة."

"شكرًا لكِ، إيا فمي. صباح الخير. أرجو أن تكوني بخير."

"لنقل بأننا صحونا، ولنترك الأمر عند هذا." ألقت نظرة جانبية ماسحة في اتجاه بولالني. "ماذا عنكِ؟" انفتح القفل وتلته السلسلة.

"من يرى وجهَكِ، سيصحو مستبشرًا حتمًا." همس تاجو، ثم همهم معجبًا ببشرتها العارية المتلألئة من ندى الصباح.

"سيد تاجو، قد يظنُّ المرءُ أنَّ جسدكَ لم يأخذ حصته من عناق زوجتك. على أية حال، من الجيد أنك حضرت في الوقت المحدد. أعتقد أنَّ بابا ساغي يريد أن يغادر باكرًا هذا الصباح." ضحكا، ثمَّ عادت إيا فمي إلى غرفة الجلوس، ومعها تاجو، يسير خلفها.

تأخر تاجو مرة واحدة فقط في عمله. حصل هذا قبل عام تقريبًا، عندما وصل بقميصه المُتدلِّي على كتفه الأيسر، وآثار أظافر تظهر على جبهته. وبينما أخرج عودًا من بين أسنانه، ودفع به في شعره المتجعد، ادَّعى أنه فقد وعيه حين ضرب زوجته لأنها تركَتْ ابنه الوحيد يمصُّ قطعة نقود معدنية. حدث هذا بعد زهاء أسبوع من حادثة صفع عضوٍ في مجلس الشيوخ لزميلةٍ له. تداعت أصداءُ الصفعة في جميع غرف الاجتماعات الهادئة، في مبنى مجلس الشيوخ، وفي قلب كل رجل في الشارع. لكأنَّ هذه الصفعةَ أيقظَتْ وحشًا طليقًا مغلول اليدين. وبالطبع، ألقى عضوُ المجلس

اللومَ على الشيطان لما فعله، وسرعان ما شُوهِدَ هذان العضوان متعانقين على شاشة التلفاز الوطني. لا يمكن قول الشيء نفسه عن الرجل في الشارع. فقد أضحى صفعُ نساءِ العائلة عادةً عند الرجالِ كما لو أنَّها رياضة وطنية. ووضعت النساءُ السَّاخطاتُ حقائبهنَّ على رؤوسهنَّ، في كلِّ زاوية من زوايا الشارع، آملاتٍ أن يتمَّ إقناعهنَّ بالعودة إلى بيوتهنَّ. أمَّا في السوق، فقد كان تُجَّار الأقمشة المنتمون لشعب إيغبو يقطرون النساءَ من أكمامهنَّ بخشونة. وسائقو التاكسي المغتاظون ينكزون رؤوس الأمهات اللاتي يساومنهم؛ كما اعتُدِيَ على الفتيات الصغيرات وجُرِّدْنَ من ملابسهنَّ في الشوارع. حتى في أجنحة الولادة، كانت المواليد الإناث موضعَ استياءٍ من آبائهنَّ. لذلك كله، تَحفَّزَ تاجو ليُدْلِيَ هو الآخَرُ بأفضل ما لديه.

عندما نادى بابا ساغي بولنله أخيرًا، كانت مستغرقةً في النوم، تحلم بـ سيغن؛ صبيٍّ عرفَتْهُ في ماضيها. إنه الحلم نفسه الذي يأتيها دائمًا. حيث يقف سيغن في منتصف حلبة رقص مزدحمة مُشيرًا إليها. كانت ستشرعُ في السَّيْر نحوه، غير أنه، بعد وقت، مدَّ يده إلى جيب صدره، وألقى كمشةً من قطعٍ ذهبيةٍ صغيرةٍ عاليًا في الهواء. فجأةً، تخلَّتْ كلُّ النساء في ملهى الرقص عن شركائهنَّ من أجل سيغن، أمَّا بولنله، متروكةً، لم تزل واقفة هناك، غير قادرة على تمييز جسده من بين حشود النساء بتنانيرهنَّ القصيرة جدًّا وقمصانهنَّ مفتوحة الصَّدر.

"يجب أن نصلَ إلى هناك عند السادسة وخمسين دقيقة!" فتح بابا ساغي البابَ قليلًا، قال ما قاله، واختفى.

سمعت بولنله صوتَ الباب الأمامي يصفق، قبل أن تنتهيَ من ربط إبزيم صندلها. كان بابا ساغي يتحدث إلى تاجو عبر النافذة المفتوحة للسيارة

عندما لحقَتْهُ بولنله أخيرًا.

"اركبي،" أمرها، وبالكاد أعطاها مساحةً كافيةً لتحشر نفسها وتمرَّ.

"إلى جانب السيد تاجو؟"

ردَّ تاجو بسرعة وبحدة: "إذا كنتِ لا تريدين أن تجلسي إلى جواري، يمكنك الجلوس في الخلف. الريح باردة إلى حد مزعج في هذا الوقت من الصباح."

نظر بابا ساغي إلى تاجو وابتسم ابتسامةً عريضة. ارتدت بولنله ملابس طالبة جامعية أثناء ذهابها إلى المستشفى، غير أنَّ سائقه وضع لها حدودًا. وبينما حشرَتْ بولنله نفسَها بين الرَّجُلين، رسم بابا ساغي طرقًا لإبقائها في الظل، وأخرى لإبعاد وجهها المُزيَّن عن ضوء النهار. كان عازمًا على إهدار جهودها.

لمَّا اقتربوا من نهاية شارعهم، قدَّم لهم الحارسُ الليليُّ التحيةَ. ثم طلب منهم أن يتوقفوا ليتسنَّى له الاقتراب من الإطارين الأماميين ويزيح لوحةً خشبيةً مليئةً بالمسامير الطويلة الصَّدِئة من تحتهما. رفع القضيبَ المعدنيَّ الموضوعَ ليكون رادعًا للصوص المسلَّحين الذين اعتادوا إرهابَ الحيِّ. أخذ بابا ساغي خمسين نيرة من حقيبة جلدية سوداء كانت في حوزته ودسَّها في يد الحارس. رفع الحارسُ قبعته احترامًا ولوَّح بيده.

شَقُّوا طريقَهم باتجاه شارع سانغو. والقضبان المعدنية الموصولة بالسيارة تُصْدِرُ صوتَ قعقعة. كان تاجو يحفظ الطريق عن ظهر قلب، لذا قاد السيارة بحرفية عالية. مرَّ مسرعًا فوق أسلاك الحفر الكبيرة، ملقيًا بركَّابه مسافة بوصة من مقاعدهم.

تنبهوا إلى موقع دورية شرطة في اللحظة التي وصلوا فيها إلى شارع

سانغو. أطفأ أحدهم النار في العُلب المُعبَّأةِ بالكيروسين التي أنارَتْ نقاطَ التفتيش المؤقتة. أفرغ شرطيَّان آخَران غلَّة الليلة من جيوبهما، وتبادلا جرعاتٍ كبيرةً من زجاجة كحول من نوع نابليون شيفالير. أمَّا بنادقهم، كانت مُلقاة على الأرض، تُدثِّرُها معاطفهم السوداء الواقية من المطر. وعندما رآهم الشُّرطيُّ يقتربون، أثناء إخماده ألسنة اللهب، أخفض نور الفانوس الذي كان يحمله ورفع هَراوته. وقال بصوتٍ عالٍ: "توقَّفوا!" لم يُنْزِل هَراوته أو يفتح عينيه إلَّا حين أصبح غطاء مُحرِّكِ السيارة على بُعد نصف ياردة من بنطاله الأسود المهترئ. "إلى أين أنتم ذاهبون في هذا الصَّباح الباكر؟ هل أنتم مجرمون؟" أمعن النظر فيهم عبر النافذة. لانت عيناه قليلًا حين وقعتا على بولنله، لكنها لم تلتفت إلى تفرُّسِهِ فيها؛ فاستأنف أسئلته المُستجوبة. "من أنتم؟ عرِّفوا عن أنفسِكم!"

"حضرة الرَّقيب، أنا السيد أتاندا آلاو. إننا في طريقنا إلى مستشفى الكلية الجامعية." ابتسم بابا ساغي ابتسامةً خجولةً ومرتبكة بينما تسللت يده إلى حقيبته السوداء.

"من المريض؟" استعلم الشرطيُّ متظاهرًا بالاهتمام. وقعت عيناه هو أيضًا على الحقيبة المنتفخة، وانتبه إلى يد بابا ساغي المترددة تقترب منها.

نظر كلٌّ من بابا ساغي وتاجو إلى بولنله. وثبتت عينا الشرطي مباشرة على ورقة الخمسين نيرة الزرقاء المتجهة نحو كفه المفتوحة. نظر باتجاه زملائه. عندما تأكد أنهم ما يزالون منكبِّين فوق معاطفهم، حشر المنفرج؛ ما بين فخذيه، في النافذة، ودسَّ الورقة فيها. كان سحَّابُ بنطاله على بعد بوصتين من وجه بابا ساغي. تسمَّرت نظراتُ بولنله في الجزء الأوسط من جسد الرَّجل، متحمسة لرؤية إن كان سيُتوِّجُ فجاجته بما هو أفظع.

"تحرَّكْ!" أمر الشرطي، ثمَّ انقضَّ على سيارة الأجرة خلفهم.

انحنى بابا ساغي خارج السيارة وبصق لحظة غاب رجالُ الشرطة عن ناظريه. ومع أنَّ معدته كانت فارغة من أيِّ طعام، إلَّا أنه أراد أن يُفرِغَ ما فيها. نظرت إليه بولنله، لكنه تجاهل اهتمامها، ومسح شفتيه بظهر يده.

لا يستطيع بابا ساغي الاحتفاظ بما في معدته إطلاقًا. إنه كالأنبوب المفتوح من جانبيه. تتَّصلُ حواسه بأمعائه مباشرةً، فكلُّ ما لا يأتي على هواه يُحفِّزُ جهازَهُ الهضميَّ على التخلص مما فيه. الروائح الكريهة، والأخبار السيئة، ورؤية كل ما يثير الاشمئزاز له أثرٌ طاردٌ عليه: فما يدخل في فمه للتو يندفع خارجًا من جسده، وما يستقر في بطنه يسير متعجلًا في أمعائه إلى أن يخرج من مؤخرته. هكذا يستعيد بابا ساغي هدوءه، حال يُنقِّي جهازَهُ الهضميَّ.

ذات مرَّة، أخبره العمَّال أنَّ متجره تعرَّض للسطو. أنصت إليهم جيدًا لمَّا تَلَوْا عليه قائمة المسروقات. ثمَّ مشى خطواتٍ واسعةً إلى المرحاض بعد أن تشنَّج ردفاه. ثم ظهر ثانية، بعد أن اختفى التوتر كله من وجهه بعد دقائق.

"كلُّ ما يعني قولُهُ هو أنَّ ما حدث حدث." لم تكن هذه ردَّةَ الفعل الرصينة التي توقَّعَها الموظفون المرتبكون؛ نظروا إلى بعضهم بعضًا وتساءلوا إن كان بابا ساغي ما يزال مصدومًا.

ضمَّتْ بولنله مرفقَيْها إليها. اكتشف تاجو طريقة جديدة ليثيرَ حنقَها. فكلَّما غيَّر ناقل السُّرعة (التُّرس)، مال بذراعه قريبًا من صدرها. وعلى بُعد مسافة، أطلق قطارٌ قديمٌ صوت صفير وشهق قبل أن يُصدرَ أزيزَهُ اليوميَّ. بدأت الحياةُ تدبُّ في أوصال شارع سانغو. وسائقو الحافلات الصغيرة يُشغِّلون مركباتهم ويتدفَّقون خارجين من مواقف السيارات المكتظة.

وكنَّسَتْ النساء اللاتي تحملن على ظهورهنَّ أطفالهنَّ أرضيات أكشاكهنَّ في السوق، وتأفَّفْنَ من منظر أعقاب السجائر والزجاجات المكسورة: بقايا عربدة الليل.

اشتهر مستشفى الكلية الجامعية بسمعته السيئة. فالمرضى يُودِّعون أحبَّاءهم فيه. كما أنَّ انعدامَ التمويل الحُكومي، مقترنًا باختلاس الأموال القليلة التي يجنيها المستشفى، أدَّى إلى تداعي الأبينة. قُنِّنَت الفحوصات الطبية الضرورية، ورفض الأطباءُ المرضى الذين لا يحضرون أدويتهم بأنفسهم. السبب الوحيد الذي دفع النَاسَ للذهاب إلى هذا المستشفى، بدلًا من مراجعة الآلاف من العيادات السرية أو غير القانونية، هو وثوقهم بالشهادات الطبية السليمة للأطباء.

أدركت بولنله أنهم أصبحوا على مقربة من المستشفى ما أن شاهدت أشجار النخيل المصطفة على جانبي المدخل الرئيس، حاجبة أشعة الشمس عن المُعزِّين في هذا الصباح الباكر. كثيرة ودائمة هي الدموع عند البوابة، فمن هُنا تسري أخبار الموت وتشيع إلى أفراد الأسر المحزونين: هُنا، حيث لا خطر من أن يلقوا بأنفسهم من شرفات المستشفى العديدة. بالإضافة إلى ذلك، كانت البوابة الرئيسة موقعًا غير مُلائم ليُظْهِرَ فيه المُشيِّعون غضبهم الجامح على الملأ. كان هناك الكثير من الناس المنغمسين في مشكلاتهم الخاصة. لذا، جلس المُشيِّعون فوق صخور كبيرة مستديرة وبكوا بصمت.

"أين أُوقِفُ السيارة؟" سأل تاجو واحدًا من حرَّاس الأمن المتمركزين حول البوابات لتطبيق النظام وقت الحزن.

"وهل أبدو لك حارسًا لموقف السيارات؟" صاح الرَّجل بحدة وهو يبتعد.

وبينما قاد تاجو السيارة مبتعدًا، بعجلاتها التي تصدر الصرير، همس

باستهجانٍ قائلًا "آسف. اعتقدْتُ أنك هُنا لتعمل. لم أدرك أنَّ هذه غرفة جلوس والدك." قبل أن يستدير الحارسُ ويهزَّ إصبعه مستنكِرًا ما حدث، كانوا يتناقشون حول الدوار أمام المبنى الرئيس.

استمرَّ تاجو في البحث عن مكان يوقف فيه السيارة لعشر دقائق قبل أن يقترح بابا ساغي أخيرًا النزول.

قال تاجو: "ثمة مكان فارغ، يا سيدي،" مشيرًا إلى مكان فارغ أسفل لافتة مكتوب عليها "المشرحة."

"أمتأكدٌ أنك تريد أن توقف السيارة هناك؟"

"لا مشكلة، يا سيدي. سأنتظركم فيها. لن يحدث شيء." ضرب تاجو صدره كما لو كان يسيطر على الأشباح الكامنة خلف الباب الرمادي الكبير، وأيِّ شيطنةٍ قد تدور في الخلد.

"حسنٌ، على الأقل نعرف أين نجدك. لن نتأخر كثيرًا."

"رافقتك السلامة، يا سيدي." تجاهل تاجو بولنله، الذي نَفَشَ شعرَهُ بعود وضعه بين أسنانه.

عندما وصلت بولنله وبابا ساغي إلى أعلى درجة في السُّلَّم، انفتح أمامهما ممرٌّ طويلٌ امتدَّ في كلا الجانبين. لمح بابا ساغي شخصًا بمعطفٍ أبيض، وركض نحوه. "دكتور! دكتور! أحتاجُ مساعدتك. رحم زوجتي-" نطق لاهثًا.

عاين الطبيبُ محيط خصر بولنله واستفسر إن كانت في مرحلة المخاض.

أجابت بولالني: "لا." ثم أضافت بهدوءٍ قبل أن يُحرجَها بابا ساغي أكثر "نريد مشورة طبية."

قال الطبيب: "فهمت،" وأومأ برأسه. "هل هذه زيارتُكِ الأولى لمستشفى الكلية الجامعية؟"

انزلق لسانُ بابا ساغي دون تفكير قائلًا: "لم يكن لدي ما يضطرني للمجيء إلى هُنا قبل الآن. وأوغون[4] على ما أقول شهيد."

دلهّما الطبيب مُخاطِبًا بولنله. "توجهي إلى قسم العيادات الخارجية العامة. سِيري إلى نهاية هذا الممرِّ وانعطفي يسارًا، أسفل الدَّرَج، ثم سيري حتى نهاية ذاك الممرِّ، إلى أن تواجهك لافتةٌ كبيرةٌ مكتوبٌ عليها باللون الأزرق "العيادات الخارجية العامة." لن تضلِّي الطريق."

وبينما كان غاضبًا من الطريقة التي حملق بها الطبيبُ في زوجته، أمسك بابا ساغي بولنله من مرفقيها، وقال: "هيَّا! سنجد المكان بأنفسنا!"

راقب الطبيبُ المندهشُ بابا ساغي يجرُّ بولنله بعيدًا في الاتجاه الخاطئ. انتزعت بولنله ذراعَها من قبضة يده وقادت الطريق بنفسها. وفي كلِّ مرة كانا يمرَّان بالقرب من ساعات المستشفى المعلقة، نقر بابا ساغي وجهَ ساعة يده وعبس حائرًا. هزَّتْ بولنله رأسَها حين اقتربا من لافتة "العيادات الخارجية العامة."

"بابا ساغي، الساعات معطلة. ليس في هذا أي معجزة أو سحر. ببساطة، تعطلت الساعات."

نظر بابا ساغي إلى ساعة يده للمرة الأخيرة ووضع ذراعيه جانبًا.

أمامهما، يتكئ طبيب على حافة طاولة. شبَّك أصابعَهُ فوق رأسه وتثاءب. انتصبت ممرِّضةٌ أمامه كانت تجلس على كرسي بلاستيكي. تثاءب الطبيبُ ثانية، وبينما كانت شفتاه تُغلقان، غطَّى فمه. ثبَّت إحدى ذراعي

---

4 إله الحديد في العديد من الديانات الأفريقية. م.

نظارته بلاصق وكانت لحيته شعثاء.

"إذًا، هل ستذهب إلى البيت لتنام بمفردك؟" وضعت الممرضةُ ذراعيها أسفل ثدييها حتى برزا. كان الزِّيُّ الذي ترتديه متموِّجًا ورقيقًا.

استدار كلاهما لحظة اقتربَتْ منهما شابةٌ حسنة المظهر يتبعها رجلٌ غاضبٌ في منتصف عمره. حكَّ الطبيبُ رأسه وعاد إلى حجرة الاستشارة الخاصة به.

"أيمكنني مساعدتك؟" كانت نبرة الممرضة ودودة رغم تجهُّمِها القليل. ثمة أصوات في الخلفية - أطباء آخرون يجرون استشارات مع مرضاهم.

قال بابا ساغي: "أختاه، زوجتي هذه هي من تحتاج إلى مساعدتك."

"ما اسمُكِ؟" أخرجت الممرضةُ ملفًّا ورديَّ اللون من المكتب الذي استندت إليه.

أجاب بابا ساغي: "بولنله آلاو."

"تاريخ ميلادك؟" نظرت الممرضةُ إلى بولنله بغرابة.

نطق بابا ساغي ثانية دون تفكير: "19 يناير 1976."

"سيدي، هل هناك ما يمنعها من الرد بنفسها؟ هل هي صمَّاء؟" وُجِّهَت الأسئلة إلى بابا ساغي لكنَّ الممرضة رمقت بولنله أثناء ذلك.

"أنا زوجُها."

"غير مهم، يا سيدي. نريد أن نسمع من المريضة. كم عمرك؟"

تحرَّكت بولنله نحو حافة كرسي بلاستيكي أزرق، وهمسَتْ: "خمسة وعشرون."

"ما سبب زيارتك اليوم؟"

كانت تعرف ما يريد بابا ساغي سماعه. "أنا عاقر."

"هل هذه زيارتك الأولى بخصوص هذه المسألة أم تمَّتْ إحالتك إلى هنا؟"

"زيارتي الأولى."

"العنوان؟"

"1 شارع سايبو، سانغو."

"الديانة؟"

"مسيحية."

"مستوى التعليم؟"

"بكالوريوس، أنا جامعية."

نظرت إليها الممرضةُ ثم ألقت نظرة سريعة على بابا ساغي. "أقرب الأقارب؟"

للحظةٍ، أصيبت بولنله بالذهول. طيلة حياتها كانت أمُّها الشخص الوحيد الذي يترك كلَّ شيء ويهبُّ لمساعدتها. تذكرت بولنله آخر محادثة لها مع والدتها قبل أن تغادر إلى منزل بابا ساغي. "هل فقدْتِ عقلَكِ؟ أتريدين أن تخوني ثقتي بعد أن جمعْتُ معاشي بشقِّ الأنفس، شهرًا بعد شهر، لأجعلك أنت وأختك تلتحقان بالجامعة؟" سألَتْها أمُّها. كانت الساعةُ تشيرُ إلى الرَّابعة صباحًا وكان من المقرر انتقالُها إلى منزل بابا ساغي في وقت لاحق من ذلك اليوم.

"ماما، أنا أفعل الأصلح بالنسبة لي." تدرَّبَتْ بولنله على إجابتها.

"هل هذا كلُّ ما في الأمر؟ أهو أملُكِ في أن يحشو فمك بالزبدة ما أَوْصَلَكِ إلى هنا؟ إذا كان الأمرُ كذلك، يا بولنله، فتذكَّري كلَّ الأيام التي كدحْتُ فيها من أجلك. عودي بذاكرتك إلى الماضي؛ إلى كلِّ ما حرمْتُ

نفسي منه، لأجلك ولأجل شقيقتك! ألم تتعلَّمي شيئًا من الكلمات التي نطقها لساني كلَّ هذه السنين؟ هل ظهرك مكسور إلى الحدِّ الذي يمنعك من زراعة ما تسعين لحصاده عن مائدة هذا الرجل؟"

"ماما، أنا أفعل الأصلح بالنسبة لي."

"اكتبي السيد أتاندا آلاوا"، صرخ بابا ساغي في هذه اللحظة. "أنا أقرب أقاربها. ابقي في منزل والدك إن أردْتِ أن تكون والدتك أقرب أقاربك!"

رفعت بولنله كفَّها إلى فمها لتمتنع عن الكلام؛ فلم تكن قد أدركت بعدُ أنها نطقت اسمَ والدتها.

حذفت الممرضةُ ما خطَّتْهُ سابقًا وبدأت من جديد. كتبت بسرعة ولكن بروية، بوضوح وبلا زوايا حادة. سلَّمت الملفَّ الفارغ إلى بولنله. "اذهبي إلى حجرة رقم 5." أشارت إلى الحجرة الفارغة مع أنَّ الرقم 5 كان مزخرفًا على ورقة بيضاء بمقاس A4 معلَّقة على الباب.

ثبَّت بابا ساغي عينه على الملفِّ الورديِّ. "أمسِكيه جيدًا،" تمتم.

احتقنت عينا الطبيب بالدم لكنهما استجابتا لكل صوتٍ في الحجرة. وبمجرد أن دخل الزوجان، وقف الطبيبُ ليتسلَّم الملفَّ الورديَّ من بولنله، كما أشار إليهما بالجلوس على مقعدين موجودين على الجانب الآخر من الطاولة.

"أنا الدكتور عثمان. مهمتي هي محاولة فهم طبيعة مرضك حتى أتمكن من إحالتك إلى أحد المتخصصين لدينا."

"أتقصد أننا أضعنا وقتنا في المجيء إلى هنا؟ لم لا نذهب إلى الطبيبِ المختصِّ مباشرة؟ نحن... ألا تعرف أنني رجل مشغول جدًّا؟ وهذه مسألة

خطيرة للغاية!" قفز بابا ساغي على قدميه.

وضعت بولنله يدها على وجهها ودلَّكَتْ حاجبيها بأطراف أصابعها. لاحظ الطبيب ذلك. شدَّتْ كُمَّ بابا ساغي لكنه أبعد يدها. لاحظ الدكتور عثمان ذلك أيضًا. ثم عاد بابا ساغي إلى مكانه على مهل.

أراد الطبيبُ أن يرمش بشدة لكنه امتنع عن ذلك برفع حاجبيه. لم يشأ الظهور بمظهر المتعالي، ولا من أجل الشابة الجالسة أمامه. "أعتذر، يا سيدي، للأسف، لن يستقبلك أيُّ متخصص في هذا المستشفى ما لم تراجعنا نحن أولًا. لهذا نحن هنا، وبهذه الطريقة تسير الأمور."

كتف بابا ساغي ذراعيه، وهزَّ مقعده، وغمغم طوال الوقت.

"أفترض أنكما زوجان؟" استفسر الطبيبُ وهو يتحضَّرُ للخربشة على ورقة بيضاء.

تحركت قبضة نحو خاصرة بابا ساغي. "بلى. إنها زوجتي."

"جيد جدًّا. إذًا، السيدة آلاو...؟"

"نعم؟" أجابت بولنله على مضض. فلم يسبق أن دعاها أحد بهذا الاسم.

"كم مضى على زواجكما؟"

"قرابة ثلاث سنوات،" أجاب بابا ساغي.

"بولنله، كم كان عمرك عندما بلغْتِ؟"

"كنتُ في الثالثة عشرة من عمري."

"وكم تبلغ مدةُ حيضك عادة؟ أعني كم يومًا في الشهر؟"

"من أربعة إلى خمسة أيام."

"كثيفة؟ أم خفيفة؟"

لم يستطع بابا ساغي أن يتمالك نفسه. "ألا تدري أنك تتكلم مع زوجة

رجل آخر؟ لا معنى لكل هذه الأسئلة التي تطرحها. إنها عا-قر..."

"سيد آلاو، إنني أُجري فحصًا طبِّيًّا لمريضتي. أنت هنا لأنها سمحت بذلك." وجَّه لبولنله نظرة عطوفة. "إن لم تحسن التصرف، سأطلب منك المغادرة."

"تذكَّرْ فقط أنها زوجة شخص ما."

"حسنٌ، كنتُ أسألكِ عن -"

"كثيفة دومًا،" أجابت بولنله.

"جيد جدًّا. وهل هي موجعة؟"

"لا، أبدًا."

"جيد. هل الجماع بينكما منتظم؟"

"ما معنى جماع؟ لن تخدعني لأني لم أتعلم في جامعة!" قال بابا ساغي.

ابتسمت بولنله بسخرية، وهزَّتْ رأسَها.

"سألْتُ السيدة آلاو كم مرة تمارسان العلاقة الجنسية."

"يأتيها نصيبُها كلَّ ثلاثاء، وأحيانًا تحظى بيوم إضافي. لا أقلَّ ولا أكثر من أيٍّ من زوجاتي الأخريات. المشكلة في رحمها."

"الـ-جـ-ماع" مرة في الأسبوع." لفظ الطبيبُ كلَّ مقطعٍ، ثم نظر طويلًا وبإمعان إلى بابا ساغي ليؤكِّدَ على أنَّ معلومته المزخرفة لم تكن مطلوبة ولا مفيدة. "إذًا، ثمة زوجات أخريات. وأنتِ الزوجة رقم...؟"

"الزوجة رقم أربعة." رفع بابا ساغي أربعة أصابع سمينة.

"أربعة!"

"أفهم من الأمر أنَّ لديك أطفالًا؟ أعلم أنه من سوء الحظ أن تطلعني على عددهم، ولكن ربما يمكنك أن تخبرني بعددهم التقريبي."

"هل تجرؤ أن تطلب مني العدد التقريبي لأطفالي؟"

"لا يا سيدي، أقصد عددهم على نحو تقريبي، تقديري. كم عددهم؟ أكثر من خمسة عشر؟ أكثر من عشرة؟ أكثر من خمسة؟" أطلق الدكتور عثمان زفرة حادة.

"أكثر بكثير من خمسة."

"ولكن أقل من عشرة؟"

"كنت سأحظى بأكثر من عشرة أطفال لو لم يكن رحم هذه المرأة رافضًا لنسلي."

اتكأ الطبيبُ على المقعد الجلدي القديم. كان قماشه يتشقق مثل زجاج مهشَّم. "سيدة آلاو، منذ متى وأنت نشيطة جنسيًّا؟"

ساد الصمت. ارتبكت بولنله. هل تُحْسَبُ البدايات الخاطئة؟ أم أنه أشار إلى ممارسة الجنس بالتراضي؟

"سيدة آلاو، متى مارست الجنس لأول مرة؟" سأل الطبيبُ مرة أخرى.

"كنتُ... كنتُ... أول مرة؟ كان عمري خمسة عشر وثمانية أشهر، قبل أربعة أشهر من عيد ميلادي السادس عشر."

"آه!" وضع بابا ساغي كفيه أعلى رأسه، وبدأ يهمهم بنغمة مقلقة.

رمى الدكتور عثمان قلمه على الملف وشدَّ حاجبه. "أصغِ، سيد آلاو، إنك تعيق هذه الاستشارة. كما أنني أعتقد بأنك... تُخيف مريضتي."

"مريضتك؟" سخر بابا ساغي. "إنها زوجتي. أنا زوجها. ما الذي يهمُّكَ؟"

كان على الدكتور عثمان، في كثير من الأحيان، أن يطلب من الأمهات، والأزواج، والأخوات الانتظار خارج حجرة الاستشارة الطبية، لذا رفع سماعة الهاتف واضطرَّ أن يضغط الزر الأحمر. "أخشى أنني سأطلب من

الأمن أن-"

"من فضلك يا دكتور، دعنا نكمل."

لم يكن صوت بولنله في حد ذاته، بل خفاتته التي جعلت الدكتور عثمان يعيد السماعة إلى مكانها. "كما تشائين، سيدة آلاو، حسنٌ، هل حملْتِ من قبل؟"

استدار بابا ساغي ببطنه كاملة نحو بولنله. تشنج عصب أسفل ساقه فتحركت قدمه اليمنى، وارتطم نعل شبشبه بالمشمَّع على الأرضية.

"أجل،" أجابت بولنله.

توقف الصوت فجأة.

تابع الطبيب: "كم مرة؟"

"مرة واحدة. وتمَّ الإجهاض." حدَّقَتْ بولنله أمامها.

"هل يمكنك إخباري بمكان إجراء العملية؟"

"لا أتذكَّر. أجرت العمليةَ ممرضةٌ، في مكانٍ ما بالقرب من موكولا. لا أتذكَّر أين تحديدًا."

استعدَّ الدكتور عثمان حال رفع بابا ساغي يده؛ إذ اعتقد أنه سيضرب زوجته، غير أنه بدلًا من ذلك فتح فمه وزعق فيه مرة بعد مرة قائلًا: "أين مرحاضك؟" دفعه الدكتور عثمان إلى خارج الحجرة باتجاه المرحاض العمومي للرجال.

وبينما كانت بولنله في حجرة الطبيب، فتَّشَتْ في حقيبة يدها، وتظاهر الدكتور عثمان بقراءة ملاحظاته. أخيرًا، دفع بابا ساغي باب الحجرة. بدا مكبوتًا، أمَّا توتُّرُ وجهه فقد اختفى. "أنتظرك في السيارة،" همس قائلًا. "دكتور، عندما تشتري الجوافة من السوق، لا يمكن أن تفتح كلَّ واحدة

منها لتتأكد من حالتها. وعندما تجد العفن فيها، لن تتخلص منها. تأكل السليم وتتأمل أن تخمد شهوتك."

"سيد آلاو، عجيب أن يكون هذا موقفك. ليست هذه هي النهاية بأيِّ حالٍ من الأحوال. إننا بالكاد في البداية. يتعيَّنُ القيامُ بالكثير قبل أن تتمكن حتى من استنتاج أنَّ "الجوافة فاسدة." ثمة فحوصات ينبغي علينا إجراؤها." الغريب أنَّ قلبه انشرح لبابا ساغي؛ بدا وكأنه ضُرِبَ بسوطٍ كبير.

"أخبرها بما يجب عليها فعله لاحقًا." بذلك، خرج من الغرفة متهاديًا وترك بابها يغلق من تلقاء نفسه. مسحت حاشيةُ سرواله الممر طوال سيره.

"سيدة آلاو، لا تقلقي،" طمأن الطبيبُ بولنله. "لم نجد أيَّ شيءٍ قاطعٍ حتى اللحظة. فلم نُجْرِ أيَّ فحوصٍ بعد. ولكن، مع أخذ كلِّ ما قلته لي بالحسبان، لديَّ بعض الاقتراحات التي قد تُقرِّبُنا من التشخيص السليم. ستحتاجين إلى صورة أشعة لمنطقة الحوض. ثمة دائمًا خطرُ حدوثِ تلفٍ في جدار الرحم إن لم يُجرِ العمليةَ جرَّاحٌ مؤهَّل. غالبًا ما يؤدي هذا إلى حصول تليُّف - التصاقات على جدار الرحم. تعرفين أنَّ الرَّحم المُشوَّه لا يساعد على نمو الجنين. ستلتقين بالدكتور دِبيا؛ الطبيب النسائي. تفتح عيادته يوم الإثنين من كل أسبوع. سأعطيك رسالة تحويل عليكِ تسليمها لقسم أمراض النساء والتوليد عند خروجك من هُنا. سيتحققون من مواعيده ويحجزون لك موعدًا. عندما تعودين، تأكَّدي من إحضار صورة الأشعة. تحتاجين أيضًا إلى إجراء فحوص الدم هذه. أحضري هذه النتائج معك أيضًا." وبينما كان يعبئ النموذج، ألقى نظرةً خاطفةً على بولنله ليجدها، شاردة الذهن، تضغط بثرة في وجهها. "سيدة آلاو، ليس هناك ما يستدعي قلقك."

"لستُ قلقة. فهمت كل ما قلته لي."

"جيد. هل ستكونين بخير؟ فقد بدا زوجك منفعلًا بعض الشيء. هل من مكان تستطيعين الذهاب إليه؟"

"سأكون بخير. ماذا يمكن أن يفعل أكثر من ذلك؟ لا يستطيع إذلالي أكثر مما فعل بالفعل. ولا يمكن لزوجاته أن يعادينني أكثر مما فعلن. إنه زوجي وسأعود إلى منزله."

"لا تبدو البيئةُ التي وصفتِها صحية للغاية -"

لم تسمح له بولنله أن يكمل جملته. "من الجيد أنه سمع ما قلتُهُ اليوم. ربما كان عليَّ أن أصارحه من قبل. يتقلَّبُ العالَمُ، ونحن أيضًا نتقلَّبُ فيه. من منَّا يستطيع أن يحدِّدَ أي الخطايا ستلاحقنا؟" تناولت رسالة التحويل ونماذج طلب الفحوصات عن الطاولة. "شكرًا لك، دكتور."

بعد أن عاد إلى السيارة، لمس تاجو أنَّ سيده لم يكن في مزاجٍ جيد، ولم يسعه سوى أن يتساءل عن سبب الرائحة النتنة التي تفوح من أمعائه الرخوة. من جانبها، اقتربت بولنله من السيارة بعينين مُسالمتين.

"خذنا إلى المنزل!" صدح صوتُ بابا ساغي عاليًا.

"أودُّ أن أنزل عند تقاطع طريق أوولوو لزيارة والديَّ."

"ثم سنوصلك إلى بوابة منزل والدك."

"أعتقد أن من الأفضل عودتك إلى المنزل لتبديل ملابسك أولًا."

نظر بابا ساغي إلى سرواله وانتقل إلى المقعد الأوسط. رأى أنه سيكون أقلَّ إزعاجًا إذا جلس في المنتصف بدلًا من الجلوس بجانب الباب. لم يكن يريد أن يقف ليسمح لبولنله بالخروج.

خرجت بولنله بأنفها من النافذة بحثًا عن الهواء المنعش. مرُّوا في طريقهم بالقرب من سانغو وتوقَّفوا عند تقاطع أوولوو. كالعادة، استظلت

فتيات تحت شجرة على أمل أن تتوقف لهن سيارة أجرة. لم تشأ أيٌّ منهنَّ مواجهة الشمس وحرارتها والمشي طويلًا إلى موقف سيارات الأجرة.

أمسكت بولنله المقبض. التفتت نحو بابا ساغي، غير آبهة بأنَّ تاجو يسترق السمع، وثبَّتَتْ قدمَها على الرَّصيف المرصوف بالحصى. "سنعود الإثنين القادم. موعدنا في العاشرة صباحًا، وسنرى طبيبًا آخر." أبرزَتْ بطاقة الموعد ونماذج الفحوصات المطلوبة.

"متى تعودين؟" كان لا يزال من السابق لأوانه استئنافُ أيِّ شيءٍ يتعلق بالأطباء والمستشفيات.

"مساءً، حوالي السادسة ربما."

"لا تتأخري عن وقت العائلة!"

الفصل الرابع

شقوق

أغلقْتُ باب السيارة بإحكام. انتظرْتُ إلى جانب الطريق، قبل أن أجتازه، حتى غابوا عن الأنظار. لم أعتزم رؤية والديَّ على الإطلاق؛ أردتُ أن أرى ما يُخبِّئه السوقُ لي.

كان شارعُ سوق سانغو طويلًا ومُوحِلًا. تحولت الألوان المحمية من الشمس تحت صفائح الأكشاك الحديدية الصدئة إلى مجموعة من الأشكال الكئيبة. البرتقالي باهت ومائل إلى البني المحمر؛ والبنفسجي والأخضر تلطخا بالأزرق الداكن. مرهقةً؛ شققْتُ طريقي بصعوبة بين الأكشاك، بجسدٍ يتصبَّبُ عرقًا، غير أني لم أتراجع. خطوْتُ خطواتٍ واسعة مباشرة نحو قسم الأواني الفخارية. أصبحت أفراحي الصغيرة ذات أهمية قصوى الآن، مذ أغضبن بابا ساغي وجعلْنَهُ يخرج مغتاظًا من غرفة نومي.

لا تسير الأمور على هذا النحو دائمًا. كنت في السابق أتشوَّقُ إلى أيام الأحد. أغسل شعري بعد ظهر يوم الإثنين، وأدهنه بالزيت، وأُقسِّمُهُ إلى ست عشرة خصلة بحجم الكف، يكشف كلُّ ثلم عن خطوط دقيقة في فروة

الرأس اللامعة. أحبَّ بابا ساغي أن نبدوَ مثل إلهات أويو[5] القديمة: ملكات يتأملن أجسادهن؛ إلهات يُدرْنَ الرؤوس بحركة سريعة وسعيدة واحدة، لترتفع الأنظار صوب أعناقهنَّ الطويلة المتفاخرة في جزء من الثانية. لكم رغبْتُ في إرضائه حينها إلى حدِّ أن أدعك جسدي في مياه نهر أوسون[6] إلى أن تذوب كل شعرة في جلدي. أذهب إلى السوق، وأشتري أكبر الحلزونات، وأغسلها جيدًا بملح البحر والشَّبَّة. أُعِدُّ له وليمةً ثمَّ أستسلم له.

تغيَّر الحال. فلا متعة في إرضائه، ولا حلاوة في الاستسلام له. يأتيني بابا ساغي ليزرع بذوره في رحمي. لا يبتسم ولا يتودد إليَّ. ولا يسخر من شبابي ممازحًا. إنه فقط يدكُّني في الفِراش.

اقتحم غرفتي قبل شهر فقط. "ارتدِ ثيابَكِ،" زعق. "ظهر نبي، بفضل الله، في قمة الجبل، وسيمكث هناك لمدة أربعة أيام فقط. فلنذهب إليه حتى يضع يديه على بطنك ويصنع المعجزة."

قلتُ: "لا شكَّ أنه أحد هؤلاء الرجال المحتالين بثيابهم البيضاء." أخبرْتُ زوجي أن المعجزة الوحيدة التي سيصنعها النبي له إراحته من الكسب بمشقة.

"استمعي لنفسك!" صرخ. "ألا تغلي الدماء في عروقك عندما ترين نساء أخريات يحملن أطفالهن على ظهورهن؟ ألا تملأ الدموع عينيك عندما ترين أمهات يرضعن صغارهن؟ أنتِ بالتحديد، يجب أن تجربي كل شيء! فالذرية تُكمِّل وجودنا في هذا العالَم! أتريدين أن تبقَيْ جدباء؟" ثم اعتلاني، بطوله البالغ ستة أقدام ونصف القدم، وكلتا ذراعيه تتخبطان.

غطَّيْتُ أذنيَّ بيديَّ.

---

5 Oyu: إله الريح والعواصف. م.

6 Osun أو Oshun: اسم إله لشعب سكن في جنوب غرب نيجيريا يرتبط بالماء، والنقاء، والخصوبة، والحب. وهو اسم يطلق على نهرِ أوريشا. م.

لا بدَّ أنَّ ضعفي أثاره، إذ عاد في منتصف الليل ليضاجعني كما لم يفعل من قبل. أفرغ كلَّ ما فيه عميقًا في رحمي قدر استطاعته. لكأنه أراد أن يوضح، مع كل ولوج، أنه لم يستهن بواجباته الزوجية. أراد أن يضاجعني إلى أن أحبل منه. لو أنَّ ثمة لحظة تتجلَّى فيها ذكرى اغتصابي في ذهني، لكانت هذه اللحظة.

سِرْتُ في أرجاء السُّوق، واكتشفْتُ موقعَ كشكٍ صغيرٍ للخردة المستعملة. كشكٌ صغيرٌ جدًّا، بلا سقف لائق حتى! كان المكانَ الوحيدَ في السوق الذي حوى أوانيَ ملونةً نابضةً بالحياة مثيرةً للإعجاب. تاق أنفي إلى استنشاق رائحة الغلَّايات النحاسية القديمة، وعيناي إلى رؤية البقع الكاوية في قاع الأطباق القديمة. لم تكد فخذاي تمسَّان الطاولة حتى مدَدْتُ يدي إلى فنجان شاي قديم ولمسْتُ شقوقه الباهتة. مرَّرْتُ أصابعي على الحافة المشقوقة وشعرْتُ أنَّ العضلات في رقبتي تلين. ثم قبضت عيناي على وعاء عاجيٍّ منقوش عليه أمواج بلون فيروزي. وكؤوسًا بملائكة تصل إلى الحافة. أضاءت وجوههم بينما كانت الأمواج تغسلها حول الوعاء. خدعتهم فزال حزني. كان هذا انتقامي السري.

صاح بائع الآنية الفخارية الأصلع بصوتٍ عالٍ: "إنها من إيطاليا"، وقطرات العرق تتسابق على جانبَيْ وجهه.

دفعني أحدُ المارَّةِ النَّزقين صوبه. "كم سعرها؟" سألْتُ.

مرَّر الرَّجلُ سبَّابتَهُ على جبهته. "لن آخذ أكثر من خمسمئة نيرة من مدام حلوة مثلك." ابتسم ورفع كتفيه حتى امتصَّتْ ياقته العرق الذي تجمَّعَ حول عظم فكِّه.

دسَسْتُ يدي عميقًا في حقيبتي، وضاعفْتُ عشرَ أوراقٍ نقديةً من فئةِ الخمسين نيرة دسسْتُها في يد البائع. نظر حوله خلسةً، وأومأ برأسه، وناولني غنيمتي في كيس بلاستيكي أسود.

عندما دخلْتُ بيته أول مرة، اشتريْتُ وعاءً برتقاليًا كبيرًا وقدَّمْتُهُ إلى زوجاته. ضحكَتْ إيا فمي لمَّا رأت الوعاء وقالت إنَّ زوجهنَّ لا يأكل إلَّا بالأواني الفخارية البيضاء، ويحبُّ أن يلون الطعامُ الأطباقَ، وأنَّ طعامه لا يستحق أن يؤكل إن لم يتمكن من رؤية اللون الأحمر لزيت النخيل ولون البامية الخضراء. أجلْتُ نظري في المطبخ. صحيح أنه كان مليئًا بالصحون البيضاء والأطباق الرمادية الرقيقة. ولكن، قبل أن أتمكن من خطفه ثانية، أسقطَتْ إيا فمي الوعاءَ على الأرض، فانكسر. التقطْتُ ما كُسِرَ وانطلقْتُ مندفعة نحو غرفة نومي. في وقت لاحق من ذاك المساء، طرق آكن باب غرفتي ليناديني على العشاء. عندما فتحْتُ له، سلَّمني مغلَّفًا وغادر مسرعًا. كان بداخله أنبوب غراء قوي.

سيكره بابا ساغي هذا الوعاء أيضًا، بالطريقة نفسها التي يكره بها الأطباق الأخرى. أقدم له نظرة على ألواني البالية. إنها الطريقة الوحيدة لاستعادة ملكي.

سرْتُ إلى محطة الحافلات على الجانب الآخر من السوق. وما أن استقليت الحافلة، حتى فتحْتُ الكيسَ البلاستيكيَّ ومسسْتُ بقعةً بحجم الظفر في قاع الوعاء. نقرْتُها، ونكزْتُها، وحاولْتُ أن أُقشِّرَها بفتور. وعندما اتضح أنها عالقة بإحكام، التوَتْ معدتي من فرط الحماس.

سرعان ما صرْتُ في شارعنا الذي امتدَّ أمامي مثل ذراعٍ نحيلة. انتصب

منزل آل آلاو في نهاية الشارع كما لو أنه قفص صدري كبير، وتثنّى الخيزران من حوله، مُقزِّمًا البيوت المحيطة به. وعندما اقتربْتُ من البوّابات، لاحظْتُ عمودًا كهربائيًّا لا بدَّ أنَّ عاصفة مطرية أسقطَتْهُ. وسلكًا عاريًا معلقًا على شجرة قريبة مثل خصلة شعر عنيدة. لن أنسى أن أترك لآكن ملاحظة حول هذين الأمرين عندما أصل إلى المنزل. إذا جاء إلى غرفتي لأساعده في واجب اللغة الإنجليزية، فسأخبره ليحذِّرَ إخوته وأخواته من الاقتراب من العمود. إنه يفعل دائمًا ما أطلبه منه. لن أكلِّم الأطفال الآخرين حتى لا تصيح إيا ساغي في وجهي.

الفصل الخامس

مشاركة

يقولون إنَّ العجوز الذي يلوِّثُ الأرضَ بالقاذورات ينسى على الفور، غير أنَّ الرائحة النتنة تبقى في ذاكرة الشخص الذي يتوجب عليه أن يلمَّها. يولد بعض الناس ليدنِّسوا الأرض، والبعض الآخر، مثلي أنا وبولنله، ليلملموا الدنس.

كان على بولنله أن تعي إلى أيِّ حدٍّ سيغيِّرُ حياتَنا وجودُها في منزلنا. أذكر اليوم ذاته الذي وطأت فيه قدمُها المنزلَ؛ إذ كانت الليلةَ التي نتقاسمها - الليلة التي قسَّمَتْ فيها إيا ساغي حصص الأسبوع. كانت سيدة المنزل هادئةً في ذلك المساء. وتحرَّكت الغصَّةُ في حلقومها إلى أعلى وأسفل كما لو أنها خرزُ مسبحة تطوق خاصرة راقصة. ارتفعت درجةُ حرارةِ إيا فمي من شدة الغيظ. أرادت أن تسفك دم هذه الزوجة الجديدة التي حلَّتْ محلَّها كأجدِّ زوجاته، وأصغرهنَّ سنًّا، وأكثرهنَّ طزاجةً.

قلقي الوحيد هو أنَّ وصولَ بولنله قد يُعطِّلُ جدول التناوب على الجماع. عادة ما كان بابا ساغي ينتقل من زوجة إلى أخرى، مبتدئًا بإيا ساغي

كلَّ أسبوعٍ. ثم يبدأ الدورة مرة أخرى يوم الخميس، بحيث تُتْرَكُ له حريةُ اختيارٍ من يقضي معها ليلة الأحد. استخدم بابا ساغي هذه الليلة لمكافأة الزوجة التي فاتتها ليلتُها بسبب دورتها الشهرية. كان في بعض الأحيان يمنحُ هذا الأحدَ لإحدى زوجاته إذا أدرك أنه وبَّخها بقسوة.

حظيت إيا فمي بيوم الأحد، معظم الأسابيع، لأنها كانت تغويه بحساء الفول السوداني، وطبق الإيكورو مع صلصة الروبيان، وكرات البطاطا، وطبق لحم الماعز الحار المدخن. لم يستطع بابا ساغي مقاومة إغراءاتها. مع أنَّ زوجًا آخَر أكثر فطنةً سيكون منصفًا في توزيع أيام الأحد على زوجاته.

الآن، وبعد انضمام الزوجة الجديدة إلينا، ستحظى إحدانا بليلة واحدة فقط في الأسبوعِ. ربما دار في خلد إيا ساغي العديد من الأفكار لأنها عرفت أنَّ هذا الدور سيُلقى على عاتقها. إنها أكبرنا. حظيَتْ به مدة خمسة عشر عامًا، أمَّا الآن فهي تقترب من العمر الذي يصير فيه إغواؤها لزوجها في حجرة نومها أمرًا غريبًا. لا يهمُّها أنها حازت عقله بالفعل وتصرَّفَتْ به كما تشاء. تريد بعض النساء الحصول على كل شيء فقط.

جلسنا جميعًا حول مائدة الطعام وجعلَتْنا إيا فمي نقفز بأن نضربَ السطح الخشبي. تلمع يداها باصفرارٍ فظيع، أمَّا براجمُها فقد بدت كما لو أنها كُشِطَتْ بحجر. لا أفهم لِمَ لا يرضى البشرُ عن اللون الذي منحَتْهُ الآلهةُ لهم. استقرَّ سوارٌ ذهبيٌّ على ظَهر يدها. أرادَتْ لي ولإيا ساغي أن نراه، لذا أشحنا بناظرينا عنها.

"ألم يكن طعامُنا لذيذًا بما يكفي؟ لماذا تزوَّج بابا ساغي امرأة أخرى؟ هل أدان صُدورنا لأنها بدأت تترهل؟" سألَتْ إيا فمي.

خدشَتْ إيا ساغي مرطبانًا يحوي مرهم المتيَّم (Gaga's Pomade)

وهزَّتْهُ لتأخذ منه حفنة.

"إيا ساغي، أرجوكِ" توسَّلْتُ إليها. "لا تستطيع بناتي النوم بسبب القشرة. إنهن يخدشن رؤوسهن كالكلاب المقمِّلة طوال الليل. ألا يمكنك أن تستغني عن حفنة أخرى؟"

"من يكترث ببناتك؟ هل تسمعين شكواي عندما تأخذ إيا ساغي مزيدًا من الحليب لطفليها في حين أنَّ طفلاي أصغر ويحتاجان إلى الفيتامينات؟" أشاحَتْ إيا فمي بعينيها وهزَّتْ رأسها باتجاه إيا ساغي.

في البداية، تجاهلت الزوجة الأكبر وقاحتَها وأخذت تفتش في علبة مسحوق شوكلاتة من نوع بورنفيتا بحثًا عن الكوبون الذي سيُربِّحُ ابنها قميصًا مجانيًّا لفريق كرة القدم النيجيرية. وعندما ظهرت أصابعها مرة ثانية، كانت مُغطَّاةً بحبيباتٍ بنية اللون. "إيا فمي، تقولين أشياء أكبر من حجم فمك الصغير. إن لم تكوني راضية عن الطريقة التي أقسِّمُ بها المؤن، فخذي جحودك إلى منزل رجل آخر. انتبهي، تأكدي أن تكوني الزوجة الأولى، لا الثالثة المتواضعة." ثم دسَّتْ الكوبون في حمَّالة صدرها.

"من يستطيع أن يتنبأ بما يخبئه المستقبل؟"

لهذا، انفجرت أكبر الزوجات في ضحكٍ صامت، وبينما أغلقت فمها أخذت تهمهم. ذكَّرتهنَّ بأنَّ بابا ساغي سيهتمُّ بنا جميعًا، غير أنَّ كلماتي ربما كانت ثغاءَ ماعز. دقَّت الساعة المعلقة في المطبخ تمام العاشرة. حتى لا نكذب، بدا من الغريب أنَّ المرأة التي كان بابا ساغي مضطجعًا معها لم تكن أيًّا منَّا.

"لن أتجاهل الأمر لأنها جامعية!" ثنت إيا فمي ذراعيها فوق صدرها. "لا أريدها في هذا المنزل."

"يا امرأة، سيجعلكِ تسرُّعُكِ تتعثرين إن لم تكوني حذرة. تخرج من فمك كلماتٌ كالإسهال. دعي بولنله تستغلُّ كلَّ مهارةٍ تعلَّمتْها في الجامعة! اسمحي لها أن تُشعلَ كلَّ ومضةٍ من ومضات صباها! اتركيها تستخدم ثدييها المثلثين بحجم قبضة اليد. اسمعيني، إنها لا تعرف هذا العالَم. عندما لا تجد ما جاءت باحثة عنه، ستعود إلى حيث كانت." أشارَتْ إيا ساغي إلى الباب.

قلتُ: "كلامكِ يشبه الأمثال، إيا ساغي."

"سأسألك عن شيء: ما الذي يحبه زوجُنا أكثر من الطعام؟"

اتسعت عينا إيا فمي. "الأطفال!"

"آه! وأخيرًا، عين العقل!" قالت إيا ساغي. "عندما تفشل في إنجاب طفل له، سيطردها! نعرف أنها لن تمنحه أطفالًا، لذلك لا بدَّ أن نراقبها من بعيد. لا أريد أن أرى أحدًا يخدش إطار بابها بأظافر قدميه!"

استدارت كلتا المرأتين وحملقتا بي.

خرجَتْ بولنله من غرفتها في صباح اليوم التالي. صمت كلُّ من في المطبخ ما أن ألقَتْ بظلِّها على إطار الباب. قالت صباح الخير، وبينما كانت تنحني، جفلَتْ.

"ساقاك تشبهان أرجل كرسي قابلٍ للانهيار." أشارت إيا فمي إلى ركبتَيْ بولنله وضحكت بصوتٍ عالٍ. "لم تتوقعي أن تحصلي على هذا النوع من المضاجعة، أليس كذلك؟" أجشَّتْ صوتَها. "قولي لي، هل يؤلمكِ ظَهركِ؟"

"حذارِ، إيا فمي. فلم يغادر بابا ساغي المنزل بعد." لم تستطع إيا ساغي أن تكبح شعورها بمتعة السخرية منها.

بدت المرأة المسكينة كما لو أنها ستصاب بإغماء من الخزي، لذا قدَّمْتُ

لها زبديةً من الفاصولياء. "طهوته هذا الصباح،" قلتُ.

نظرت بولنله إلى الزبدية وقالت إنها ليست جائعة. أخذت كوبًا بلاستيكيًا، ملأته ماءً صالحًا للشرب من غلاية بلاستيكية. لا ألومُها. فبعد ليلة قضتها مع بابا ساغي، العصا التي تتدلَّى من بين ساقيه تدكُّ المعدة دكًّا.

سمعنا جميعًا صيحة إثارة. عثر فمي على عصًا. وكان أبو بريص الصغير محطَّ اهتمامه؛ إذ كان يتسلق أسفل الحائط حتى صار على بُعد أقل من قدم واحدة من منه. قسم فمي رأسه إلى نصفين غير متساويين في غمضة عين. فوقع منقلبًا على ظهره. لم أر في حياتي مثل هذا الأذى. هذا الولد ابن أمه حقًّا.

فاجأني أنَّ بولنله تحدثت إلينا بعد أن حرَّكَتْها إيا فمي مثل لعبة البلبل الدوارة. لكنهم يقولون إنَّ على الطفل الذي يلعب في الظلام أن يتعلَّمَ كيف يُغمض عينيه أولًا. أرادت بولنله أن تلعب في الظلام. لم تسمح لتصرف إيا فمي معها أن يهزَّها. ثم جاءت في اليوم التالي إلى غرفة الجلوس وسألت إن رغب أيٌّ منَّا في تعلُّمِ القراءة. وقفت إيا فمي وصفرت مستهجنةً الأمر حتى وصلت إلى باب غرفة نومها. بدأت ركبةُ إيا ساغي تهتزُّ كما لو أنها على وشك أن تُحدثَ ثقبًا في رأسِ بولنله، غير أنها واصلت عدَّ أموالها. أمَّا أنا، فرفعْتُ يدي ببطء. رمقتني إيا ساغي بنظرة كان من الممكن أن تقذف بي بعيدًا عن مقعدي. ولكن، ما الذي يمكنني أن أفعله؟ ماذا كنت ستفعل إن لم تستطع فهم الكلمات التي يقرؤها أطفالك؟

جلسْتُ إلى الطاولة، في اليوم الأول، وراقبتها وهي تبيِّنُ لي كيف أكتب حرف "a" "A." صغيرة و"A" كبيرة. ونسخْتُ الحرفَ بنفسي. ومع أنها قالت إنني كتبْتُ الحرفَ مقلوبًا وعلى نحوٍ غير صحيحٍ تمامًا، إلَّا أنَّني شعرْتُ بالفَخار. فأنا أكتب!

حضرت إيا ساغي إلى غرفتي في تلك الليلة وأخبرتني بأنها ستدمر حياتي التافهة إذا جلسْتُ لتعلُّمِ أيِّ شيءٍ من بولنله ثانية. ماذا سأفعل؟ فعلى يميني المرأة التي تمنحني المؤونة وتقبض على حياتي وحياة بناتي بيدها. وعلى يساري الزوجة التي أرادت أن تعلِّمني القراءة والكتابة، الزوجة التي لم تدر بعد أنها قد تُسحَقُ أيضًا بقبضة إيا ساغي القوية. الخيارات التي يتعين علينا اتخاذها في هذا العالم صعبة ومريرة. في بعض الأحيان، لا نملك أيَّ خياراتٍ على الإطلاق. لم أقترب من غرفة الطعام في الظهيرة. في الحقيقة، لم أجب عندما طرقت بولنله بابي. فما الذي سأفعله بالقراءة على أية حال؟ حتى لو تعلمْتُ القراءة، ماذا سأفعل بها؟ وكيف سأستفيد منها؟

ذاك ما حدث. تأتي بولنله بالاقتراحات. تنصت لها إيا ساغي وتهزُّ ركبتها. تصفر إيا فمي باستهجان حتى يسمع العالَم. تعلمْتُ ألَّا أُلْفِتَ الأنظارَ إليَّ وأغني في سري حتى لا أسمعَ أصواتَهم.

بعد مرور عدة شهور، ثارت ثائرةُ إيا ساغي ذاتها التي قالت إنَّ علينا أن نراقب بولنله من بعيد. دعتني وإيا فمي إلى اجتماع، قائلةً إنَّ هناك ما يجب أن يُقال. كل ما قيل لعنات وشتائم. أرأيت؟ فكلما نفخت بولنله صدرها، صَغُرَتْ إيا ساغي أكثر. أخبرَتْنا إيا ساغي أنها غيَّرَتْ خطَّتَها، ولم يعد يكفي انتظارُ أن يُجبرَ عقرُ بولنله بابا ساغي على طردها. قالت إيا ساغي إنَّ علينا أن نتعاون ونتحد ونجبرها على الرحيل. "ألا ترين حاجبها العالي وعينيها اللامباليتين؟ إنها تعتقد أننا أدنى منها درجة. تريد من زوجنا أن يُنحِّيَنا جانبًا بوصفنا "أمِّيَّات،"" قالت. "بما أنها انضمَّتْ إلى أسرتنا مؤخرًا، فمن واجبها التسليمُ لرغباتنا، لا التفكير بأنها تستطيع تعليمنا!"

لفتَتْ انتباهَ الجميع إلى أنَّ بولنله لطيفةٌ في تعاملها مع الأطفال. ما

أردْتُ قولَهُ حقًّا ما بدا لي أنَّ بولنله تعلَّمَتْ أن تخفي اقتراحاتها عميقًا في داخلها. ففي الأسابيع الأخيرة، لزمَتْ غرفة نومها، ولم تخرج منها إلّا عند استدعائها. ألم يكن ذاك كافيًا بالنسبة لهنَّ؟

"إيا ساغي مُحقَّة. إنها تتجول في أرجاء المنزل كما لو أنها تملكه. من نصَّبها ملكةً علينا؟" تسرَّبَت الغيرةُ من كلِّ كلمة خرجَتْ من فاه إيا فمي. "ألا ترين كلَّ المُخرَّمات التي يشتريها بابا ساغي لها! ماذا فعلَتْ لتستحقَّ كلَّ ذلك؟"

"ولكن، دائمًا يشتري زوجُنا الأشياءَ نفسَها لنا جميعًا!" قلتُ. اندهشْتُ لأنَّ إيا فمي لا تزالُ تشعر بالمرارة الشديدة حيال وصول بولنله. لم نكن، إيا ساغي وأنا، نحتقرها بهذه الطريقة عندما انضمَّتْ إلينا.

"لِمَ تدافعين عنها؟ أهو الدم نفسه الذي يسري في عروقك؟ هل ولاؤُكِ متقلب؟ أم أنَّكِ نسيتِ أننا مُلزَماتٌ بالقسمِ نفسه؟ سألَتْ إيا فمي.

فتحْتُ فمي لأتكلم إلّا أنَّ الكلمات علقَتْ في جدار حلقومي.

"فلننطق فقط بالكلمات التي ستدفع هذا الأمرَ إلى الأمام. تعيش هذه الفتاة بيننا منذ خمسة أشهر، لكنني أعرف أنَّ مشكلة ستحدث إذا بقيت."

"إيا ساغي، لا بدَّ أنَّ لديك هبة الروح القدس. في الكنيسة التي أرتادها، يوم الأحد الماضي فقط، وبينما كان نبيٌّ يُصلِّي من أجلي، رأى رؤيا. قال إنه رأى غيمةً، مُحَمَّلَةً بالمطر، تتجه صوبي شيئًا فشيئًا. قال إنَّ الغيمةَ ستطير مع الريح بعيدًا، غير أنه عندما نظر ناحيتي، كنت واقفة من دون خيط قماش على جسدي."

طارت يدي إلى فمي. لم يكن التعري شيئًا محمودًا أبدًا.

"الآن، وبينما نحن جميعًا مضطجعون ورؤوسنا في الاتجاه نفسه، فعلينا أن نعمل معًا لنعصفَ بهذه الغيمة بعيدًا! لا تحتمل هذه العيِّناتُ المُتعلِّمةُ

من البشر النَّقدَ؛ إنهم كالحَمَام. فإذا نكزناها بعصا، ستطير بعيدًا وتترك منزلنا بسلام."

كان أوَّلُ ما فعلتْهُ إيا ساغي هو أن تُكلِّمَ بابا ساغي بخصوص أريكة بولنله. كسر بابا ساغي قاعدته من أجل بولنله. فقد نصَّ التقليدُ على أنَّ بُحبوحةَ الأريكةِ يجب أن تُكتَسَبَ؛ مما يعني أنكِ ما لم تكوني حُبلى، أو مُرضعة، أو تعتنين بالصغار، فلا يحقُّ لكِ الحصولُ عليها. ولإثارة إعجاب زوجته الجديدة، أمضى بابا ساغي ثلاثين دقيقة في غرفة التخزين ذات الإنارة الخافتة في نفض الغبار، والتنظيف، والمسح، قبل أن يدفع، في نهاية المطاف، بأريكةٍ أخرى إلى غرفة المعيشة.

استشاطت كلٌّ من إيا ساغي وإيا فمي غضبًا عندما جلسَتْ بيننا. سألْتُ نفسي: ما الذي يعنيه الكرسي؟ أليس للجلوس فقط؟ ألم يكن لديها كرسي في منزل أبيها؟ ولكن، سرعان ما بدأ بابا ساغي يتذمَّر حيال بطن بولنله المُسَطَّح، واغتنمت إيا ساغي هذه الفرصةَ لتخبره بأنَّ الرَّاحة تجعل الأنثى ترضى عن شكلها. ذكَّرَتْهُ بأنها تعرف لأنها امرأة. أُعيدَتْ أريكةُ بولنله إلى المخزن في اليوم التالي. عندما دخلَتْ بولنله غرفة المعيشة، لم تستطع إيا فمي أن تخفي ابتسامتها الخبيثة عندما قدَّمَتْ لها وسادة. تجنَّب بابا ساغي النظر في عينَيْ بولنله طوال المساء.

كان ثاني الأشياء السيئة التي فعلَتْها إيا ساغي طرد صديقات بولنله من منزلنا. وعلى أثر الزيارة الثالثة ليميسي وصديقات أخريات، أخبرت إيا ساغي زوجَنا أنهنَّ قدوة سيئة لبنات العائلة، خاصة ابنتها ساغي، إذ كانت في سنٍّ حرجة وسريعة التأثر. تلقَّفَ بابا ساغي الفكرةَ كما لو كان يبحث عن سبب للاستحواذ على بولنله. أخبر بولنله أنه لا يريد أن تقترب النساء غير

المتزوجات من باب منزله. تلقَّتْ بولنله تعليمات بابا ساغي دون أن تنبس بكلمة. لم تنظر إلى زوجنا نظرة انزعاج إطلاقًا. قالت فقط إنَّها تريد شراء بعض المستلزمات من السوق، وانسحبَتْ بهدوءٍ خارج المنزل.

أخطأَتْ إيا ساغي بشأن حكمها على العيِّنات المتعلمة. فكلَّما طعنَتْ هاتان الامرأتان في بولنله، تبدَّت الرَّحمةُ في عينيها أكثر، وامتدَّتْ يداها للأطفال أكثر فأكثر. لم أعرف أحدًا يشبه بولنله من قبل. حتى بعد مرور عامين من خباثتهما، لا تزال تلقي عليهما التحية كلَّ صباح. فماذا يريدان أكثر من ذلك؟

قبل أسبوعين فقط، كانت معدتي صلبة مثل طبلة جديدة. لم أسترح لأربعة أيام. وكلما أكلْتُ، قَسَتْ معدتي أكثر. شاهدتني إيا ساغي ذاك الصباح لكنها لم تسأَلْني عن الألم الذي استدرَّ الدموعَ من عينيَّ. أشاحَتْ بوجهها ومرَّتْ من أمامي. شهدت إيا فمي عينيَّ الحمراوين كالدم أيضًا، غير أنها اكتفَتْ بالصفير، كعادتها، كما لو كنتُ حيوانًا مُلقىً على جانب الطريق. لولا بولنله، لانشقَّتْ معدتي ذاك اليوم ربما. انتظرَتْ خروجَ الزوجتين الأُخريين من المنزل وجاءَتْ تقرع بابي. قالت إنها رأتني أجول مثل امرأة حُبلى برجلٍ بالغ. أخبرتُها بما يضايقني، فهرعت إلى المطبخ لتحضر ثلاثة أكوابٍ زجاجية من الماء. طلبَتْ مني أن أشربَها وأنتظر.

لا أدري إلى أين ذهبَتْ، ولكن سرعان ما عادَتْ وفي حوزتِها حقيبةُ تسوُّق. طاردني قرصا الدواء اللذين قدَّمتهما لي إلى المرحاض. ظننْتُ بأنني سأجدُ أمعائي على الأرض. جلسْتُ هناك لمدة ساعة كاملة، غير أني عندما انتهيْتُ، شعرْتُ بأني إنسانة من جديد.

لم تفاجئني دعوةُ إيا ساغي لاجتماعٍ صبيحة اليوم الذي أخذ فيه بابا ساغي بولنله إلى المستشفى. "بولنله مثيرة للمشاكل،" قالت. "ستدمِّرُ منزلَنا. وستفضح خصوصيتنا على الملأ. وستكشف سرَّنا. وتجلب المصائب." لطالما ربطَتْ بولنله لسانَ إيا ساغي بعقدة.

"ماذا سنفعل؟" سألَتْ إيا فمي. ثم عقدَتْ أصابعَها على قبة رأسها. "يجب أن نفعل شيئًا بسرعة!"

"ألم نفعل ما يكفي بالفعل؟ لا أعتقد بأني أريد أن أكون جزءًا من هذا الأمر بعد الآن،" قلتُ. لا أعلم ما الذي أصابني.

نظرت إيا فمي إليَّ ثم تجاهلت وجودي تمامًا.

هزَّتْ إيا ساغي رأسَها وتجشَّأَتْ. "استمعي للحمقاء التي تتوسَّلُ من أجل الفتات من طاولة بولنله! هذه المتملِّقة! لا بأس أن تقولي إنك لا تريدين أن تكوني جزءًا منا، بعد أن استفدْتِ من حكمتي طوال هذه الأعوام. تريدين الآن أن تنفصلي عنَّا؟ حسنٌ، لا يمكنك ذلك! أنتِ مقيَّدةٌ بنا. كلنا مرتبطات ببعضنا! وإن تجرَّأْتِ على فتح فمك الغبي، فسأدمِّرُكِ بنفسي. سأخبر زوجي بأشياء ستجعله يلوي رقبتكِ أثناء نومكِ. اغربي عن وجهي! خذي عقلكِ الصغير بعيدًا عن ناظريَّ. بلهاء!"

تركتهما في غرفة الجلوس فلم أعرف ماذا تخططان. أخشى على بولنله لكنني جبانة. أعرف أنَّ عليَّ أن أمدَّ لبولنله يد الصداقة. لا ينبغي أن أتظاهر بأنها غريبة عندما تكون الزوجتان الأخريات في الجوار. يجب أن أحذِّرَها لكنني لا أستطيع. أنا خائفة من هاتين المرأتين. سأصمتُ وأراقب. فما الذي يمكن أن تفعله مَنْ تُلملم قاذورات الآخرين؟

الفصل السادس

رأس الجرذ

لو عرفَتْ بولنله ما ينتظرها، فلربَّما لم تغامر بقضاء وقتٍ طويلٍ في السُّوقِ، وهي تتجوَّلُ من كشكٍ إلى آخَر. وقبل أن تشاهد الحشد الصغير المتجمِّعَ أمام منزلها، اشتمَّتْ رائحة الفول السوداني المحترق الذي تصنعه ماما إليبا. وبينما كانت بولنله تقترب، كانت متأكدة أنها لاحظت جسد ماما إليبا الضعيف في شرفتهم، وجسدها المنحني من جرَّاء عقودٍ أمضتها في نقل الحطب. كانت معظمُ النساء اللاتي رأتْهُنَّ واقفاتٍ بأيدٍ مشبوكةٍ خلف ظهورهنَّ. وضعَتْ بعضُهنَّ أيديَهُنَّ على رؤوسهنَّ وقفزْنَ من ساقٍ لأخرى كما لو كانت مثاناتهنَّ تحتجزهنَّ رهينات. كان تاجو مُتَّكئًا على عمودٍ يحكُّ ذقنه.

كان صوتُ إيا ساغي الأعلى. "يا ويلتاه،" صرَخَتْ.

وإيا فمي تصرخ بلغة غير مفهومة. وضعَتْ إيا توبه ذراعها حول ساغي، غير أنَّ ذراعها كانت ضعيفة مثل خرقة مبللة. احمرَّتْ عينا ساغي من فرط البكاء. تلفَّتَ الجميعُ من حولهم بعصبيَة.

"تريد أن تقتله!" أشارت إيا ساغي لمَّا صارت بولنله على بعد خطوات

قليلة من الهرج والمرج.

"ما الذي فعله والدي بها؟ لم أتزوَّج بعد. تريد أن تقتل والدي بتعويذة سحرية قبل أن يمشي برفقتي في ممرِّ الكنيسة!" ارتَمَتْ ساغي فجأةً على الأرض الإسمنتية، واندفع المتفرِّجون الواقفون لمساعدتها.

"ما الفائدة منها؟ لا يمكنها إنجاب الأطفال. رحمها ميت. تريد أن تقتل زوجنا لتنقذ نفسها من العار. أنا أصغر من أن أصير أرملة،" أضافَتْ إيا فمي.

وما أن وطأَتْ قدمُ بولنله أرضَ الشرفةِ الإسمنتية، حتى ساد الهدوءُ. افترق المارَّةُ وشقوا لها طريقًا. عندما وصَلَتْ إلى غرفة المعيشة، كان بابا ساغي جالسًا على أريكته. تدلَّتْ ذراعاهُ على جانبَيْ الأريكة، وامتدَّتْ ساقاهُ الكبيرتان أمامه مثل جذع شجرة.

"مساء الخير، بابا ساغي. لماذا لم تُبدِّلْ ملابسك؟" سألَتْ بولنله.

"أين كنتِ؟"

"إنها ليست السادسة بعد. ها قد عُدْتُ في الوقت المحدد كما أخبرتُكَ."

"سؤالي هو: أين كنتِ؟" صار صوته عميقًا وأجوفَ كآثار نقرٍ على الطبل.

"إذًا، ألا يمكنني حتى مغادرة المنزل الآن؟" كانت إجاباتُها جريئةً.

صعد بابا ساغي إلى ظهر مقعده، في غمضة عين، وقفز في الهواء مثل غوريلا في الجو. هبط أمام بولنله فجأةً وأمسك عنقها بكلتي يديه. عصرها بقوة وهزَّها ضاغطًا إبهاميه على قصبتها الهوائية. "من أنتِ لتسألي كلَّ هذه الأسئلة؟ هل أبدو أحمق؟ قلتِ إنكِ ستذهبين في زيارة إلى منزل والدك. لقد عاد تاجو للتو من هناك. لم يركِ أحدٌ هناك اليوم! أين كنتِ؟"

"السوق! ذهبْتُ إلى السوق." بُحَّ صوتُها من الإلحاح. "اقتلني إن أردْتَ، بابا ساغي، لكنني لم أذهب إلَّا إلى السوق. انظر إلى الوعاء الذي اشتريته."

فتَّش بابا ساغي في وجهها، وفكَّر في غرابة ألَّا يعثر فيه على الخوف، الألم فقط هو ما وجده. ألقى نظرةً خاطفةً ورأى الكيسَ البلاستيكيَّ على بُعد بضعة بوصاتٍ من كفِّها الممدودة. ترك ذراعيه تنخفضان إلى جانبيه.

انهارَتْ بولنله وسقَطَتْ على الأرض.

لم يسع آكن إلا أن يركض نحو بولنله لكن ذراعَ إيا ساغي تحركت بسرعة وأمسكت به. كانت ذراعُ والدته ثابتةً فحنى رأسَهُ ثم تابع طريقه.

جَثَتْ إيا توبه جوار بولنله. وربتت على وجنَتَيْ بولنله بخفَّةٍ، تحت ناظرَيْ بابا ساغي. "أخبريه يا بولنله. أخبريه إن فعلْتِها. أخبريه. سيسامحكِ. لقد أسأنا جميعًا إلى زوجنا في السابق. إنه يسامحنا دائمًا. اعترفي له."

غمغمت بولنله وأمسكت حنجرتها. تسبَّبَ الطقسُ الجافُّ في تشقُّقِ شفتَيْها ورَشَحَتْ قطرةٌ وحيدةٌ من الدَّمِ من إحدى ثنياتِهما.

"توبه، أحضِري قليلًا من الماء." لم ترفَعْ إيا توبه عينيها عن بولنله إلى أن عادت ابنتُها بنصف كوبٍ بلاستيكيٍّ من الماء الدافئ، المغليِّ قبل حين. رشَّتْ إيا توبه بعضًا منه على وجهِ بولنله ثمَّ قرَّبت الكوبَ من شفتيها.

رفعَتْ بولنله بصرَها إلى المرأةِ التي احتضنَتْ وجهَها في حَنْيةِ ذراعها. "أعترفُ بماذا؟"

سار بابا ساغي إلى المقعد الموضوع إلى جانب أريكته وأخرج كيسًا شفَّافًا مصنوعًا من البولي إيثيلين. "هذا!" بصق، ممسكًا الكيس من طرفه ومبتعدًا عمَّا يحويه. مندهشًا على نحوٍ غامضٍ من كل الاهتمام الذي حظي به، ظهرت رأس متعفنة لأحد القوارض في الجزء السفلي من الكيس. ربما كان جرذًا كبيرًا من جرذان الغابات. "أخبريني لماذا يوجد هذا الجرذ في غرفة نومي!"

التصقَتْ بالجرذ أجزاءُ لحمٍ جافٍّ. فمُهُ مربوطٌ بخيطٍ أحمر. وثمة مسمارٌ بطول أربع بوصات دُقَّ في تاجِ رأسه، مُحطِّمًا جمجمته عند نقطة الدخول، قاطعًا كلَّ المسافةِ حتى بروزه خارجًا من حنجرته.

تصلَّبَ وجه بولنله. "كيف أعترف بأمرٍ لا أعرف عنه شيئًا؟ اشنقني. اقتلي. لكن اسأل نفسَكَ أولًا إن كنتُ سأنزلُ إلى هذا المستوى الهابط؟ هل سأنزل إلى هذا المستوى؟ هل سألمسُ شيئًا مقرفًا إلى هذا الحدِّ؟ هل تعتقد حقًّا أنني سأقصدُ ساحرًا مُعالِجًا، وأطلب منه إيذاءك؟ فإن لم أكن أريدُ البقاء معك، أما كنتُ لأهجرَكَ فحسب؟"

كانت إيا ساغي واقفةً عند الباب. سمعَتْ مقدِّمةَ الحديثِ وبدأَتْ هُجومَها. "مَنْ يعرف السبب، بابا ساغي؟ تريد قتلك أوَّلًا ثمَّ هجرانك. إنها خرَّابةُ بيوت! لماذا لم تذهب إلى المسلخ إن كانت متعطِّشةً للدِّماء؟ لا دم لك هُنا يا بولنله. لا دم لكِ هُنا." توقَّفَتْ ثمَّ استدارَتْ نحو إيا توبه. "شكَكْنا في أمرِها منذ عدَّة أشهر، أليس كذلك، إيا توبه؟"

نظرَتْ إيا توبه إلى الزوجة الأكبر. فتحَتْ فمَها غير أنَّ الكلمات لم تخرج منه. حاولَتْ مرَّةً أخرى، لكنَّ شفتيها انفتحتا وأُغْلِقَتا مثل سمكةٍ تترقَّبُ اقترابَ يرقةٍ منها.

"لم أتعطَّش للدماء في حياتي أبدًا، إيا ساغي." شعرَتْ بولنله بالدَّموعِ تحتشد في عينيها، إلَّا أنها منعَتْها.

"لماذا إذًا وُجِدَ هذا الشيءُ في غرفة نومي؟" صار صوتُ بابا ساغي أهدأ الآن. بدأ يرى بأنَّ الأمور ليست منطقية، غير أنه قرَّرَ أن يدركَ الحقيقةَ بمراقبة ردودِ أفعالِها. "قفي وتعالَيْ. انظري بنفسِكِ. لن ألمسه." تنهَّدَ بارتياحٍ عندما زحفَتْ بولنله صوب أيًّا كان ما دفعَهُ بابا ساغي تحت المقعد. في شجرة

قرع صغيرة، كانت هناك بَكَرة من خيط أبيض تغمر نصفَها بركةٌ من الدم.

"مريع!" همسَتْ بولنله. استدارَتْ ونظرَتْ إلى بابا ساغي. "أتعتقد بأني بهذه السَّفالة؟"

أشاح بابا ساغي نظره لكنَّ إيا ساغي لم تترك الأمر. "أوه! الأمرُ مريعٌ الآن بعد أن كشفْناكِ! من كان ليعرف أنك في كل المرات التي غادرْتِ فيها المنزل كنتِ تقصدين ساحرًا مُعالِجًا؟ مَن كان يظنُّ أنَّ جامعيَّةً ستنحدر إلى شيءٍ مريعٍ إلى هذه الدرجة؟" لفظت إيا ساغي كلمة "مريع" كما لو كانت تبتلع كوز ذرة. وبدأَتْ تقرقر عميقًا داخل ذقنِها المزدوجة.

وضعَتْ بولنله إحدى يديها على جانب رقبتها وتجهَّمَتْ. تركَتْ رأسَها تدور دائرةً كاملةً قبل أن تلتفتَ إلى زوجِها. هزَّتْ رأسَها وسعلَتْ ثمَّ تنحنَحَتْ. "ليس لديَّ ما أقوله، بابا ساغي، إلَّا أنني لا أعرف من أين أتت هذه الأشياء. لا بدَّ من وجود خطأ ما. لم أرَ مثل هذا من قبل."

وجَّهَتْ بولنله حديثَها إلى الحشد الصغير الذي اجتمع في غرفة الجلوس: "أقول إنني لم أرَ هذه الأشياءَ في حياتي من قبل. ولا أريد أن أراها مرة أخرى، أبدًا. لماذا أريد أن أقتل زوجي؟ إذا سئمْتُ من زوجي، فلا يوجد شرطيٌّ في العالَمِ بأسره يمكنه إجباري على البقاء معه. أنا هُنا لأنني أريد أن أكون هُنا!" أطلقَتْ زفرةً طويلةً وذات مغزى. "عشتُ في هذا المنزل لسنتين وأريد الاستمرار في العيش هُنا إذا قبلني زوجي. اليوم فقط ذهبنا إلى الطبيب لنعرف كيف يمكنني أن أحمل بأطفاله. لا أريد أن أموت دون أن أنجب. ما الذي سأربحه إن أصبحْتُ أرملةً شابة؟ لماذا أريد لطفلي أو لأيٍّ من هؤلاء الأطفال أن يصيروا يتامى؟" مدَّتْ يديها لتمسَّ رأس فمي برفق إلَّا أنه تملَّص منها.

نظر الجميعُ إليها بتعاطف ومسحَتْ ساغي دموعَها بظهر يدها. فهمَتْ إيا ساغي الحالةَ وتسلَّلَتْ إلى الحشد مثل دجاجةٍ عملاقةٍ تتوارى في قن مليء بالذرة.

قال بابا ساغي: "بولنله، اذهبي إلى غرفتك."

مما أثار دهشة الجميع، فقذفَتْ إيا فمي بنفسِها صوبه من طرف الحشد. "اذهبي إلى غرفتِكِ؟" زعقَتْ بصوتٍ عالٍ. "هل ستفعلُ الصَّوابَ بعد أن تقتلَنا جميعًا؟ إذا سُمِحَ لهذه المرأةِ بالنوم في هذا المنزل، فسأنام في الخارج مع أولادي. سأُقيمُ وِقفةً احتجاجيَّةً ليليَّةً وأدعوها للخروج." نهضَتْ بسرعةٍ على أخمص قدميها وذراعاها الممدودتان تكشفان كتلًا من شَعْرِ إبطِها.

"يمكنكِ النومُ في البالوعة إذا أردْتِ، يا إيا فمي." كان صوتُ بابا ساغي هادئًا غير أنَّ الغضبَ عاد إلى عينيه. "هذا هو المكانُ الذي أتيْتِ منه. لم يولد أولادي ليناموا في البالوعة، لذا لا أسمح لهم باللحاق بكِ. إيا توبه، خذي أولادي إلى فراشهم. ستنال هذه المرأة ما تستحقُّهُ قريبًا."

"كُلُّ من يجرؤ على لمس أولادي قد لا يعيشُ ليرويَ الحكاية!"

هل أصبحَتْ كلماتي تافهةً للغاية حتى صرْنَ يُعارضْنَها الآن؟" فتح إحدى يديه أمام الحشد كما لو كانوا يُودِعونَ الإجابات على أسئلته في راحةِ يده. "إيا ساغي! إيا ساغي!"

جثم على كتلةٍ إسمنتيَّةٍ عند الجدارِ الجانبيِّ، ظلَّتْ إيا ساغي ساكنةً إلى أن ردَّدَتْ عدَّةُ أصواتٍ صدى نداءِ زوجِها. "أنا هُنا، يا سيدي."

"هذا البيتُ في حالةِ فوضى. نظِّفيه!"

"فورًا، يا سيدي."

انطفأ عطشهم المختلس، واستوعب الجميعُ الرسالةَ وبدأوا يتحرَّكون

للخروج بأسرع ما يمكن. كان المشهدُ مُرضِيًا، والنتيجة رائعة.

لم يتحمَّل بابا ساغي المُكوثَ في المنزل ذاك المساء، لذا قاد سيارته بنفسه إلى منطقة أييكارا. "كنتُ سأقتلها بيديَّ هاتين. زوجتي أنا! لكأنَّ وحشًا بريًّا في داخلي رغب في أن يمصَّ الدَّمَ من حنجرتِها." لم يُرِدْ بابا ساغي أن يسمعَهُ الرِّجالُ الثلاثة في الرُّكن البعيد من الكوخ. لا يهمُّ أنَّ ثمَّة زجاجةً فارغةً من ويسكي المُعلِّم موضوعة على الطاولة أمامهم أو أنَّ العبارات القليلةَ التي تبادلوها كانت مُبهمةً وغيرَ مترابطة. لم تكن هذه مسألة يريد بابا ساغي أن يناقشها مع غرباء.

"وتقولُ إنَّها لم تُقاوم؟"

"لا، كانت هادئة. أيُّ قتالٍ هذا الذي سيبدر من ذبابة واقعة في براثن عنكبوتٍ؟" تمتم بابا ساغي ونظر بعيدًا.

"الهدوء ليس ردَّ فعلِ شخصٍ قُبِضَ عليه متلبِّسًا. كيف كانت ردود فعل زوجاتك الأخريات حيال هذا الاكتشاف؟ لقد ذكرْتَ أنَّ - "

"هذا ما لا أفهمه." قاطعه بابا ساغي. "بصرف النظر عن أنَّ إحداهنَّ بدَتْ مرتبكةً مثلي، فقد أصرَّتْ الاثنتان الأخريان على أنَّ بولنله هي من وضعت التعويذة. كانتا مقتنعتين أنها مذنبة."

"همم." تصنَّعَ المُعلِّمُ الابتسامَ وأومأ برأسه عن قصد. "كيف هي العلاقات بين بولنله والزوجات الأخريات؟ لا بدَّ أنَّ هناك سببًا يجعلهنَّ يقاتلن بضراوة لتعترف."

"حسنٌ، لقد كنتُ أنا نفسي أعامل المرأة الشابة بعداء في الشهور الأخيرة، ولكن فعلتُ هذا لأنها لم تنجب بعد. كما أنَّ عدمَ رغبتِها في

الخضوع لحلولي السابقة زادت من قسوة قلبي. لم أكن ودودًا معها. لطالما كان صعبًا عليَّ إخفاءُ ما في داخلي. أعتقد أنَّ زوجاتي لاحظْنَ هذا الأمرَ ربَّما وقلَّدْنَني."

"إذًا، هنَّ يردْنَ منكَ أن تطردها، وأنتَ تعتقد أنَّ ذلك ردُّ فعلٍ على تعاستك."

"أعلمُ أنَّهنَّ يُردْنَ ذلك. قلن ذلك في وجودي وحضورها."

"لِمَ لَمْ يُحاولْنَ التَّوسُّطَ؟ فما قلتَهُ عن زوجتكَ الأولى جعلني أعتقد أنها تتمتع بطبعٍ أكثر تقبُّلًا."

"سأكون كاذبًا إن قلتُ إنها ليست كذلك. تعرف تلك المرأةُ كلَّ فكرةٍ تدخل في رأسي. تعرف متى أشعر بالعطش ومتى تمتلئ معدتي. تعرف أيضًا باستيائي من بولنله، وأظنُّ أنها تريد أن تريحني من مشاكلي فقط."

"لكنَّ الأمرَ زاد عن الحدِّ عند وضعِ التعويذة. ولماذا تستخدم المطرقة لضرب حشرةٍ بعنف؟" وليوضحَ وجهة نظره، ضربَ المُعلِّمُ ذبابةً، بظرافةٍ، من كأسه الزجاجية.

"لا بدَّ أنَّ الأمرَ بدا لها منطقيًّا لاستيائي. لكنني أتفق معك. لكأنَّ إيسو بنفسه (رسول الوحي) جاء لتناول العشاء في منزلي ليلة أمس. أقول لكم، كنتُ سأقتل بولنله." كتف بابا ساغي ذراعيه وهزَّ رأسَهُ.

"اسمع، بابا ساغي، ربما تتحمَّلُ جزءًا من اللوم على ما حدث. انحيازكَ هو السبب في هذه المشاكل. لا تتردَّدُ النساءُ في أن يصبحن آكلاتٍ للحوم البشرِ عندما يشعرن بالجوع. لهذا السبب لم أحتفظ بامرأة. يضحك بعضُ الناس على هذا من وراء ظهري، لكنَّ ما لا يعرفونه هو هذا: من بلا رأس، لا يحتاج إلى قبعة."

"بالتأكيد!"

"لكن، لنعد إلى المشكلة في منزلك: أعتقد بأنَّ الحلَّ يكمن فيك. يمكنني أيضًا أن أخبركَ أنَّ تعليمَها لا يساعد في حلِّ المسألة أيضًا." نقر إصبعُهُ جانبَ كأسه الزجاجية.

"لا أفهم."

"تجرَّعَ المُعلِّمُ رشفةً من الويسكي وجفل عندما ابتلعه. "ما أعنيه هو أنها مختلفة. قد يكون من الجيد أن زوجاتك الأخريات يشعرن بعدم الارتياح حيال هذا الأمر. قد يعتقدن أنَّ ذلك يجعلها مميزةً." انتقى المُعلِّمُ كلماته بعناية.

"مميزة؟ فأنا لا أنام مع أيٍّ منهنَّ أكثر من الأخريات!"

"المسألة أعقد من ذلك. ربما هنَّ غيورات."

"أستبعد ذلك." خاف بابا ساغي من أن يقترِحَ المُعلِّمُ أن يكون هو أيضًا عرضة لذلك."

دغدغتْ ابتسامةٌ زوايا شفتَيْ المُعلِّم لكنه لم يبتسم. "إذا كنتَ واثقًا أنَّ الأمرَ ليس كذلك، إذًا، فكلُّ شيءٍ في يديك. عامل زوجاتك بإنصاف."

الفصل السابع

ملكة

عندما لا تسيرُ الخطة على نحوٍ صحيح، عليكَ أن تخطِّطَ من جديد. ستفعلُها بصورة صحيحة يومًا ما. ستؤذي مَنْ يُؤذيكَ، يومًا ما، تمامًا، فلا يتمكَّنَ من التعافي أبدًا. لقد أخبرْتُ إيا ساغي بهذا في مناسباتٍ عدِّة. أقولُ لها مرارًا وتكرارًا أننا في حاجةٍ إلى إيجادِ حلٍّ دائم، لكنها لا تملك الحكمة. تقول إننا يجب أن نستمرَّ في إذلال بولنله إلى أن تهرب. "فلنقصَّ لها ريشها،" تقول.

حسنٌ. تبيَّنَ لنا أنَّ هذا الطائر يستطيع الطيران دون ريشه. كنتُ أعرفُ أنه وجب علينا الإمساكُ بها من حلقومها. كان لا بدَّ أن نسفك دمها في حفرةٍ في الأرض!

نعم، قلتُ أخيرًا. لقد عانيْتُ كثيرًا في حياتي لأترك ذاك الجرذ يُفسد كلَّ شيءٍ لي. ماذا إذًا لو كانت جامعية؟ عندما نقف أمام الله يوم القيامة، فهل سيسأل إن ارتدنا الجامعة؟ لا! لكنه سيرغب في معرفة ما إذا كنَّا حكماء كالثعابين لأنَّ هذا ما يوصي به الكتابُ المقدَّسُ.

إذا تركنا بولنله تُدمِّرنا، فسنفشل جميعًا أمام الله. أرفض الفشلَ باسم يسوع. لن أفشل. رأى الأنبياءُ في كنيستي أنَّ لهذا الجرذ روحًا شرِّيرة. لا أستطيع القولَ إنَّ اللهَ لَمْ يكشفْهُ أمامي أنا أيضًا. إنَّهُ يُظْهر نفسَهُ لكلِّ عباده بالرُّوحِ والحقيقة الحقَّة. سعيدةٌ أنا أنَّ تفكير إيا ساغي يشبه تفكيري. إنها تدرك الآن أننا في حاجةٍ لفعلِ شيءٍ ما. الآن بعد أن قرَّرَ بابا ساغي أخذ الجرذ إلى المستشفى، فالوقتُ قصير.

عندما جاءت بولنله أوَّل مرة، فركْتُ لسانَها بسعفةٍ مُرَّة! ها! جعلْتُها تفهمُ مَن المسؤولة عن هذا المنزل. أَرَيْتُها لسعةَ الفلفل الحارِّ. فإن جاءت إلى هذا العالَمِ ثانيةً، ستهرول ما إن تسمع باسم إيا فمي.

دعيني أخبرك بأحد الأشياء التي فعلتُها. يقتلني الضحك عندما أفكر به. لا أعتقد أنها كانت معنا في السنة التي طلب مني بابا ساغي فيها أن أخيط الثوب النيجيري التقليدي للأسرة بأكملها. كان عيد ميلاد الجار بعد أسبوعين، وأراد منا جميعًا أن نرتدي القماشَ ذاته من رؤوسنا حتى أخمص أقدامنا. "أريدكنَّ أن تبدين كالملكات،" قال. نظرْتُ إليه وتساءلْتُ عن السبب، إذا أراد زوجاتٍ كالملكات، فقد تزوَّج بامرأةٍ تشبه ضفدعة الجبل والأرنبة الهزيلة التي تقضم في جحر بولنله.

وتلك البولنله! أهذه فكرته عن الملكة؟ لا يجعلكِ التخرُّجُ من الجامعة جميلة. أعرف الجمال الحقيقيَّ. إنه في البشرة الصفراء الشاحبة. وُلِدْتُ ببشرةٍ أغمق من هذه غير أني أستخدم كريماتٍ باهظة الثمن لتجعل جماليَ الطبيعيَّ يشرق ويتألق. وأعتني بأظافري في صالونٍ لائقٍ للتجميل. أشتري مستحضرات التجميل الجيدة، بعكس بولنله، التي تتجوَّلُ في أنحاء المنزل بوجهها المُنهَك. ها! ملكات بالفعل!

على أيِّ حال، ففي اليوم الذي ذهبْتُ فيه لأستلم الملابس، خرجْتُ من المنزل وسمعْتُ بانتو تصرخ "لا مزيد من الفيرناكولا" عبر مكبرات الصوت الضخمة على سور الجار. رقصْتُ في السيارة، وتركْتُ العائلة بأكملها تنتظر في غرفة الجلوس.

كان متجرُ الخياطة على بعد عشرين دقيقة فقط لكنني توقَّفْتُ في أماكن قليلة. وعندما عدْتُ إلى المنزل، حتى أولادي أصابهم التعرق من فرط الترقب. هرعْتُ إلى غرفة الجلوس، بذراعَيْن محمَّلتَيْن بكومةٍ من الملابس ألقَيْتُها على المقعد جوار قدمَيْ بابا ساغي. شمَّت السَّاحرةُ الهواءَ من حولي. لا بدَّ أنَّها التقطت الرَّائحة من فخذيَّ.

سمعْتُ صوتَ بابا ساغي. "انتظرْتُ حتى وضع الخياطُ اللمسات الأخيرة على ملابسك،" قلتُ. "هل فضلت عودتي إلى المنزل دون ملابسك؟ من الرائع أننا جميعًا سنرتدي الملابس نفسها!"

ها! أتمنَّى أحيانًا لو كان بإمكاني التَّربيتُ على ظَهري! دهائي لا يعرف حدودًا!

دققت إيا ساغي في الملابس لبضع لحظات. ولم يستطع الأطفالُ إخفاءَ نفاذ صبرهم. "ماما، الملابس!" تظاهر آكن بالسُّعال أثناء حديثه حتى لا تظنَّ أمُّهُ أنه مشاكس.

أمالَتْ إيا ساغي رأسَها باهتمام قبل وصولِها إلى كومةِ الملابس ووضعتها كلها في حجرِها. لمست السَّاحرةُ الملابسَ كلَّها قبل أيِّ أحد، وكأنَّها تُريدُ أن تجعلَها مُستعملة. وضعت أصابعها على الأزرار البلاستيكية ولمست الخيوطَ قبل إعطاء كلِّ ثوبٍ لصاحبه المعنيِّ. تقدَّم الجميعُ، على التوالي، لاستلام الملابس. طلبَتْ إيا ساغي من إيا توبه أن تتركَ ملابسَ بولنله عند باب

غرفة نومها. قالت إنَّ على الجميع الرُّجوع إلى غرفة الجلوس خلال ثلاثين دقيقة لننطلق إلى الحفلة.

ارتدَيْتُ ملابسي بسرعةٍ واتَّجهْتُ نحو غرفة الجلوس لأتمكَّن من رؤية الجميع عند دخولهم. قابَلَتْني إيا ساغي في الممرِّ عندما خرجَتْ من الحمَّام. تفحَّصَتْ ثوبي بعينيها. "خيطٌ ذهبيٌّ جميل! يا له من ترتر رائع!" قالت. كان حلقومُها مُعبَّأً بالغضب.

"قال الخيَّاطُ إنَّ الترتر نفد عندما بدأ بخياطةِ ثوبك. قال إنَّ الفتاةَ التي باعَتْهُ الترتر في الحبس. ولكن إن أردْتِ، فلنتبادل. سأرتدي ثوبكِ ويمكنكِ أن ترتدي ثوبي." حتى أنني بدأْتُ أفكُّ بلوزتي من الطرف. ها! ستكون محظوظةً إذا استطاعَتْ أن تجدَ مُتَّسَعًا لأحدِ ثديَيْها في مئزري. همست باستهجان واستدارت باتجاه غرفتها.

انضمَّ إليَّ بابا ساغي بعد فترةٍ وجيزة ليتفحَّصنا كعادته. وبينما كان الأطفالُ يدخلون، نظر بافتخارٍ إلى موكب النجوم الحمراء إلى جانب الأزرق الملكي. أومأ برأسه بينما كانت عيناه تتنقَّلان من وجهٍ لآخَر.

سرعان ما دخلَتْ إيا ساغي إلى الغرفة متبخترةً في مشيتها. كان ثوبُها يشبه غطاءَ وسادةٍ بأكمامٍ طويلة وياقةٍ مكشكشة امتدَّتْ حتى أذنَيْها. شكل عنقها محرج. خاصة إذا ارتدَتْ ثيابًا بياقات عالية. ماذا سيحصل لو لم تأكل كثيرًا؟ أو لم تتوقف عن النَّخرِ كالخنزير أثناء ذلك؟

من جانبها، لم يختلف شكلُ إيا توبه عن بناتها الثلاث. إنها تتصرف مثلهن أيضًا هل كانت أذكى ممَّا كنَّ عليه؟ طلبْتُ من الخيَّاطِ أن يخيطَ تنورة أكبر من قياسِها بمقاسَيْن، وأن يكون مئزرها واسعًا. تمزق العنق وانزلق عن أحد كتفيها. كالعادة، لم تقل شيئًا؛ فلقد كانت أكثر اهتمامًا

ببولنله التي خرجَتْ للتو من غرفة نومها.

بدا ثوبُ بولنله كما لو أنَّ يدًا شرِّيرةً خاطَتْهُ على عَجَل. ولأكون صادقةً، فقد خِطْتُهُ بنفسي. شاهدْتُ الخيَّاطَ في مناسباتٍ قليلة وصنعْتُ التنورة باستخدام نهايات الأقمشة الباهتة التي استغنى عنها. بدلًا من المتر المربَّع الذي حصلَتْ عليه بقية الزوجات كغطاء للرأس، رُبِطَ رأسُ بولنله بشريطٍ أرجوانيٍّ لامع من قماشٍ يبلغ عرضه ثماني بوصات. لا أتذكَّرُ من أين أتيْتُ بالقماش حتى. كان وجهُها خاليًا من أيِّ تعبير كما لو لم تكن ثمة فكرة واحدة في رأسها. من يدري بِمَ تفكِّرُ هذه السحلية! حدَّق الجميعُ بها. وضعَتْ إيا توبه كفَّها على شفتَيْها لكنَّ عينَيْ إيا ساغي بدأتا تطرفان. ها! عرفْتُ أنها ستحبُّه!

وأخيرًا طلب مني زوجي أن أقف. ثقي بي. أعطيتُهُ مظهر الملكة الذي طلبه. كان قياس التنورة سليمًا، ورُكِّبَت الفتحةُ فوق ركبتي بالضبط. زُيِّنَ مئزري بالكريستال ونظمت النبال شكل جسدي ورفعَتْ لي صدري. تزيَّنْتُ بالإكسسوارات: حذاء وحقيبة متطابقان؛ وخرز المرجان على معصميَّ؛ وصليبٌ ذهبيٌّ كبيرٌ حول عنقي. كان يومًا جيِّدًا.

فلنعد للمشكلة الحالية: قرَّرْتُ أنا وإيا ساغي أن نلتقي بمفردنا بعد حادثة رأس الجرذ.

"تلك الغبية إيا توبه أفسَدَتْ كلَّ شيء!" قلتُ.

"فلنشكر الآلهة أنها لم تخبر بولنله مسبقًا. اعتقدْتُ أنَّها ستجرُّ بولنله إلى غرفة نومها لتُلقِمَها كلَّ ما تعرف! قد تؤدِّي حماقةُ إيا توبه إلى اندلاع حرب في قرية. الفرصة الوحيدة التي أُتيحت لنا هي أن نتَّحد. والآن انظري كيف تسير بولنله حول المنزل بابتهاج." كان الحجر في حلقومِ إيا

ساغي يتحرَّكُ صُعودًا وهُبوطًا مثل تفاحة آدم. تشبه إيا توبه الشيطانَ الذي اتَّهم العفاريت بالشيطنة. استيقظ ليجد سيفَهُ في بطنه ولم يكن هناك ما يستطيع فعلَهُ! لا شيء! رقد في الغابة ودمه يتخثر بجانبه، أضعف من أن يقف أو يصرخ."

"إيا ساغي، انسَيْ أمرَ إيا توبه! دعينا نتكفل بهذه المسألة وحدنا. نملك الحكمة والقوة. بيننا نحن الاثنتين، سنعيد هذا المنزل إلى سابق عهده."

"كلامٌ جيد، يا إيا فمي. لقد نطقْتِ بالحقيقة."

الفصل الثامن

تجارة

الدَّمُ الذي يسري في عروق البناتِ اللاتي جلبتهنَّ إيا توبه إلى منزلي هذا نجس. أطفالُها مرضى. بعد وقتٍ قصيرٍ من مجيء بولنله، جلسَتْ إيا توبه في غرفة الجلوس، باحثةً عن الشفقة. إنها تحبُّ الجلوسَ في أرجاء المنزل تُجدِّلُ شُعورَ بناتِها مثل متسوِّلةٍ في السُّوق. أُصيبَتْ موتن بالحُمَّى ذلك الصَّباح وأصرَّ بابا ساغي على بقائها في المنزل. ولمَّا سمعت الفتاتان الأخريان أنهما ستنعزلان عن شقيقتهما، انتحبتا وبكتا كثيرًا. توتَّرَتْ أفولاكه؛ الابنة الوسطى، وتلوَّتْ في مقعدها. توسَّلَتْ توبه من أجل البقاء في المنزل حتى تتمكَّن من رعايةِ شقيقتيها. لا أتحمَّلُ مثلَ هذا الهُراء، لذا أخبرْتُ الأختين الكبيرتين أنني سأجلدهما طوال الطريق إلى فصليهما في المدرسة إذا لم تصعدا إلى الحافلة.

"لا أفهم أطفالكِ،" أخبرْتُ إيا توبه. "العاطفة التي تحملها كلٌّ منهنَّ للأخرى غير صحية. إنهنَّ مثل ثلاثة توائم مفقودة في الغابة. كلُّ واحدةٍ منهنَّ غيرُ قادرةٍ على النَّجاة دون الأخرى. يردْنَ أن يأكلْنَ من الطبق نفسه،

يُصفِّفْنَ شُعورهنَّ بالطريقة ذاتها، يتكلَّمْنَ بالصوت نفسه! فهل سيتزوَّجْنَ الزَّوجَ ذاته؟"

بعد أن أوصلْتُ الأطفالَ إلى المدرسة، عدْتُ إلى المنزل لأجدَ إيا توبه في غرفة الجلوس. وعندما خطوْتُ نحو الشرفة في الخارج، سمعْتُ بولنله تسألُ إيا توبه عن صحَّة طفلتِها.

"إنها أفضل بكثير، شكرًا لكِ. لَفَفْتُها بقطعة قماشٍ مبلَّلة لمدة عشر دقائق تقريبًا. لا يتأقلم أطفالي جيِّدًا دون نوم. إنهم يحكُّون رؤوسهم طوال الليل. انظري!"

عندما دخلْتُ، كانت إيا توبه تفصل شَعر ابنتها بالمشط الخشبيِّ لتكشفَ عن خطٍّ من فروة رأسِها أصاب الجربُ أجزاءً منها والخدوشُ الطازجةُ أجزاءً أخرى.

"لديَّ كريم شَعر جيد للقشرة. سأُحضِرُ لكِ بعضًا منه،" اقترحَتْ بولنله.

"إيا توبه، لماذا تتوسَّلين للحصول على كريم الشَّعر؟" سألْتُ. "ألا يُرضيكِ ما يمنحكِ إيَّاه زوجُكِ، فتريدين أن تكسبي المزيدَ بالتملق؟ عليكِ أن تخجلي من نفسِكِ."

"أنا من عرضْتُ عليها،" قالت بولنله.

"أنا الشخص الذي يجب أن تلجئي إليه عندما تحتاجين شيئًا! في الواقع، أعتقد بأنَّ بابا ساغي يجب أن يعرف عن جحودكِ!"

"لم أطلب كريم الشَّعر، لذا فلا يوجد شيء لتخبري به بابا ساغي." مدَّتْ إيا توبه يدها من وراء ابنتها وأخرجَتْ علبةً ليس فيها سوى القليل من الكريم.

تحرَّكَتْ إيا توبه قليلًا في مقعدها؛ كان من الواضح أنَّها لم تَعُدْ تتقبَّلُ

رِفقةَ بولنله، أو محادثتها. شَغَلَتْ نفسَها بشَعر ابنتِها ولم تقل شيئًا. لاحظت بولنله ما حدث وغادرت الغرفة.

من المهمِّ أن تعرفَ الزَّوجاتُ مكانتهنَّ في هذا المنزل. يجب أن يعرفْنَ ما يمكنهنَّ فعله وما لا يمكنهنَّ. يجب أن يتذكَّرْنَ أنني الوحيدةُ القادرة على العمل في التجارة، فلم يُظهرْنَ أيَّ رغبةٍ في ذلك - أقسمَتْ إيا فمي ألَّا تقومَ بأيِّ عملٍ ليومٍ آخَرَ في حياتها، وليس لدى إيا توبه العقل التجاري. ماذا أقول؟ لا تملك رأسًا للتفكير!

كان عليَّ أن أستعين بكل ما لدي من حكمة لأقنع بابا ساغي بعودتي إلى العمل. فبعد أن أنجبْتُ آكن، ابني الثاني، الذي ولد لذلك الغرض، أدركْتُ أنَّ الألمَ في خصيتي بابا ساغي سيهدأ. حدث ذلك عندما جعلْتُ رأسَهُ يدورُ من فرط القلق.

بدأ الأمرُ بالتنهد. كنتُ أرقد بجانبه في السرير وأتنهد. لم يبدُ أنه ينتبه لذلك، لذا فقد كنتُ أتنهد، وأجلس، وأهزُّ رأسي بيأس. اضطررْتُ إلى تكرار ذلك في عدَّة مناسبات قبل أن يخطر في بال بابا ساغي أخيرًا أنه قد لا يكون زوجًا مثاليًّا إذا كانت زوجتُهُ حزينة. هكذا همُ الرِّجال. يعتقدون أنهم في مركز الكون والعالَمُ يدور حولهم.

عندما سألني عن سبب حزني، أخبرته أنْ لا شيء يزعجني ثمَّ مخَّطْتُ في مئزري. بعد أسابيع قليلة من تكرار ذلك، انتقلْتُ إلى البكاء. ظننْتُ أنَّ التفكيرَ في الأفكار الحزينة يجلب الدموع إلى عينيَّ، لكنني اكتشفْتُ أنني غير قادرة على استحضار أيِّ شعورٍ بالحزن. كان الأمر كما لو أنَّ عقلي قرَّر أنَّ حياتي خالية من الشدائد. اضطررْتُ إلى الاستعانة بالبصل - لذلك كانت رائحة البصل في يديَّ دائمة. ذات ليلة بعد أن نزل عني بابا ساغي، ذبَّلْتُ

عينيَّ بعصير البصل. لم يستطع بابا ساغي أن يحتمل بكائي؛ فجلس وأشعل الضوء. "ما الذي يضايقك، يا زوجتي؟" كان هناك تعب وجدية في صوته.

"لا شيء يا سيدي." لم يكن الوقتُ مناسبًا تمامًا.

"هذا كلُّ ما تقولينه! لا شيء! لا شيء! لا شيء! ومع ذلك تبكين كأنك في حالة حداد!"

"لا شيء." بكيْتُ في صمتٍ حتى لا أوقظ أطفالي في أسرَّتِهم.

"أهو أمرٌ يخصُّ المنزل؟"

هززْتُ رأسي. تقريبًا.

"هل أنا السبب؟ هل ثمة ما تريدين القيام به؟"

"يا سيدي، تشتاقُ يدايَ للعمل."

"العمل؟ ألسْتِ مشغولةً مع الأطفال وتعتنين بهم؟"

جثوْتُ على ركبتيَّ وأخبرته عن رغبتي في الحصول على كشك صغير أبيع فيه الحلويات بالجملة، وأتعامل مع نساء أخريات وأتعلَّمُ وصفاتٍ جديدة، وأفضل المنظفات المنزلية في السوق، وأفضل الطرق لإرضاء الزوج. مرَّرْتُ ما أردْتُ تمريره عندما لاحظْتُ ثقلًا في عينيه بينما كانتا تطرفان. "أريد أيضًا الالتحاق بمدرسة لتعليم قيادة السيارات."

رفع حاجبيه الاثنين واتَّسَعَتْ عيناه.

"سأكون قادرة على اصطحاب أطفالي إلى الحضانة دون أن يتصبَّبوا عرقًا من الحرارة الشديدة مثل الأيتام الفقراء."

أغمض عينيه بشدة، ثم مدَّ ذراعيْهِ وتثاءب. استلقى، وانزلق بمؤخرته أسفل السرير وغطَّى نفسَهُ بملاءة. عندما حفر وسادته بمؤخرة رأسه بما يكفي، سأل: "لو سمحْتُ لكِ بفعل هذه الأشياء، فهل سأتمكن من النوم

في منزلي؟"

"طويلًا وعميقًا، يا سيدي. طويلًا وعميقًا."

خلال أشهر، أخبرته أنَّ بيع الحلوات بالجملة لم يعد مربحًا، وأنَّ امرأةً حكيمة نصحَتْني أن أحاول بيع الإسمنت. بعد بضعة أسابيع، نصحتني المرأةُ الغامضةُ ذاتُها (التي عاشت حياتها من أجل زوجها) أن أُوسِّعَ الكشك وأبنيَ متجرًا مناسبًا. قبل انقضاء العام، بدأتُ أتحدث عن متجر ثانٍ، فقط لأكون أقرب على أطفالي. الرجال بسيطون. يصدِّقون أيَّ شيء.

"هل توافق صديقتك على هذا؟" سأل بابا ساغي بينما كان يخلع عنه ثيابه ذات ليلة.

"أيُّ صديقة؟" سألْتُ دون تفكير، غير أني صحَّحْتُ نفسي بسرعة. "أتقصد صديقتي من السوق؟ ألم أخبرك بأنها توفيت؟"

"توفيت؟"

"أجل، بهذه البساطة. إنها فقط ... إم ... سقطت وماتت. غادرت المرأةُ المحظوظةُ عالَمَ الخطيئة والصراع هذا."

"هذا مؤسف للغاية. هل حضرْتِ الجنازة؟"

"أنسيتَ أنَّ لديَّ طفلين وزوجًا أعتني بهم؟ كما أنها كانت مسلمة، لذا دفنوها في اليوم التالي. فلنُصلِّ أن تكون الرِّيحُ التي تحمل روحها وديعةً حتى تكون الرحلة خاليةً من أيِّ تشويش أو بلبلة."

هكذا بدأتُ عملي في التجارة. وبهذه الطريقة تعلَّمْتُ القيادة. الرجال كالبطاطا. تقطعهم كيفما تشاء.

ذات يوم، بعد وصول بولنله بثلاثة أشهر، كنتُ في غرفة الجلوس، أعدُّ نقودي. لا أكون عادةً في المنزل في هذا الوقت من الصباح ولكني أردْتُ

استئجار مكان لمتجر جديد، وطالب المالكُ السابقُ بالدفع بعد ظهر ذلك اليوم. لديَّ متاجرُ في معظم الأسواق الرئيسية - موكولا، ودَغْبي، وإيلييلي، وسانغو - لكنني أردْتُ أن يكون لي متجرٌ آخَرُ في أوجو، أيضًا. وبدلًا من الانطلاق إلى البنك، والوقوف ساعاتٍ في طوابير الانتظار، قرَّرْتُ أن آخذ من مدَّخراتي التي خبَّأتُها تحت فِراشي في المنزل، لتوفير الوقت.

كانت الأوراقُ النقديَّةُ قديمةً، ومتجعِّدةً، ومُتَّسخةً، لكنَّ هذا لم يزعجني مطلقًا. جلسْتُ على إحدى الأرائك وحشرْتُ كرسيًّا في المساحة الصغيرة بين ركبتَيَّ. أتعاملُ مع المالِ بعاطفة جيَّاشة. يعجبني ملمسها في راحة يدي، لذلك قلبْتُ كلَّ ورقةٍ بدقة حتى أتمكن من رؤية الرجل في كلٍّ منها.

لم أكن أعلم أنَّ دجاجتنا الضالة قد أحضرت صديقتيها حتى سمعْتُ أصواتهنَّ الصاخبة في الممرِّ. سحبْتُ تنورتي وغطَّيْتُ بها الكرسيَّ. ألقتا عليَّ التحية وفعلْتُ مثلهما. "أرجو أن نراكما ثانيةً قريبًا،" قلتُ. قصدْتُ مخاطبة الزائرتين لكنني لم أستطع منع نظرتي من الرجوع إلى يميسي. وما أن أُغلِقَ البابُ خلفهم، حتى قفزْتُ من فوق أريكتي ونظرْتُ عبر ثقبٍ في قبضتي المحكمة لأرى شكلَ يميسي المثالي. آه، لو لم تحمل الرغبةُ المتاعبَ دائمًا على ظهرها. قلتُ لنفسي ليس هذا الوقتَ المناسب. ثمة وقتٌ لكلِّ شيء.

الفصل التاسع

إيا توبه

قبل تسع سنوات، عدْتُ إلى المنزل من المزرعة لأجد بابا ساغي جالسًا في كوخ والدي. كنتُ في الثالثة والعشرين من العمر، على ما أذكر. أعلن أخي، في وقتٍ لاحق من العام، أنني نضجْتُ وأصبحْتُ صالحةً للزواج. لم تخبره أمي بأن يصمتَ ويهتمَّ بشؤونه. وبدلًا من ذلك، ودون أن ترفع رأسَها من كومة بذور البطيخ، أضافت: "الحق يُقال، إنها على حافة البَوار." لا أستطيع أن أنسى ذلك اليوم. ليس لأن كلماتهما لم تسبب لي الحزن، ولكن لأنني أتذكر أنني كنتُ أفكر في مدى ظلم الآلهة التي باركتْهُما بمثل هذه العيون الرائعة. كيف أمكنهما رؤية الأنوثة التي لم أستطع أن أراها ملصقة على هذا الجسد؟ كنتُ على يقينٍ من أنني ما زلتُ طفلةً في داخلي. كنتُ أفكر مثل طفلة وأستمتع بالمسرَّات الطفولية كأن أطارد النملَ أثناء حمله كتل السُّكَّر، وأخدشَ البقع الصلبة عن حافة جراحي القديمة. حتى إنني كنتُ أتحدثُ مع أصدقاء لا يراهم أحدٌ غيري.

ينتمي والدي إلى سلالةٍ كبيرة من مُزارعي شجر الكسافا (المَنيهوت)

مِمَّنْ تعلَّموا كيف يجرفون تلال الكسافا، قبل سنِّ الثالثة، ويعزقون التربةَ للوصول إلى الكتل البنية لهذا النبات، حتى يوم زراعتها في أرض خصبة. على عكس معظم القرى، لم يكن في قريتنا مدرسة أو كهرباء. كانت أقربُ مدرسةٍ على بعد ستة أميال من الطريق السريع. وكان شيوخُ القريةِ يعبسون في وجوه التلاميذ المتحمِّسين. قالوا إنَّ الوقتَ الذي يستغرقه الذهابُ إلى المدرسة والعودة منها، سيرًا على الأقدام، يمكن قضاؤه بصورة أفضل. في الوقت الذي نما فيه الشَّعرُ في الآباط، امتلك معظمُ الأطفالِ أكشاك الكسافا الخاصة بهم على حافة الطريق السريع. أمَّا بالنسبة للكهرباء، فلم نرسِلْ الهدايا لرئيس الحكومة المحلية مثلما كانت تفعل باقي القرى. كنا بُسَطاء: فما لم تقدِّمْهُ لنا الأرضُ، لم نتطلَّعْ إليه.

كان معظمُ الناسِ يتطلعون لموسم الزراعة غير أني كرهته. كرهْتُ عزقَ التربة وتمنيت التخلص من دلاء الماء الثقيلة. لذا، كنت كلما حان وقتُ الزراعة، أشكو ألمًا في الظَّهر. وأستلقي على حصيرتي مُتَأَوِّهَةً في حين كان إخوتي وأخواتي يفكُّون مَعاولهم من المسامير التي نتأت من جدار الكوخ. وعندما كنتُ أتدحرجُ، من جهة إلى أخرى، ممسكةً ظهري، حلمْتُ باليومْ الذي ستتجمَّعُ فيه الحشائشُ حول فسائل الكسافا. أحببْتُ إزالةَ الأعشاب الضارة. أحببتُ ملمس الأوراق الصغيرة، وقوة سيقانها. أحببْتُ تقليبَ التربة من الجذور، وترتيبَها في صفٍّ واحد. كنتُ أحبُّ أن أبيعَها لأصدقائي الخياليين في بعض الأحيان. سبانخ جيدة طازجة! اشتروا السبانخ الطازجة!

ناداني والدي ذات يوم وسألني متى بالضبط أخطط لإنهاء إزالة الأعشاب الضارة من رقعة خضراوات العائلة.

"قريبًا، بابا. وعندما أنتهي من ذلك، سأبدأ من جديد،" هكذا أجبْتُهُ.

"صديقاتُكِ؛ ممَّن هنَّ في مثلِ عمرك، يزرعْنَ، ويطحنَّ، ويجفِّفْنَ، ويَبِعْنَ، لكنكِ تتسلَّلين حول المزرعة، وتتصبَّبين عرقًا أثناء إزالة الأعشاب الضارة إلى أن يزدادَ ظلُّكِ طُولًا."

"أنا دقيقةٌ، يا بابا. عليك أن تكون دقيقًا عند إزالة الأعشاب الضارة."

"يا ابنتي، يريد الرجالُ النساءَ اللاتي يستطعْنَ العملَ إلى جانبهم في المزرعة، وليس خلفهم! شقيقتك الصغرى جاءها خاطبون يودُّون تسلُّقَ ألف شجرةٍ للفوز بها. ألستِ قلقةً من أنَّ أحدًا لم يُحرِّكْ ساكنًا ليطلب الزواج بك؟"

"ربما لم ير الرجالُ الذين تتحدث عنهم كيف يمكنني التخلص من الأعشاب الضارة بدقة."

"ألم تسمعي ما قلته لكِ؟" أطلق نَفَسًا طويلًا وأمسك عصاه التي يمشي بها. ودون أن ينظر باتجاهي، رسم بها خطوطًا على الأرض الترابية: مجموعة من الضربات ثم، على بعد ياردة تقريبًا، ضربة واحدة تقف بمفردها.

كان من الشائع، في تلك الأيام، بالنسبة للرجال الأثرياء الذين يمتلكون مصانع الدقيق[7] المصنوع من الكسافا، في مدينة إيبادان، أن يُبهروا المزارعين في القرى بسياراتهم الكبيرة وأحاديثهم الكثيرة عن المال. استأجروا أراضيَ زراعية ودفعوا للقرويين مقابل رعاية المحاصيل التي تنمو عليها. كان هدفهم جني الغلَّة من المحاصيل التي لم يسبق لهم رعايتها. قال أخي إنَّ هذا هو أسلوب الأغنياء.

كان والدي سعيدًا للغاية، في العام السابق، عندما لوَّحَ مُودِّعًا لشاحنتين

---

7 دقيق حُبَيبِيٌّ أبيض كريميٌّ مع طعم حامض قليلًا، من الشائع تناوله إما عن طريق نقعه في الماء البارد مع السكر أو الفول السوداني المحمص، أو كمعجون عند نقعه في الماء الساخن. م.

مليئتين بدرنات الكسافا الضخمة. فقد حصل على أموالٍ أكثر مما رآه في أيِّ وقتٍ مضى، واحتفظ برزمة الأوراق النقدية المتجعِّدة في جيب بنطاله لعدة أيام، مبتسمًا في كلِّ مرة تلامسها براجمه.

عاد بابا ساغي ليجمع حصادًا مزدهرًا آخر في العام التالي، لكنه قوبل بأصابع وعيون عصبية تحرَّكَتْ سريعًا إلى الأسفل، وجانبًا، ثم صعودًا إلى الآلهة. خاف والدي فأطلع بابا ساغي على الخبر على مرأى ومسمع من القرية بأكملها.

جلس بابا ساغي على مقعد بجانب والدي كما لو أنه شيطان لا يشبع. بشرته دهنية نضرة، في حين أنَّ بشرة والدي متقشِّرةٌ وجافة مثل قشرة جوزة الكولا. لم يُظْهِرْ وجهُ بابا ساغي اللامع أيَّ ردٍّ فعلٍ على الخبر لكنَّ أصابع قدميه في النعال الجلدية التي كان يرتديها صفقت مثل أذنَيْ كلب. ثمَّ نظر حوله وأمسك صبيًّا من ذراعه على نحوٍ غير متوقَّع. توسَّلَ: "خذني إلى المرحاض." كانت كلُّ العيون تراقب بابا ساغي وهو يقتحم بابَ مرحاض الحفرة غير المسقوف. سمعنا كلَّ قرقرة، وكلَّ بقبقة، وكلَّ ضرطة، وكلَّ بصقة. عندما ظهر بابا ساغي، جلس ثانيةً على المقعد وأخبر القرويين المذهولين أنَّ ثمة سبب لكلِّ شيءٍ يحدث، وأنه يفكِّرُ في إنشاء عملٍ جديدٍ على أيِّ حال. وأضاف أنَّ للآلهة طرقًا غامضة.

الحقيقةُ هي أنَّ الأمطارَ عاقبَتْ قريةَ بورود برفضها الهُطولَ، ولم ترحم الشمسُ الحارقة فسائل الكسافا. بدلًا من الوقوف عاليًا وتبريد التربة بأوراقها الخضراء العريضة، انحنَتْ والتفَّتْ حتى تحمَّصَتْ كالشوك. تصلَّبت الأرضُ وانشقَّتْ بفعل الحرارة، مما أجبر القرويين القلقين على القيام برحلة إلى الغابة بحثًا عن الماء لترطيب التربة. حتى والدي، بظهره المحدودب،

تبع درب جالبي الماء. جثا على ركبتيه وجرف الرملَ حتى لامست أصابعه الماء. أنا أيضًا شعرْتُ بالإحباط. فإن لم يكن ثمة ماء، لن تكون هناك حشائش. بما أنَّ الشمسَ حرمَتْني من فرحتي في ذلك العام، اختبأْتُ تحت كومةٍ من الحُصُرِ في المنزل، بعيدةً عن غضبها الشديد قدر المستطاع. كان هذا عندما سمعْتُ الريح تحمل أصواتًا من طريق الغابة إلى المنزل، فتركْتُ مخبئي لأساعدَهم في تخفيف الحِمل عن رؤوسهم. سخرت زوجاتُ والدي من مساعدتي وأخفَتْ أمي وجهَها خلف إزارِها.

في اليوم الذي كان على بابا ساغي نقل محصوله السيء، جلس والدي على كرسيٍّ خارج كوخه وحملق في السِّلالِ المُزرية، وعددها ستة. مدَّ ساقيه أمامه وأراحَ ذقنَهُ على عصاه. عندما خرجْتُ من كوخِ أمي لأقطِّعَ البامية، ألقيتُ عليه التحية. لم يستجب غير أنه تبعني بعينيه. جعلني أشعر بالخجل الشديد لدرجة أني أخذْتُ البامية إلى كوخ أمي. بعد فترة وجيزة، ظهرت سيارة بابا ساغي في نهاية الطريق الترابية. صاح والدي باسمي وطلب مني أن أحضر كومة كبيرة من الأمالا مصحوبةً مع أكثر أوراق السبانخ طزاجةً على الإطلاق. لم ينتظر والدي حتى تمسَّ قدما بابا ساغي الأرض؛ أخرجه من السيارة إلى ظلام كوخه.

لم يستغرق الأمرُ مني أيَّ وقتٍ لإعدادِ وجبة الطعام. لذا، عندما انتهيت، انضممْتُ إلى أمي ومساعداتها؛ زوجات أبي، في ظلال سعف النخيل. جلس إخوتي هناك أيضًا، يصفعون البعوض الذي حطَّ على أكتافهم العارية. بدا هدوؤهم الكبير غريبًا بالنسبة لي. جرت العادةُ أن يتحدثوا بأفواههم، وأذرعهم، وأعناقهم، وأعينهم، وشفاههم. تحدثوا في كلِّ شيء من نسيج لحم الأفعى إلى الجوافة البيضاوية عند ضفة النهر. وبينما كنتُ أجلسُ

في وسط هذا الصمت الغريب والثقيل، تساءلْتُ إن كان ينبغي أن أغتنم الفرصة لأقول شيئًا ما. لا يبدو أنهم سيقاطعونني ويستولوا على صوتي كما اعتادوا أن يفعلوا.

استدعاني والدي فقط عندما بدأت الشمسُ رحلتَها صوب قمم الأشجار. فوجئتُ بجلوسه بالقرب من بابا ساغي، وأذرعتهما تتلامس بينما أفرغا زجاجة كاملة من شراب الـشنابس[8] الذي شاع تقديمه في حفلات الزواج والجنائز. طلب مني والدي إحضار الطعام فعدْتُ بصينية كبيرة، وما أن انحنيتُ عند إطار الباب، حتى توقف الرجال عن الكلام. تفحَّصني بابا ساغي وأنا أضع الأطباقَ على مقعد منخفض وعندما جلبْتُ الماءَ البارد من القدر الفخارية. تفحَّص وجهي بينما كنتُ أسكب الماء في كوبين بلاستيكيين. راقبه والدي وهو يتفحصني.

"ليست على قدر كبير من الجمال،" سمعْتُ والدي يقول وأنا أقفل البابَ. تضاءل تقديره بسبب الشُّرب. "لكنها بقوة ثلاثة حمير. كما أنها دقيقة. فما تفقده في الذكاء، تكسبه في الدقة. هذه فضيلة عظيمة في المرأة. لدي ثلاث زوجات؛ أنا خبير."

حتى الطفل كان سيفهم سبب تمجيد والدي لصفاتي التي كانت تزعجه في السابق؛ لقد كنتُ التعويضَ عن المحاصيل الفاسدة. كنتُ مثل درنات الكسافا في السلة. أو ربما أقل، شيء غريب - درنة بعينين، وأنف، وذراعين، وساقين. دون ضجيج أو وداع واضح، حزمْتُ حقائبي. لم أبكِ على أمي أو أبي أو حتى إخوتي وأخواتي. ما أزعجني هو أنه لم تُتَحْ لي فرصةُ اقتلاع الأعشاب الضارة من جذورها في ذلك العام. كان عليَّ أن أعرف أنَّ

---

8 شارب مصنوع من عدة أنواع من المشروبات الروحية بنسبة كحول مرتفعة. م.

شيئًا غير عاديٍّ سيحدث في ذلك العام. تسبَّبَ الجفافُ في إيذاء أذنيَّ: فكلما تبادلتُ الأحاديث مع أصدقائي الخياليين، خرجت كلماتهم مكتومة، كما لو كان الكلامُ آتيًا من بقعةٍ في أرضٍ بعيدة.

ألقى تاجو أمتعتي في الخلف: حقيبتين بلاستيكيتين ودرنتَيْ بطاطا. جلسْتُ بين الرَّجلَيْن في السيارة وحدَّقْتُ أمامي في طُرُقٍ لم أسافر فيها من قبل. إذًا، هذه هي إيبادان - المدينة الكبيرة حيث تَنْعُمُ جميعُ ملابسنا المستعملة بأُولى رحلاتها، المكان الذي تزمر فيه السيارات، وتهدر المُحرِّكات، ويصرخ مُحَصِّلُو الباصات. غطَّيْتُ أُذُنيَّ. كان كلُّ شيء مُستعجَلًا، على عكس الإيقاع البطيء الذي تسير بحسبه الأمور باضطرابٍ في القرية.

سألني بابا ساغي إن كنتُ سعيدة بزواجي منه وسط كلِّ هذه الضوضاء. لم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة. أردْتُ أن أقولَ شيئًا. كان عليَّ أن أقولَ شيئًا لكنني لم أستطع. لطالما كان التعبير عن مشاعري أمرًا صعبًا. وحتى الآن، عندما أحاول أن أقول شيئًا، أفتح فمي وأغلقه مثل سمكةٍ تنتظر صنارة. أختنق بالكلمات، وأبتلعها. لم يساورني القلقُ بخصوص هذا الأمر في القرية لأن عائلتي كانت تقرأ أفكاري. قبل مغادرتي بقليل، ذهبْتُ إلى كوخ أبي ووقفْتُ عند الباب. لم أكن في حاجةٍ إلى قول أيِّ شيء، ولم يكن في حاجةٍ إلى النَّظر إليَّ أيضًا. "اتَّخذْتُ قراري، وهو نهائيٌّ" قال.

عندما وصَلْنا إلى المنزل، دفعني بابا ساغي نحو إيا ساغي وأمرني بأن أُظْهِرَ لها الاحترام الكبير. قال إنَّ عليَّ أن أكون ممنونة لأنني في أيادٍ أمينة. ابتسمَتْ إيا ساغي، غير أنني رأيْتُ صدرَها يعلو ويهبط أسفل قميصها. وكان يُغطِّي عنقَها وشاحٌ من الجلد. دقَّقت النظر في الفستان المزركش بالأشرطة الذي طلبَتْ مني أمي ارتداءه للرحلة. كان ملائمًا أكثر لطفلةٍ في

الخامسة عشرة، لكنني أحبَبْتُ حفيفَهُ وأنا أمشي. اجتاحَتْ عيناها الشمرتين الصغيرتين فوق صدري، اللتين لم يمسَسْهما أو يمصُّهما أحدٌ من قبل. لولا قبضتاها المسحوبتان كخنجرَيْن إلى جانبَيْها، لكان من المستحيل معرفة ما تخفيه خلف عينيها المتغضِّنتَيْن، وابتسامتِها الثابتة. "تعالَيْ إلى غرفتي،" قالت. "لديَّ صابونٌ جيد لتنظِّفي به نفسَكِ. سأعطيكِ ملابسَ لترتديها أيضًا. لن تَبقى خِرقُكِ البالية في هذا المنزل." تحرَّكَتْ شفتاها كثيرًا، أمَّا عيناها الجامدتان ثُبِّتَتا على بابا ساغي حتى لا تفوتَها أيُّ كلمة. بعد ذلك، حمَلَتْ ابنَها على وركِها، وحذَّرَتْني من صمتي قائلةً: "أنتِ الآن زوجة، لستِ طفلة. قولي شكرًا لزوجِكِ واتبعيني."

بعد مرور عدة أشهر، طرقَتْ بابي في منتصف الليل. لا بدَّ أنها زحفت من تحت بابا ساغي فلم يكن هناك سوانا، نحن الاثنتين، في ذلك الوقت. كان بابا ساغي يأتيها أربع مرات في الأسبوع، ويأتيني ثلاثًا. كنتُ سأسعد بالتخلي عن لياليَّ أيضًا. فقد مرَّتْ عليَّ أسابيعُ كنتُ أشعر فيها بالألم الشديد لدرجة أني لم أستطع الجلوس.

"احملي بسرعة وإلَّا سيبدأ بإجبارك على تناول خلطة دوائية من تدبير المداوين بالأعشاب إلى أن تُدمدمَ بطنُكِ أثناء نومك،" قالت.

أبقتني كلماتها مستيقظةً في الليل لعدة أسابيع. ثم، في أحد الأيام، وكما توقَّعَتْ، سألني بابا ساغي ما خطب رحمي. "إذا باعني والدُكِ فاكهة فاسدة، فسأُعيدُها إليه." ضايقتني كلماته أكثر ممَّا قالتْهُ لي إيا ساغي. فلم أرغب بالعودة إلى القرية؛ إذ لم أضطرَّ لزراعة وحصاد الكسافا في منزل بابا ساغي. بصرف النظر عن الأعمال المنزلية اليومية التي خصصتها لي إيا ساغي، كلُّ ما كنت أفعله هو تجديلُ شعرِ ساغي واللعب به. كان شعرُها أسودَ فاحمًا، وكلُّ

خصلةٍ منه عنيدة وقوية. تمشيطه يشبه إزالة الأعشاب الضارة؛ يستغرق وقتًا ويحتاجُ أصابعَ ماهرة، لكنَّ النتائج كانت رائعة.

لن أذكر اسمَ الرجل الذي قابلْتُهُ لأنني أشعر بالخجل. كلُّ ما سأقوله هو أنه كان الجزَّار الذي يرسلُهُ إليَّ بابا ساغي كلَّ أربعاء. ومع أنَّ لحومه كانت لذيذةً دائمًا، إلَّا أنني كنتُ أسألُهُ إن كانت البقرة على طاولة الجزارة قد ذبحت اليوم. ويُجيبُ بأنَّ لحومه طازجة على الدوام. يكشطُ قليلًا من النخاع البرتقالي اللون ويضعه في فمه لإثبات ذلك. يبتسم. لم تكن أسنانُهُ بيضاءَ إلَّا أنها بدت وكأن بمقدورها أن تكسرَ عظامًا كثيرة. لسانه ورديٌّ وحاجباه يلتقيان فوق أنفه. إنه من منطقة إيوو؛ عرفْتُ من الجروح التي كحَّلَتْ وجنتَيْهِ. أومأ برأسه وقطع لحومًا بقيمة 500 نيرة إلى مكعبات صغيرة، مُنصِتًا بأذنٍ واحدة لحكاية جزَّارٍ آخَرَ طوال الوقت.

لم أدرك أنَّ النقودَ لم تكن حيث ربطْتُها إلَّا حين فككْتُ إزاري. أيَّةُ امرأةٍ ناضجة تلك التي تُبدِّدُ مالًا لا يملك مثله والدها؟ شعرْتُ بأني طفلة من جديد. راقبني، لبعض الوقت، أمشي بصعوبة وأبحث في الأرض المُوحلة. ثم أعتقد أنه لمَّا تأكَّد أنني لم أكن أتظاهر طلب مني ألَّا أُكلِّفَ نفسي عناءً. الأسواقُ أماكنُ خطرة وغالبًا ما تُوصَمُ النساء بالعار بسبب هذه الأفعاء السيئة، لذلك كنتُ محظوظةً. اقترحْتُ عليه أن أتركَ اللحمَ عنده وأعود بالمال لاحقًا لكنه أصرَّ أن آخذه معي. قال إنه سيظلُّ موجودًا في محلِّهِ حتى الساعة الرابعة.

جمعْتُ كلَّ ما أعطاني إيَّاه بابا ساغي من نقود على مدار شهور وشرحْتُ ما حدث لإيا ساغي بسرعة. "تأكدي أنَّ ما يستحقُّ جهدَكِ سينتج عن كلِّ هذه الحماقة،" تمتمت. "الأيام تمضي بسرعة وقريتك تناديك!" أفرغَتْ اللحم

البقريَّ المُقطَّع إلى مكعَّبات في مغسلة المطبخ ولوَّحَتْ لي من بعيد. ربَّتَتْ بلطفٍ على شَعر ساغي لبضع ثوانٍ ثم غادرَتْ.

كان بالفعل يكشطُ طاولته بسكِّينٍ عندما وصلْتُ إلى هناك. "لم أشكَّ لدقيقة في أمر عودتك،" هكذا قال.

سمحْتُ له برؤية أنني أحضرْتُ أكثر مما كنتُ مَدينةً له به، ودسسْتُ النقودَ في يده. أبقَيْتُ يدي هناك وتلاقَتْ عيوننا. بدا متفاجئًا في البداية، لكنه بعدئذ أمسك النقود بأصابعه وطلب مني أن أجلس وأنتظره ريثما ينتهي من التنظيف. ابتهج قلبي. إذًا، فعلى هذه الأرض أشخاصٌ آخرون بمستطاعهم أن يعرفوا ما يدور في ذهني! اصطحبني إلى منزله وضاجعني. لن أنسى ذلك اليوم أبدًا أو أيَّ يومٍ آخر أمضيْتُهُ معه. جعل جسدي يغني. أرغمني على العواء لمَّا جعلني أنحني بجسدي؛ وعلى الأنين عندما أجلَسَني على بطنه. ولمَّا ضاجعني أثناء وقوفي، حسبْتُ أنَّ ضفدعًا في داخلي، ينفخ حلقومه، ينفخ، وينفخ، وينفخ إلى أن ينفث ما فيه - ثم يتسرَّب كلُّ الهواء الدافئ عبر أطرافي. حتى عندما كبرت بطني واستدارت، واظبْتُ على زيارته. لم أستطع مقاومته. إذ منحني شيئًا أردْتُهُ دائمًا وباستمرار. وبعد ثلاثة أيامٍ من ولادة ابنتي البكر، انتظرْتُ بابا ساغي حتى ذهب إلى متجره الجديد لمواد البناء. لم يكد تاجو يأخذه بعيدًا في السيارة، حتى ربطْتُ الرَّضيعةَ على ظهري، وجلسْتُ على صخرةٍ خارج منزل الجزَّار. حين وصل، سألني إن كان المولود صبيًّا أم فتاة. كدْتُ أنسى تمامًا أنني أحمل طفلًا على ظهري. أرجوكم، لا تلوموني. لهفتي هي السبب؛ فلم ألتقيه لمدة أسبوع. بعدما علَّق كلَّ أدواته، فككْتُ الرضيعة عن ظهري، وخلعْتُ ملابسي، ووضعتها في كومةٍ مرتبة على الأرض. كانت توبه طفلةً جيدة؛ لم تبكِ. سألني إن كنتُ قد أحضرْتُ له

بعض المال. وتساءلْتُ عمَّا إذا ضاجعني من أجل المال وحده.

هكذا عشْتُ لثلاث سنوات: ثلاثة أيام يدكُّني خلالها بابا ساغي، ويوم للاستشفاء مع الجزَّار. كانت فتراتُ ما بعد الظهيرة تلك توازي الحياةَ نفسَها، ولم أدرك إلَّا في صبيحة أحد الأيام، بعد أن أنجبْتُ ابنتي الثالثة؛ موتن، أنَّ الحياةَ الباقية في تلك الفترات قليلة جدًّا. اقتحمَتْ إيا ساغي غرفتي، وتغضَّنَ جبينُها غضبًا. والجلد من حول حنجرتها تَجَعَّد. "ألا تسمعين بكاء الرضيعة؟" صرخَتْ.

"أوه، كنتُ شاردة." قمْتُ لآخذَ الرضيعةَ من سريرها. لمعَتْ عيناها من فرط البكاء. ألقَمْتُها حَلَمةَ ثديي. وبينما كنتُ أبحثُ عن طفلتَيَّ الأخريين، تابعَتْني إيا ساغي بعينيها. كانت أفولاكه تجلسُ في ركن دافعةً ما تسرَّبَ من حِفاضِها في أنفِ توبه. نامَتْ توبه بسرعة؛ وكلُّ ملابسها مقلوبة.

"بعيد جدًّا!" أغلقَتْ إيا ساغي أنفَها وجلسَتْ على حافة السرير. "سألني زوجُنا، الأسبوع الماضي، إذا ما كنتِ مريضة. قال إنَّ رائحةً كريهةً في غرفتك." نظرَتْ حولها بريبة كما لو أنَّ شيئًا مُغريًا سيقفز خارجًا من الجدران. "لن أدَعَكِ تُدمِّرين هذا المنزل بتجاوزاتِكِ. لقد سمحْتِ للمحظيَّة أن تأخذ دورَ الزوج. لم أعرف أحدًا يعبدُ القضيبَ بطريقتك!" توقَّفَتْ لتأخذ نفسًا طويلًا. "استمعي جيدًا لما يجب أن أقوله لأنني إن اضطُررْتُ لإعادته، فسيكونُ محشورًا بين الشتائم. لن تَرَيْ هذا الرجلَ مرة أخرى. إنكِ مثل طفلة لم تُطَوِّرْ مزاجَ الأسرار. محظوظةٌ أنتِ بزوجِنا الذي يعتقد أنه أعظم من كلِّ النساء ومعظم الرجال. لو أنه أكثر فطنةً، كامرأة، على سبيل المثال، لأدركَ جنونكِ. وعلى أيَّة حال، ستأتي زوجةٌ جديدة، فاستعدِّي لذلك. أرجو فقط أن يكون في عقلها قليلٌ من حُسن التقدير." غادرت الغرفة

تتعلَّقُ في ذراعها أفولاكه. سمعْتُها تصيحُ باسم ساغي وتأمرها بأن تُنظِّفَ الطفلة جيدًا في الفناء الخلفي من المنزل حيث تشربُ الأرضُ المياهَ الوَسِخَة.

جلسْتُ هناك بهدوء أراقب موتن تنتفضُ أثناء نومِها. كانت تبلغ من العمر ستة أيام. نبذ فمُها صدري. بدت صغيرةً جدًّا وغيرَ محبوبة جدًّا. أصابني خزيٌ لعين وقاتم. لم أُصدِّقْ أنني أهملْتُ الأطفالَ الذين أمَّنوا لي الحياة السهلة التي أعيشها. هناك وبعدئذ، قرَّرْتُ أن أصيرَ أمًّا جيدةً لأطفالي.

أكذبُ إن لم تُغوني زيارةُ الجزَّار. كنتُ توَّاقةً لذلك. كان من الصعب تحمُّلُ الاشتياق، لكن في كلِّ مرة تأتيني الرغبة، عضَضْتُ شفتي السُّفلية، وهزَزْتُ نفسي حتى النوم ووسادةٌ بين ركبتَيَّ. يتذكر الجسدُ بسرعةٍ كيف يموت في مواجهة الألم. أقذفُ أيَّ عذوبةٍ من ذهني وأُقَرِّبُ أطفالي مني لأملأ فراغها.

إيا ساغي على حق: وصلَتْ زوجةٌ جديدة. كانت طويلةً ونحيلةً غير أنَّ بمقدورك أن ترى أنها حظيت بحياة من اختيارها. ساعداها قويَّان جدًّا وحازمة في كلِّ شيء. تكلَّمَتْ عني إيا ساغي بفظاظة ونعتتني بالمُشوَّشة - الغبية والكسولة - في غيابي. أخبرَتْني ابنتي توبه بذلك. لن أتفاجأ إن كانتا تخططان لإلقائي أنا وبناتي في البئر.

سرعان ما أنجبَتْ الزوجةُ الجديدةُ؛ إيا فمي، صبيًّا، فعمَّتْ الاحتفالات. صفَّقَت الأمُّ الجديدةُ ركبتيها معًا عندما جلسَتْ وتبخترت كما لو كان رحمُها منجمَ ذهب. كان هذا مُتوقَّعًا، غير أنَّ كلمات بابا ساغي آلَمَتْ أُذنيَّ. تكلَّم كما لو أنَّ الصبي فمي جوهرة، كما لو أنه أول مولود للعائلة: "لا يمكن للابنة أن تكون كالابن،" قال. "الابن وحده هو الوريث الحقيقي."

ذكَّرَتْهُ إيا ساغي على الفور بأنَّ لديه وريثًا من قبل؛ آكن، ابنِها.

وِلِدَتْ بناتي وأعينهنَّ في بُطونهنَّ، لذا فهنَّ سريعاتٌ في هضمِ كلِّ ما يشاهدْنَهُ. يتشبَّثْنَ ببعضهنَّ من أجل الراحة، ويتحرَّكْنَ معًا مثل موجةٍ واحدة. عندما تبكي إحداهنَّ، تبكي معها أختاها أيضًا، وعندما تضحك، تبتسم الأختان الأخريان قبل أن تسألا ما المضحك. أشعر أحيانًا أنني واحدة منهنَّ. نعتني ببعضنا، كما أنني علَّمتُهنَّ كلَّ ما أعرفه. "لا تزنين،" أقول لهنَّ. "سِرْنَ على الطريق القويم والصائب،" أقول. وعندما ينسين حلَّ واجباتهنَّ المدرسية، أسألهنَّ إذا كنَّ يُرِدْنَ أن يكنَّ سيداتٍ متعلمات أو درنات عديمة الفائدة بأذرعٍ وسيقان. ويضحكْنَ عندما أقول هذا.

ذات يوم، خطرت في بالي فكرة وشاركتها معهنَّ. قلتُ إنه ربما سيكون من الأفضل لي أن أشنق نفسي بعد أن يتزوَّجْنَ ويُغادرْنَ المنزل. انهرْنَ على الأرض وبكيْنَ. "لن نتركك هُنا أبدًا يا ماما،" صِحْنَ. كنَّ واعيات ومدركات أكثر بكثير مني. كما قلتُ، أعينهنَّ في بطونهنَّ.

لا تستحقُّ بولنله معاملة الزوجتين الأخريين السيئة. تصيحان فيها كما لو أنها طفلة: "لا تجلسي هناك!" و"لا تلمسي ذاك!" تفعلان ذلك طوال اليوم، إلَّا أنها تفعل ما يُقالُ لها ولا تشكو أبدًا. كلُّنا هُنا نفعلُ ما نُؤمَر. عليَّ أن أكلِّمَها يومًا ما. يجب أن أفكر في الكلمات التي سأقولها لها. ربما لم يحن الوقتُ بعد. ستُسَمِّيني الزوجتان الأخريان خائنة. ويأكلان لحمي ويشربان الدم من شفتيَّ. أظنُّ يأني سأراقبها لمدة أطول. إذا قرَّر القدرُ أني سأكلِّمها، فسأفعل ذات يوم.

لديَّ سر. فقد عدْتُ لإزالة الأعشاب الضارة ثانية. أفعلُ ذلك عندما يستلقي بابا ساغي إلى جانبي. لا يعجبه ذلك؛ يقبض على يديَّ عاليًا فوق رأسي، على الدوام، ليوقفني، ولكن عندما يكون في غمرة الجماع، أحرِّرُ إحدى

ذراعيَّ من قبضته. أُغمض عينيَّ وأكشط التربة. أُبْعِدُ الأوراقَ وأضعها جانبًا؛ أنكز الجذرَ وأقرص البرعم. أشرد بتفكيري إلى الجزَّار، فأنسحبُ منه ببطء، ببطء شديد. ثمَّ يُجتَثُّ النباتُ وينبض بأطراف أصابعي بصورة مُفاجئة. لا أفتح عينيَّ. فأنا لا أريد رؤية بابا ساغي ينظر إليَّ.

الفصل العاشر

المتشرد

لم يعتذر بابا ساغي عن أخطائه في العامين اللذين قضيتهما في منزله. فهو يصنع السلام بطريقته الخاصة؛ تلك التي تتضمَّنُ مغلفات بنية ممزقة مليئة بأوراق نقدية تبلغ قيمتها خمسين نيرة، تُحْشَرُ تحت الأبواب عند الفجر. لقد أغضبَتْني حادثة الخيط الأحمر، ولم أستطع التفكير في طريقة أفضل لتهدئة نفسي من قضاء اليوم في سوق دَغْبي. مشَيْتُ على طول سوق دَغْبي، ثمَّ قرَّرْتُ زيارةَ محلِّ الخردوات في ميعاد الغداء تقريبًا. كنتُ أنوي شراءَ شيءٍ أتباهى به مثل طبق نحاسي، ولكن عندما وصلْتُ إلى هناك، لم أجد جرسًا ولا حتى رنينه.

"يُفضَّلُ أن تواصلي المسير،" حذَّرَتْني امرأةٌ تقف بظهرها لي. "قد تكون الشرطةُ تراقبنا من بعيد لتعرف من سيأتي للبحث عنه. استمرِّي في المشي. إننا نتحدث عن ممتلكات مسروقة، هل تعرفين؟" كانت المرأةُ تُفرِغُ مقاليَ من الألمنيوم الرَّخيص وتقصُّ الصناديق الكرتونية بمقصِّ خيَّاطٍ ضخم؛ ولم تستدر لتُواجهني.

تساءلْتُ إن كانت تخاطب أحدًا غيري. "عذرًا على الإزعاج، ولكني أبحث عن الرجل الذي يبيع أدوات المائدة المستوردة." "اقتربي. ألم تسمعيني؟ قُبِضَ عليه. جاء بالأمس رجلٌ لشراء بعض الأطباق. ولمَّا دخل محلَّ صديقك، اتصل بالشرطة فورًا. تبيَّن أنَّ بعض الأطباق المعروضة للبيع ملكه. وخلال دقائق، صار بائعُ الأطباق؛ صديقك، وبضاعته المسروقة خلف الـقضبان في مركز الشرطة."

"هل تقصدين أنَّ جميع الأواني الفخارية مسروقة؟ لكنه قال إنَّ تجارًا إيطاليين استوردوها!"

"تجار إيطاليون؟" انفجرت المرأة بالضحك. قبضَتْ على ثدييها الهائلين قبل أن تنحني من شدة الضحك، كما لو أنها خشيت أن تسحبهما الجاذبيةُ من صدرِها. عندما اعتدلت في جلستِها، كانت الدموعُ تنهمر على وجهها. "تُضحكينني يا أختاه! وهل توقَّعْتِ منه أن يقول إنه حصل على الأطباق من منزل فلان وفلان؟ أو ربما توقَّعْتِ منه أن يُعطيكِ العنوان الذي سُرِقَتْ منه الآنية. عزيزتي، لقد اعترف خلال دقائق؛ حتى أنه لم ينتظر صفعة الرقيب الثالثة. أختي، الشمسُ ساطعة. اذهبي في طريقك. فأنتِ تعطلينني. ما لم تكوني ترغبين في شراء القدور طبعًا. ضعي في اعتبارك أنَّها مصنوعةٌ في نيجيريا."

"لا، شكرًا." مشيْتُ بتثاقلٍ طوال فترة تراجع المشترين في المساء. شعرْتُ بأني حمقاء غبية، بل أكثر من ذلك؛ شعرْتُ بأني متواطئة.

هرعْتُ إلى المنزل بأسرع ما يمكن، أتساءل ماذا سأفعل بالآنية. بصرف النظر عن أنَّ فخامتها تبدو الآن جائرة، فقد كانت أدلَّة، بضاعة مسروقة، وعرفْتُ أنَّ عليَّ التخلصَ منها.

كانت الخفافيشُ في رحلة سفرها اليومي، تغمرها السَّماءُ بأمطارها. كنْتُ أندهشُ من انسيابيَّتها، في طفولتي، وكيف كانت تتدفق، كالماء القذر، في السماء الرمادية في حالة من الفوضى المنظمة: قلَّةٌ مُختارَة تُخفض أجنحتها، طافية لبعض الوقت قبل عودتها إلى بقية الغيمة.

"لماذا تهاجر الخفافيشُ عند الغسق؟" سألْتُ ماما ذات مرة.

"لأنها طيور ساحرة. يطيرُ السَّحرةُ عند الغسق."

لم تكن تلك إجابة مرضية لطفلة في التاسعة. "ولكن، كيف يكون الخفاشُ ساحرًا؟"

"لأنَّه يقف رأسًا على عقب. ماذا سيحصل لكِ إن وقفْتِ بالمقلوب؟"

"أموت؟" سألْتُ. ثم سقطَتْ حبات الفاصولياء الجيدة من بين أصابعي في كومة الفاصولياء الفاسدة.

"بالطبع ستموتين. لكنَّها لا تموت. يمكنها النوم بالمقلوب لأنها تملك قوىً شريرة. توقفي عن الكلام، بولنله، وافرزي الفاصولياء. علينا أن ننتهي منها بسرعة. تريد منا زوجة المالك (صاحب المكان) أن نطحنها أيضًا." ثم همسَتْ قائلة: "غدًا حفلة عيد ميلاد زوجها."

"هلَّا ذهبْنا؟ أريد أن أرى الكعكة. وجدَتْ لارا القليل منها في كيس بلاستيكي العام الماضي."

"هل أكلَتْه؟" توقفت يدا ماما عن الحركة وتسللتا إلى خاصرتها. علق فكُّها أيضًا، وكانت هذه إشارة سيئة فلم يسبق لها أن ابتلعت الجوز المر من قبل. اعتادت أن تُدوِّر قطعة مستدقة في فمها.

"لا، نعم." عرفْتُ أنني تحدَّثْتُ كثيرًا. منعَتْنا ماما من النَّبش.

"ألن تتعلَّموا أيها الأطفال أبدًا؟" استدارت ماما إلى يسارها ثم إلى

يمينها كما لو أنها تخاطب جمهورًا غير مرئي. "انظروا إليَّ، ها أنا أجلس هُنا أفرز الفاصولياء! هل تعتقدون بأنِّي لا أملكُ خَيارًا أفضل؟ وافقْتُ على قطف هذه الحبوب الغبية لتأمين سقفٍ فوق رأسك، حتى لا تخبر السيدةُ زوجَها بأني غير مفيدة، وحتى لا يرى أطفالُها أطفالي يحملون أمتعتهم فوق رؤوسهم في الخارج كالبائسين بعد أن أرسلوا لنا إشعارًا."

"أعرف، يا ماما."

لم تُنْهِ كلامَها بعد. دسَّتْ شَعرها في شبكة الشَّعر السوداء وسحبَتْ شحمةَ أذنها اليُمنى نحوي مشيرةً إلى أنني يجب أن أفتحَ أذنيَّ إلى أقصى حدٍّ ممكن. "لا أريد أن أراكِ تذهبين إلى هناك تتسوَّلين من أجل الحصول على الطعام. إذا أراد والدُكِ ذلك فليذهب هو، وليلعق مؤخراتهم، ويستجديهم من أجل البيرة، دعيه يفعل ذلك. فأنا لا أُربِّي أطفالي ليصبحوا متسوِّلين. إني أعمل وأرهق نفسي حتى الموت لأني أريد لك ولشقيقتك الشَّرِهة أن تمتلكا المنازل والسيارات. أربِّيكما لتصبحا امرأتين قويَّتين تقاتلان من أجل الثراء والفوز. ما من أحدٍ يتمتع بالنجاح إن لم يعمل بجدٍّ لاستحقاقه."

"أسمعكِ، يا ماما."

لم تُنْهِ حديثَها بعد. "هل سيُحسِّنُ طعمُ الكعكة من نصيبِكِ في الحياة؟" كانت ماما تطرح أسئلةً بلاغيةً سخيفة أخرى كلما انزعجَتْ. المشكلة أنَّ تلك الأسئلةَ تطلَّبَتْ إجاباتٍ مقتضبة متباينة.

رفعَتْ ماما وركَيْها عن المقعد. عرفْتُ، من النظرة على وجهها، أنَّ مزيدًا من المشاكل قادم. تشنَّجَتْ ملامحُها وشوَّهَها الغضبُ. "دعيني أذهب لأجدَ لارا. ستسمع الخبر مني اليوم. لماذا تذهب أينما يحلو لها؟ ألم يكن من المفترض أن تساعدَنا في فرز هذه الحبوب الغبية؟ أين هي الآن؟ لارا

أومولارا!" رفعَتْ صوتَها عاليًا.

سمعْتُ لارا تصرخ بعد لحظات. جذبَتْها ماما بعنفٍ من الفِراشِ الذي كانت مُتثنِّيَةً على نفسها فيه، وسحبَتْها خارجه من أذنها، صافعةً إيَّاها على رأسِها طوال الوقت. صفعةٌ لكلِّ مقطع تنطقه. "أنتِ فتاةٌ كَ-سو-لة. من سيتزوَّجُ شَ-رِ-هَ-ةً مثلَكِ؟ لماذا أنتِ دا-ئمًا؟ لِمَ لا تكونين مثلَ أُخْـ-تِـ-كِ؟

نظرَتْ إليَّ نظرةً ساخطةً، عبر دموعِها، وعيناها الكبيرتان ذواتا السبعة أعوام يملَؤُهُما الغلُّ. لم يكن بوسعي سوى التَّحديقُ فيها بالمقابل، وعيناي تفيضان بالدموع، أيضًا. لم تتكلم لارا معي لثلاثة أسابيع. كانت تخرجُ من أيِّ غرفةٍ أدخلها. وعندما نُجْبَرُ على الجلوس معًا، حَرِصَتْ على ألَّا تتلامسَ أرجُلُنا. تطلَّبَ إرضاؤُها ستَّ كُراتٍ من الأكارا[9]. حتى لمَّا قدَّمْتُها لها، التهَمَتْها دون أن تقول الكثير مثل شكرًا.

لم أَكَدْ أصل إلى المنزل حتى هرعْتُ إلى غرفة نومي وارتدَيْتُ بنطالَ جينزٍ بالٍ. دفعْتُ بذراعي أسفلَ سريري وسحبْتُ صندوقًا ورقيًّا قديمًا. ثمَّ انحنَيْتُ أمام كومة الأواني الفخارية وكسَرْتُ بعضَها ببعض على التوالي. فرَّتْ رواية شهر العسل الطويل من بين أصابعي لما بحثْتُ أسفا السرير عنها؛ ثم ألقيتُ بها في الصندوق. جمَعْتُ كلَّ التَّذكاراتِ التي احتفَظْتُ بها على مرِّ السِّنين: القرط الوحيد الذي أهدانيه سيغَن؛ ابن مالك المنزل، لمَّا بلغْتُ الثامنة عشرة. ارتديه كما ترتدين قلادة، قال. أمَّا عن الشعر المستعار قال بابا ساغي إنه يشبه ذيل الحصان. كانت كلُّ رسائل الحبِّ التي كتبْتُها لنَفْسي من النوع الذي أحبُّ أن أتلقَّاه. مزَّقْتُها كلَّها ورشَشْتُ ما تبقَّى حول الصندوق مثل قصاصات الورق.

---

9 طبقٌ من الفاصولياء المقشَّرة على شكل كرات تُقلى بزيت النخيل. م.

عندما انتهَيْتُ، حملْتُ الصندوقَ على قمة رأسي. كان أثقل مما توقَّعْتُ غيرَ أني تعلَّمْتُ أن أتحمَّلَ هذا الإحساسَ في رقبتي وهو يتوارى في كتفي. اضطررْتُ، أنا ولارا، قبل سنوات، إلى إحضار دلاء من الماء من بئر قريبة لأنَّ المالكَ اشتكى أنَّ حركة البشر إلى البئر في أرضِهِ تزعجُهُ. وبينما كنا نتسكَّعُ عائدتَيْن إلى المنزل، والماء البارد يرشق أكتافَنا، لعنَّا شركة المياه التي حرمَتْنا من مياه الصنبور في المقام الأول.

أطلقْتُ تنهيدةً أمام الزوجات الأخريات في غرفة الجلوس. حدَّقْنَ فيَّ ثمَّ في بعضهنَّ باندهاش. تظاهرْتُ بعدم رؤيتهنَّ وسارعْتُ إلى البقعة المهجورة في الفناء الخلفيِّ حيث كانت الطبلة القديمة. برزَتْ أجزاءٌ معدنيَّةٌ متفحِّمةٌ وبلاستيك ذائبٌ مدفوع إلى الأرض بفعل هطول الأمطار كشواهد القبور. الأرض من حولها محترقة، والحجارة حائلة اللون بسبب الدُّخان.

بحذرٍ، نقلْتُ الصندوقَ الكرتونيَّ إلى الأرض بخرقة، وهززْتُ البرميل الأزرق بقوة. رشح السَّائلُ من الورق إلى الآنية الفخارية، وشوَّهَ الهواءُ المحيطُ بالصندوق الأشكالَ الموجودةَ على الآنية. تطلَّبَ الأمرُ علبتَيْ ثقابٍ فقط لإشعال الصندوق. وقفْتُ هناك وشاهدْتُ النارَ تحرقُ ماضيَّ، حتى عندما تسبَّبَتْ الحرارةُ في أن يتصبَّبَ العرقُ من وجهي. حين خمدَتْ النارُ، جمَعْتُ كِسَرًا فخارية متناثرة، وحفرْتُ حفرةً في التربة الدافئة، ودفنْتُها.

عاينْتُ المساحات المفتوحة التي ظهَرَتْ أمامي في غرفة نومي ثانيةً. ثمة متَّسعٌ لسرير طفل، هكذا فكَّرْتُ.

إيا ساغي

كنتُ طفلةً ضخمة. قالت أمي إني أحْنيْتُ ظهرَها مثل ذيل قطة. قالت إنها لم تعرفْ ماذا تفعل بعد أن هجرها والدي، لذا كانت تأكل كثيرًا. بعد ولادتي، كان الطعام عزاءها الوحيد. صارت تأكل كثيرًا، أمّا ما لم تستطعْ تناوله فقد كانت تحشوه في فمي إلى أن صرْتُ أتدحرج على الأرض في إشارة مني إلى النوم. قالت إنها أُجْبِرَتْ على فطامي لأني كنتُ أجلب لها الخزيَ أمام زبائنها بطلبي الرِّضاعةَ من صدرها. دعيني أرضع، أنا جائعة، بكيتُ، الأمر الذي أدهش النساءَ العجائز. أرسلَتْني أمي إلى الحضانة في اليوم التالي، مثل أيِّ طفلٍ في الرَّابعة من العمر.

يبدو أنَّ الطعامَ الذي كانت أمي تتناوله قوَّاها: يمكن لذراعيها وساقيها أن يُنافسا ذراعي وساقي أيِّ رجلٍ في القوة. هكذا قالت لنفسها. كانت المرأة الوحيدة التي خرطت الفوفو[10] وباعَتْهُ بالجملة. امتلأ فترة صِباي برائحة

---

10 طعام يُعدُّ بتقشير نبات الكاسافا وغليه ودقه مع ما يعرف باسم "موز الجنة" أو "لسان الحمل" غير الناضج وقليل من الماء. يتطلب تحضيره كثيرًا من الوقت والصبر والقوة. م.

الكسافا المُخمَّرة، وأصبحت أظافري هشَّةً من فرط تغطيسها في الماء.

لم أعرفْ والدي قطّ. "هجرني والدُكِ من أجل امرأةٍ جميلة. أخبرْتُهُ أنني حامل لكنه لم يُرِدْ سَماع ذلك. قطعني مثل البامية ورحل. لاحقَ فَرْجَ امرأةٍ أخرى ومات فيه،" قالت أمي. عندما كانت تتكلم عن والدي، وثبَتْ تفاحةُ آدم صغيرة في عنقها مثل حلمة منتصبة تحت مئزر فضفاض. "الرجال لا شيء. إنهم حمقى. كل ما يفيدهم هو القضيب بين سيقانهم. ومع ذلك، لو لم تكن المرأةُ في حاجةٍ إلى بذرتهم من أجل الحصول على الأطفال، لكان من الأجدى الجلوسُ على قرن موز أخضر. استمعي إليّ. المرأة الحمقاء فقط هي من تعتمد بشدة على وعود الرجال."

كانت لوالدتي صديقة تبيع الدِّهان. كنا نناديها ماما ألارو. أصابع يديها ملطخة بالبنفسجي دائمًا وأخمص قدميها أَسْوَدان كالمطّاط المحترق. ومع أنها تعرف أنَّ الأطفالَ يهابونَها، إلَّا أنها كانت تُصِرُّ على نقر رؤوس الأطفال الذين يلقون عليها التحية. كانت أرملة أيضًا، ولديها طفل واحد فقط - ابن يُدعى إيشولا. كانت أمّي وأمُّ ألارو صديقتين حميمتين. كانتا سمنتين وقاسيتين للعيان. ولمَّا كانتا تجلسان على دِكَّةٍ أسفلَ شجرة الجوافة، بدا الأمرُ كما لو أنَّ فيلتين تتمايلان على غصن. ينادي الأطفالُ حول القرية بعضهم بعضًا، ليَرَوا المَشهدَ فقط. لم يستطع بعضُهُم إمساكَ ضحكاتهم. "أرجو من الله أن تخنقك تلك الضحكة،" هكذا كانت أمُّ ألارو تشتمهم.

عندما بلغْتُ الثامنة عشرة من عمري، ذهب إيشولا؛ زوجي المستقبلي، إلى مدينة إيبادان ليبتدئ عملَهُ كبَنَّاء. أصبحْتُ بارعةً جدًّا في صناعة الـ fufu، ومثل أمي، خبَّأْتُ مالي تحت فِراشي. لكنه كان فِراشًا صغيرًا، في غرفة صغيرة، في منزل صغير مُكوَّنٍ من غرفتَيْ نوم. أقلَقْتُ ماما بخصوصِ الحصول

على مسكني الخاص؛ سئمْتُ من انحشار جسدي أمامها عند كلِّ باب. "أخبرْتُكِ سابقًا أنه لا يمكنك شراء أرض وبناء منزلٍ خاص بك. سيقول رجال القرية إنكِ تسخرين منهم، وتفعلين ما لا يستطيعون فعله."

"لكنه مجرد منزل، يا ماما!"

"ولسوفَ يهدمونه ويحرقونه، يا ابنتي!"

ازدادَتْ أموالي حتى اضطررْتُ إلى إخفائها في أواني المياه القديمة في غرفتي. أُشْعِلُ مصباحَ الكيروسين كلَّ ليلة وأجلسُ على ردفيَّ عند الباب المغلق. حتى لو عدَدْتُ المالَ في اليوم السابق، كنتُ أعدُّهُ من جديد. أَحَبَّتْ أصابعي ملمسَ النقود. كما أحبَّتْ عينايَ رؤية أكوام النقود تتزايد. كنتُ أعبد المال. حتى عندما كان الأولادُ يتنمَّرون عليَّ بخصوص اللحم الذي يحيط برقبتي، لم أنزعج. كنتُ أنظر إليهم وأضحك ضحكة مكبوتة، مدركةً أنَّ آباءَ آبائهم لا يستطيعون الحصول على جزء بسيط من الثروة التي جمعْتُها.

ضَعفَتْ أمي حتى بان الموتُ في عينيها. رأيتُهُ دون أن أنظرَ. كنتُ في الثالثة والعشرين من عمري بثديين منتفخين ومتهدِّلين. لم أكن لأدركَ أنَّ هناك مسارًا كاملًا في الحياة لم أسلكْهُ أبدًا حتى اليوم الذي دعوْتُ فيه النَّجَّارَ لإصلاحِ مقعدنا. كان النَّجَّارُ في مثلِ عمري، وعندما وصفْتُ التقوية الإضافية التي أريدها للمقعد (الدكة) الجديدة، لاحظْتُ أنه ينظر إلى ردفَيْ بائعة البندورة وهي تمشي. لكأنها أحسَّتْ، فالتفَتَتْ إليه وابتسَمَتْ. "أتريده؟" سألَتْ.

"فقط إن كنتِ تمنحينه مجانًا."

"لا شيء في هذا العالَمِ بالمجَّان، ناهيك امرأة."

"أخبريني بالسعر ودعيني أفكر."

"إنه يفوق إمكانياتك." أرجَحَتْ الفتاةُ وركَيْها كالمانغا الناضجة على شجرة.

لم أكفَّ عن النظر إليها. مشيتها، لسانها البذيء، شعرها القصير، قدماها العاريتان - كلُّ ما فيها سَحَرَني. كنتُ غارقةً في الشهوة.

"يا سيدة، ليس بإمكاني تحمُّلُ نفقاتك، لكن ثمة من يستطيع،" تبعها النجارُ بصياحه. قهقه وبرزَتْ أسنانُهُ الأماميةُ نحوي.

نظرَتْ إليَّ بائعةُ البندورة، وضحكَتْ ضحكةً خافتة.

عدْتُ في اليوم التالي وجلسْتُ مع النجار ومعي قائمة بالأثاث الجديد ليقوم بصناعته. كنتُ آمل أن تسير بائعة البندورة من الطريق نفسها لكنها لم تَعُدْ. من وقاحتها بدت أنها ربما ليست من قريتنا. عدْتُ إلى المنزل والمقعد الجديد يتأرجح. خاب أملي.

خلدْتُ إلى النومِ مبعثرة ومرتبكة. لم أساعد أمي، تلك الليلة، في وضع المرهم على مفاصلها الملتهبة. وعندما طرقَتْ بابي، لم أُحرِّكْ ساكنًا. لم أستطع التوقف عن التفكير في تلك الفتاة. لأرتاح، بدأْتُ في عدِّ النقود، ولكن سرعان ما استلقيْتُ على السرير حالِمَةً. ثمة نقود في كل مكان، منتشرة بكميات كبيرة، على فخذيَّ، وعنقي، وأعلى ذراعيَّ. هكذا وجدَتْني أمي، غارقةً بالنقود، أرتديها كما لو كانت ثوبًا، عندما دخلَتْ عليَّ غرفتي في منتصف الليل. كانت تشعر بالقدر نفسه من الجزع حين وجدَتْني عاريةً إلا من ملابسي الداخلية. انتثرَتْ ملابسي في جميع أنحاء الغرفة. استنتجَتْ ماما على الفور أنَّ المال أصل جنوني. "لقد جعلْتِ من المالِ زوجًا لكِ،" قالَتْ.

ومنذ ذلك الحين، أصبح تزويجي طُموحَ حياتِها. "يا طفلتي، هل رأيْتِ ابنَ بابا إليبو؟ سأل عنكِ عندما مرَّ للتو" تسألني أمي. بدت كما لو أنها لم

تكن المرأة ذاتها التي قالَتْ إنَّ اللهَ منح الرِّجالَ خصيات للأهمية (الثقل) التي يفتقرون إليها في أدمغتهم.

وبينما كانت ترفع جلد فخذها الزائد لتحكَّ ركبتها من الداخل، سمعْتُ أمي تقول "لا أريدها أن تموتَ وحيدةً مثلي."

ردَّتْ أمُّ ألارو مُوافِقَةً "لقد دخلِتْ سنَّ الخزي."

"استحوذ المالُ على حواسِّها. إنها لا تكترث حتى بإنجاب الأطفال."

"ألَمْ أُحذِّرْكِ؟ الرجال الآن لا يعنون لها أيَّ شيء. لقد كبرَتْ وهي تسمعُ بأنك تمزِّقينهم إرَبا!"

أردْتُها فقط أن تعرفَ الحقيقةَ."

"آه، حسنًا، إنها تعرفها أكثر من اللازم الآن."

"تعالَيْ يا صديقتي، أين ابنُكِ؟ ألن يعود؟"

"انظري إليَّ وأنا أتكلم عن الثقوب في سقف منزلك في حين أنَّ ثمة تسريبٌ في سقف منزلي. يبلغ ابني ستة وعشرين عامًا. كلما سألتُهُ متى سأرى أحفادي، يخبرني أنَّ عليه أولًا أن يكسب المال الذي سيستخدمه في إطعامهم."

"أتقصدين أنه لم يعثر على زوجة بعد مرور كل هذا الوقت؟"

"يقول إنَّ إيبادان ليس فيها نساء تصلح للزواج، فقط نساء يبحثن عن المال."

"لِمَ، إذًا، لا يأتي إلى أومي آديو ويحصل على زوجة؟"

"تفوَّهْتِ بالحكمة، يا صديقتي."

"نحن صديقتان منذ أمد بعيد. وأنا أحتضر. لِمَ لا تأخذين ابنتي وتجعلينها ابنتَكِ؟ دعيني أقدِّمها لكِ مع مباركتي. فليأخذها ابنُكِ مني،

وسأعتني بهما من العالَم الآخر."

كنتُ في غرفتي عندما سمعْتُ أمي تنتحب. بدا ذلك غريبًا لأنَّ احتمالَ الموت لم يزعجها عادة. قالت إنها تريد الذهاب إلى الجنة وتقتل والدي من جديد. وفقدت الأمل في أن أتزوَّجَ.

نظرَتْ ماما ألارو إلى أمي واتَّخذَتْ قرارها عندئذ. ومع أنها عملَتْ بجدٍّ كأمي، إلَّا أنها لم تكن ثرية مثلها. لا يهم إن صببنا زيت النخيل على اليام[11] أولًا، أو العكس، المهم تناول وجبة جيدة من اليام المنقوع بالزيت. لا بدَّ أن نساعدَ بعضنا بعضًا."

لم يُبعِدْ الإنصاتُ إلى خططهما بائعةَ البندورة عن تفكيري. وبعد البحث لعدة أيام، اقتفيْتُ أثرَها في الأرض الزراعية على أطراف قريتنا. عندما رأيتُها، خذلَتْني جرأتي. ضعفت ولم أستطع التحدث إليها. تخلَّيْتُ عن الـ fufu، وطارَدْتُها، وابتهجْتُ لاستنشاقي الهواءَ نفسَه الذي تتنفَّسُهُ. رأيْتُ كلَّ رجلٍ ناكَفَتْهُ. انفلَتَتْ من بين شفتيَّ شهقةٌ كلَّ مرة دحرجَتْ وركها وهزَّتْ الخرز الذي يُزيِّنُ خاصرتَها. تقطَّرَ العرقُ من عنقي كالمطر من السقيفة. لا أستطيع أن أشرح لماذا لكنني أردْتُها لنفسي. رغبْتُ في بناء منزل لها والاحتفاظ بالمفتاح بين ثدييَّ. أردْتُ أن أُلْبِسَها أرق أنواع الثياب، لتتباهى بنفسها من أجل سعادتي وحدي. رغبْتُ في أن أحبسَها بين فخذيَّ.

عندما عدْتُ إلى المنزل في ذلك المساء، فتحْتُ باب غرفة نومي واختفت الظلال من عينيَّ فورًا. تعرَّضَتْ غرفتي للسرقة، وضاعت كلُّ أموالي. خفق قلبي بصوتٍ عالٍ جدًّا لدرجة أنه ملأ رأسي. لم أتمكن من الصراخ لئلَّا تندفع الشياطينُ من الغابات لذا فتحْتُ باب غرفة نومي للإبلاغ عن

---

11 نبات يشبه البطاطا الحلوة. م.

المأساة. كانت ماما واقفةً هناك تملأ الممرّ. "ضاع كُلُّ شيء،" قالتْ. كانت واقفة منتصبة دون أن تتكئ على عضادة الباب. لم أرها هكذا منذ عامين. "منحتها كلَّها إلى الرجل الذي سيصير زوجك. سيحتاجها ليرعاكِ."

"زوجي؟ لا تحتاج النساءُ إلى أزواج." اقتبسْتُ كلماتِها ذاتها وأعدْتُها على مسامِعِها.

"بلى. تحتاجين إليه لتنجبي أطفالًا. لا يصبر العالَمُ على العوانس. إنه يطردهنَّ خارجه."

"أكلُّ هذا لأتمكَّنَ من الإنجاب؟"

"الإنجابُ هو الهدفُ في حياة كلِّ امرأة. أتريدين أن تصبحي شبحًا في عالَم الأحياء؟ ليست هذه هي الطريقة التي أريد أن أتركَكِ بها في هذا العالَم."

لم أستخدِمْ كلماتِها ضدَّها، غير أني أومأْتُ برأسي باستحسان طوال احتفالات الزفاف. لن تتمكن أومي آديو من التباهي بزواجٍ أكثر بذخًا. لم تتوانى أمي وماما ألارو عن إنفاقِ المال. اشترتا ثلاث بقرات وثمانية أكياس من الأرز. ودعتا كبار القرى المُجاورة.

قالت أمي وهي تُرحِّبُ بالضيوف: "تعالوا وشاهدوا روعة المرأة التي تُرِكَتْ من أجل الجَمال فقط."

استسلَمْتُ لأنني عرفْتُ أنَّ هذه مقدِّمةُ موتِها. كانت الاحتفالاتُ رقصَتَها الأخيرةَ مع الأحياء. لم تَعُدْ قادرةً على الوقوف دون مُساعدة، وعندما جلسَتْ مُستريحةً لتفحصَ منزلة ضيوف حفل الزَّفاف، بدا كلُّ نَفَسٍ وكأنه ضرطةٌ طويلة. عرفْتُ، كما عرف كثيرون، أنها ستأخذ آخرَ نَفَسٍ لها قريبًا.

راقبني زوجي الجديدُ باهتمام لكنني نظرْتُ إلى الأمام. استطعْتُ أن أرى بائعة البندورة ترقص مع النجار. اجتمع من حولهم حشدٌ صغيرٌ من

الناس. لحظاتُ سوء السُّمعةِ جعلَتْ النجار مُبتهجًا؛ كانت أسنانُهُ لامعةً ببياض يتطاير وكان يهزُّ وركَيْهِ بحركاتٍ بلهاء. تابع زوجي نظراتي، ولاحظ نُفوري، وقرَّر أنَّ الوقتَ حان لننهض ونشكرَ الضيوف عند كلِّ طاولة.

" Eyin Iyawo o ni m'eni."[12] صلُّوا من أجل زواج مثمر.

"آمين!" أجاب وهو يفرك راحتيه وينظر إليَّ بخبث، وكأنه يُحذِّرُني أنني سأتحمَّلُ سِياط قضيبه بعد قليل.

وبينما كنتُ أستعدُّ لمرافقته إلى مدينة إيبادان في اليوم التالي، عرفْتُ أنه لا يعرفُ مصدرَ الأموال التي رصَّتْها والدتُهُ في الحقيبة التي وضعها حول بطنه. كان واضحًا من الطريقة التي رفع بها رأسَهُ اعتقادُهُ أنها هدية عظيمة من والدته. في الباص المتجه إلى إيبادان، استقرَّتْ ذراعُهُ على ذراعي. لكأنَّ أحدًا وضع فرعَ شجرةٍ صغيرٍ على معصمي. كان رجلًا نحيلًا في تلك الأيام، هزيلًا لدرجة أنَّ زوبعةً قد تجتاحُهُ. نظرْتُ إليه ووجدْتُهُ يبتسمُ لي. ابتسمْتُ مرَّة أخرى، بأسناني كلِّها. ربما جعل مني وزني أضحوكة في العديد من النِّكات، لكنَّ أسناني كانت تلمعُ كالضوء عبر الأوراق.

في وقتٍ لاحقٍ من تلك الليلة، في كوخِهِ المُؤلَّفِ من غرفة نوم واحدة في إيبادان، تلوَّى بين فخذَيَّ، وتعجَّبَ من حجم ثديَيَّ. قال إنهما سيكفيانه مدى الحياة. كانت المرة الأولى بالنسبة لي، لذا بالكاد سمعْتُ ما يقول. تغلغل الألمُ في بطني إلى ظهري ومن أعلى عنقي حتى أذنيَّ. حلمْتُ ببائعة البندورة تلك الليلة. جالسةً فوق عُلَيقةٍ بندورة كبيرة تصرخ، "أين أنتَ أيها النجار؟" كان النجارُ مختبئًا خلف شجرةٍ قريبة، يرشقها بحبَّاتٍ صغيرة من البندورة. كلما أصابَتْها إحداها، لطَّخَتْها، وخلَّفَتْ حلقةً حمراءَ على بشرتها. عندما

---

12 صلاة تُتلى من أجل خصوبة الرَّحم. م.

استيقظْتُ من النوم، قلتُ لنفسي إنَّ قلبي لم يَعُدْ يتألَّمُ من أجلها، وإن أرادت أن يكون النجار من نصيبها، فليكن.

التفت إليَّ زوجي الجديد. "سعيدٌ لأنكِ هُنا معي، حبَّذا لو أَسْمَنْتِني قليلًا،" قال.

"سأتبعُكَ إلى أيِّ مكان، يا سيدي." رفعْتُ ردفيَّ وتركْتُهُ يملؤني من جديد. سأتبع أموالي في أيِّ مكان.

بعد عامين، بدأت تجارته تزدهر، واشترى قطعة أرض. جمع عمالةً رخيصة وارتفعت أساساتُ منزلنا بسرعة كبيرة. بدا سعيدًا لبعض الوقت. تيقَّنْتُ أنني أُشْبعُهُ. الرجال! إنهم يحاولون أن يُجرِّدوك من أملاكك دائمًا.

لم أشتكِ عندما أحضر زوجات أخريات إلى المنزل. لم أنطق بكلمة واحدة. لم أُظْهِرْ حتى خوفي على أموالي. التزمْتُ الصَّمتَ وراقبْتُهُ. مَنْ يعرف نوعَ الجنونِ الذي يدفع الرجال للبحث عن الأشياء التي تخرق جيوبهم؟ غير أنَّ هذه هي الطريق التي اختارها، ووافقْتُ عليها. النساء نقطة ضعف زوجي. لا يستطيع مُقاومتهنَّ، خاصة عندما يكنَّ ضعيفات ومُنكسِرات كالجِراء التي انتُزِعَتْ عن أثداء أمهاتهنَّ قبل الأوان. لا ألومُ النساء أيضًا. تُضعفهنَّ الثَّروةُ التي يقدِّمُها لهنَّ.

بالإضافة إلى ذلك، لا تضايقني الزوجات الأخريات، باستثناء بولنله؛ صاحبة الأنف الشاهق الذي يمسُّ السَّماءَ. يشبهن الخادمات المتواضعات اللواتي يعشْنَ بانتظار تربيتة لطيفة على الرَّأس من سيدة المنزل. يعرفْنَ جيدًا أنني المُعيلة الحقيقية. يعتقد زوجي أنه يسيطر على هذه الأسرة، وأتركه يعتقد أنه يفعل ذلك. أريده أن يعتقد بأنه يفعل ذلك حقًّا غير أني أنا من تشدُّ أزر هذه الأسرة وتُبقيها متماسكة. تحدث الأشياء الجيدة هُنا لأني أسمح لها

بالحدوث. وحدي أوافق على الانتقام وأنا فقط من تعرف كيف تجلب الهدوء.

عندما كانت ساغي رضيعةً، كانت تلتصقُ بي كما لو أنَّ الأرواحَ حذَّرَتْني أنني سأهرب ذات يوم وأتركَها. لقد كبرت لتصبح ابنةً مخلصة. ولمَّا علمْتُ بالأذى الذي قد تُلحقه بولنله بمنزلنا، حذَّرْتُها. أخبرْتُها أنَّ الفتاةَ التي تتخلَّى عن صدرِ أمِّها لأجل امرأةٍ أخرى ستُلْعَن. أخبرْتُها أنَّ عليها أن تصيرَ عينيَّ، وأذنيَّ، وأنفي، ويديَّ، عندما لا أكون في المنزل. لطالما كانت مخلصة. تخبرني بكلِّ ما يحصل في غيابي. أخبرْتُها أيضًا إنَّ عليها التمسك بي حتى يحين يومُ مغادرتها لتُديرَ منزلَها الخاصَّ بها. لن تتعثَّرَ. درَّبْتُها جيِّدًا.

رفض آكن حليبي بعد عام وبكى ليأكل فتاتَ الطعام. وبدلًا من أن يكون مربوطًا بظهري، فضَّل السَّيرَ إلى جانبي. جلس إلى جانبي طوال اليوم عند إنشاء أول كشكٍ للإسمنت لي. لم أضطر إلى مسح دمعةٍ من عينيه اللطيفتين قط. كان يُسلِّي نفسَهُ: يراقبني أثناء تناوله للطعام، ويبتسم في كل مرة دسسْتُ فيها نقودًا إلى الحقيبة الملتفة حول بطني. أملك ثمانية محالّ لبيع الإسمنت في إيبادان وحدها وتزداد ثروتي يومًا بعد يوم. لا أقول إنني جشعة لأنني لستُ كذلك. فكلما ازدادت أموالي، اتضحت طريقي إلى الحرية. نطمح جميعًا إلى التحرر من كل ما يقيدنا. سيأتي اليوم الذي يتنفس فيه بابا ساغي نفسه الأخير وأستردَّ أموالي. سأُراكمُها فوق المال الذي أملكه الآن، وستكون الكومةُ ثقيلةً مثل تلال إيدانري. بعدئذ، سأغادر هذه المدينة، وأعود إلى قريتي. سأشتري شاهدة قبر رخامية كبيرة لأمي. سأحرق بيتها المصنوع من القش، وأبني بناية من أربعة طوابق مكانه. وسأشاهد الباعة المتجولين يروحون ويجيئون من الشرفة العلوية.

لن أسمح لبولنله بأن تقلب مستقبلي رأسًا على عقب.

مسرح

لم يكن مركز القديس غابرييل للأشعة كما توقَّعْتُ. كان المبنى في مُجمَّعٍ صغير في حيٍّ بِميتو وكانت ثمة لافتةٌ تشير للزُّوَّارِ بأن يتَّجهوا إلى الطابق العلوي. زُيِّنَ الجدارُ الأماميُّ بحجارةٍ كبيرةٍ أُلْصِقَتْ ببعضها بحيث بدا المبنى وكأنه منحوت من جبل من الغرانيت. من البوَّابة، رأيْتُ نساءً جالساتٍ على مقاعد، ويتَّكِئْنَ بظهورهنَّ بقوة على القضبان الحديدية التي تُطوِّقُ الشُّرفة. ثمة صيدلية في الطابق الأرضيِّ حيث كان ينبغي أن يكون هناك مستودع، غير أنه لا توجد نوافذ تُلقي الضوء على عُلب الأقراص المُتراصَّةِ معًا على الرُّفوف. بدا المكانُ مُعتِمًا وقذرًا. وثلاجة صفراءُ كبيرة تُبقي باب المستودع مفتوحًا. نادتني امرأةٌ شابة تجلس على مقعد مرتفع في الخارج قائلةً: "يا خالتي، هدِّئي نفسَكِ بكيس من الماء البارد النقي."

تجاهلْتُها. فلم أكن عطشى. أوقفْتُ سيارة تاكسي في شارع سانغو وأمرْتُ السَّائقَ أن يُوصلَني إلى وجهتي مباشرة. حدَّق فيَّ السَّائقُ عبر مرآته الخلفية، متسائلًا ربما لِمَ تهدر امرأةٌ ذاتُ مظهر عادي المالَ على مثل هذا

البَذَخ. لكأنه أراد أن ينتقمَ مني، فحاول أن يطلبَ أجرةً أعلى. "مِئتا نيرة،" قال وهو يعبثُ ببعض الأسلاك خلف عجلة القيادة.

"خمسون،" قلتُ بحزم.

"ادفعي مئة، يا سيدتي. يدفع كلُّ راكبٍ عشرين نيرة من المكان الذي أقلَّيْتُكِ منه. وهذه السيارة تتَّسعُ لخمسة رُكّاب."

"سأعطيكَ ثمانين. حمولة السيارة أربعة ركّابٍ فقط."

"يا سيدتي، وجب أن تساعدينا نحن سائقي سيارات التاكسي المساكين. إن لم نُقِلَّ خمسةَ رُكّابٍ، فكيف سنطعم أطفالَنا؟"

"بأن لا تحاول النَّصبَ على الرُّكّاب." أحصيْتُ أربع أوراقٍ نقدية من فئة العشرين نيرة ودسسْتُها في راحة يده المفتوحة.

نظر الرجل إلى المال في يده. فكَّر في أن يُساومني أكثر قليلًا ولكنه تراجع عندما رأى بأني كتَّفْتُ ذراعيَّ، وأمَلْتُ رأسي جانبًا، مُتحدِّيَةً إياه أن يفعل.

كانت الدَّرجاتُ شديدة الانحدار ومُلتَفَّةً على نحوٍ مُتعِب. وصلْتُ إلى القمَّة لأجد مجموعة من النساء؛ بأطوال وعُروضٍ ومراحل حمل مختلفة، جميعهنَّ يَحُصْنَ ويَلُصْنَ، تُفرِغُ معظمهُنَّ أكياسًا بلاستيكية صغيرة من الماء في أفواههنَّ. بدا وكأنَّهنَّ، كلُّهُنَّ، مستعدَّاتٍ للتَّسرُّبِ من كلِّ فتحة، وإغراق الأرضيات المطاطية الباهتة.

رأيْتُ غرفةَ الانتظار عبر عدد كبيرٍ من النوافذ. أُخِذَ كلُّ حيِّزٍ من كلِّ مقعدٍ بجانب منضدة خشبية، انفتح بابٌ في الداخل على ممرٍّ. نظرْتُ أسفلَ الممرِّ. ثمة بابان على كلا الجانبين؛ وُضِعَ على ثلاثةٍ منها لافتات بأسماء أطباء، وكُتِبَ على إحداها بوضوح شديد دورة المياه. ثمة طابور صغير عند كلِّ باب،

بما لا يقلُّ عن تسع نساء يشدُدْنَ أفخاذَهُنَّ خارجَ المرحاض.

عندما اقتربْتُ من المنضدة، قيَّمَتْني ممرِّضةٌ ترتدي ثوبًا أبيضَ ناصعًا. كانت قصيرة ومتينة الوركين، غير أنَّ بشرتها بلون الأبنوس متوهِّجة. أسنانُها بيضاء بفراغٍ كبيرٍ يفصل بين القواطع الأمامية. ما أن تحدَّثَتْ حتى لاحظْتُ الفراغ؛ فلم يغادِرْني شغفي بالعيوب. دوَّنَتْ اسمي ثمَّ شبكَتْ نماذج طلبي مع ترويسة مركز الأشعة.

"عليكِ أن تجلسي وتنتظري. اشربي قليلًا من الماء. سيسهِّلُ هذا على الطبيب رؤية كلِّ ما يحتاج إلى رؤيته. نوصي بأن تشربي ثلاثة أكياس من الماء."

"إلى متى تعتقدين أنني سأنتظر؟"

"من المستحيل معرفة ذلك، لكن إن غادرْتِ فستفقدين دورَكِ. رقمك ثمانية وسبعون، جاءت للتو رقم ثلاثة وعشرين. اجلسي انتظري كالآخرين."

اكفهرَّ وجهي وخرجْتُ إلى الشرفة دون أن أنظر أو ينظر إليَّ أحد. هل قلتُ بأني مختلفة عن الآخرين؟ تأمَّلْتُ فظاظَتَها بينما كنتُ أمشي باحتراسٍ أسفل الدَّرج. تجاهلْتُ الصيدلية مرة أخرى؛ أردْتُ زجاجة ماء. لم تلقَ فكرةُ أكياس الماء المتجعدة، مشكوكة المصدر، رواجاً لديَّ. أثناء خروجي من البوابة، لفت انتباهي شرطيٌّ يرتدي زيَّهُ الأسودَ الباهت. وقت على الجانب المقابل من الطريق، وكان يملأُ خزَّانَهُ ببرميل صغير من البنزين. كان هناك عددٌ أكبرُ من رجال الشرطة جالسين على مقعدٍ تحت شجرة لوزٍ مُقَلَّمة. قرفصَتْ أمامهم فتاةٌ صغيرة كانت تكيلُ الفولَ السوداني المسلوق في علب حليب قديمة وتنقلها إلى صُحُفٍ مطوية على شكل قراطيسَ مثلثة مرتَّبة. كان رجال الشرطة في مزاجٍ مرح؛ استمرُّوا في الوقوع في نوباتٍ من الضحك.

مشيْتُ أمام كشكِ الموز المشويِّ الفوَّاح. هوَّتْ امرأةٌ بقميصٍ مُقَوَّرٍ ومُزركش الفحمَ بقطعةٍ من الكرتون. دمعَتْ عيناي من الدُّخان، لذا اجتَزْتُ المعبر من أمام ورشة ميكانيكي وتوقَّفْتُ أمام صيدلية. من الخارج، استطعْتُ أن أرى الصيدلية مضاءة إضاءة ساطعة بمصابيح فلوسنت. كانت النوافذ مغلقة أيضًا. مما يعني أنها مُكَيَّفة.

في مركز الأشعة، جلسْتُ على مقعدٍ خشبيٍّ صلب وطويل مُحَرِّكَةً وزني من ردفٍ إلى آخَر. لم تكن لديَّ الكثيرُ من البطانات كغيري من النساء الأخريات. استنتجْتُ أن يكونَ الحملُ شَفوقًا على المُؤخرة. ألقيْتُ نظرةً خاطفةً على الأنوف السَّمينة، وتعجَّبْتُ من عدم الاحتشام الذي أظهرْنَ به كواحِلَهُنَّ المُتورِّمَة. وبينما كنَّ يتبخْتَرْنَ خارجِ الممرِّ المُعتِم، حاولْتُ أن أُخمِّنَ من منهنَّ تحمل توأمًا، أو ثلاثة توائم، أو صبيًّا، أو بنتًا، أو مولودًا ميتًا. بعد لَأْيٍ، غادرَتْ بعضُ النساء بأعين محتقنة بالدم، تلتصقُ بوجوههنَّ آثارُ مناديل ورقية. وإلَّا لِمَ سَيَكُنَّ ثكالى؟ كانت لعبةً مُضجِرَةً لكنها ساعدت في تمضية الوقت. اعتقدت النساءُ ربما أنني في الثلث الأول من حملي؛ أيقظت الفكرةُ الفراشات في بطني، لا الأسى الذي توقعته.

قبضَتْ عينايَ على لافتةٍ مُعلَّقةٍ على الحائط: **إذا أنجبْتِ مولودةً أنثى للمرة الثانية، فَلومي الأب!** كنتُ، للتو، أفكِّرُ بيايا توبه، ورغبتها في إنجاب صبي، عندما نُوديَ على رقمي.

"هذه أنا،" قلتُ وأنا أقف متعجِّلة. ووقعَتْ نماذجي من حضني.

"اذهبي إلى غرفة رقم 3 وانتظري حتى يتمَّ استدعاؤُكِ." عبست الممرضة وراقبت النماذج وأنا أستعيدُها عن الأرض، كما لو أنَّها تريد أن تتأكَّد أنني التقطْتُها كلَّها.

بدا الطبيب لطيفًا. برزت ذقنُهُ إلى الأمام قليلًا، مما أعطى وجهَهُ مظهرًا متجهِّمًا. اسودَّ إِبْطا قميصِهِ الأنيقِ من التعرُّقِ على الرَّغم من تدفُّقِ الهواءِ البارد من المُكيِّفِ الصَّاخب المربوط بفتحةٍ مستطيلةٍ في الحائط. لم تترك عيناه شاشةَ الفحص.

"نماذجُكِ، من فضلك،" قال مُشيرًا إليَّ. سلَّمْتُها لمرضة كانت تمدُّ يدَها.

كانت أصابعُ الطبيبِ طويلةً وأظافره مقضومةً من الجلد الزائد. وجَّهَ إليَّ ابتسامةً مُطَمْئِنَةً وهو يرشُّ على بطني كُرَيَّةً من الجِلِّ. هتف للممرضة مجموعةً من الأرقام والحروف. كرَّرَتْ كلَّ ما قاله وعبَّأت الفراغات في النماذج.

"اضطجعي على جانبِكِ الأيسر، لو سمحْتِ،" طلب الطبيب منها. مدَّ ذراعَهُ لأتمكَّن من الإمساكَ بها وتغيير وضعيَّتي. ضغط بطني بثلاثة من أصابعه.

لم يكن الوضع مُريحًا جدًّا لكنني لم أُصْدِرْ أيَّ صوت. عندما انتهى الفحصُ، طلب مني أن أُبدِّلَ ملابسي في الغرفة المُحاذية. في الأثناء، وضع النتائج في مغلف مغلق. وَدَدْتُ أن أطرح بعض الأسئلة لكنني عدلْتُ عن الفكرة. مهما كانت الأخبار، فالأجدى أن أسمعَها مرة واحدة. أخذْتُ المُغلَّفَ وذهبْتُ للبحث عن مختبر للتشخيص.

قبل عشر سنوات، وقفْتُ تحت شجرة تفاح النجمة الأفريقية (agbalumo). كنت على قيد الحياة وقتها. كنتُ رئيسة الطالبات في مدرستي الثانوية، ورئيسة كلٍّ من النادي الأدبي ونادي المناظرة في المدرسة. كنتُ أعرفُ أنني الابنةُ التي يتمناها كلُّ والد ووالدة. عرفْتُ من الطريقة

التي كانوا يطلبون بها رأيي بخصوص سلوك أطفالهم في المدرسة. كنتُ في تلك الأيام طفلة ماما المُحبَّبَة. قالت ماما إن أختي لارا كسولة للغاية لدرجة أنها تحتاج إلى خادمة تُلقمها الطعامَ في فمها. كنتُ الابنةَ الطيبة.

أمطرت بغزارة، في ذلك اليوم، لدرجة أنَّ أعشاشَ الطيور سقطت من الأشجار. كان من المستحيل الوقوف إلى جانب الطريق دون الاندفاع للأسفل مع التيار. الماءُ المُوحِلُ في كلِّ مكان، يُحدِثُ حفيفًا حول أقدام الناس، ويجرف معه الجرائد المتجعدة وأكياس المياه البلاستيكية. قلبت الرياحُ مِظلَّتي وابتلَّتْ ملابسي حتى وصل البللُ إلى جسمي. وكما هو الحالُ عندما تهطل الأمطارُ بغزارة، فلم تستجب سياراتُ التاكسي للصفير أو الهسهسة. فضَّلُوا المُحافظة على مُكربنات (مُفحِمات) سياراتهم بدلًا من الوقوعِ في الحفر الممتلئة بالماء. لم يسبق أن تأخَّرْتُ في العودة إلى المنزل من تمرين الغناء أبدًا، وكنت أعرف أنَّ أمي ستقلقُ قريبًا. حتى أنني لم أُنجِزْ الأعمالَ المنزلية. بقيتُ أنظر في ساعتي آملة أن يدقَّ عقربُ الثواني أبطأ قليلًا. طَمْأَنْتُ نَفْسي أنَّ طريقَ أوولوو كان آمِنًا، على الأقلِّ، فهو مكانٌ يقطنه الأغنياء والمحترمون.

كنتُ أنظرُ إلى أشجار النَّخيلِ التي تُطِلُّ من فوق الأسوارِ تُتوِّجُها شظايا من الزُّجاج المكسور، عندما أطلقت سيارةُ مرسيدس صريرًا أثناء وقوفِها، ورُجوعِها إلى الوراء، واصطفافِها على بعد حوالي ياردة مني. هرعْتُ إلى السيارة، وأدخَلْتُ رأسي عبر النافذة، على أمل أن يكون من فيها أحدُ أصدقائي في المدرسة. رأيتُ وجهًا غير مألوفٍ، فاعتذرْتُ وتراجعْتُ خطوتين إلى الوراء. كانت والدتي قد حذَّرَتْني من الخاطفين.

"ستجرفُكِ مياهُ الأمطارِ بعيدًا،" جاءني صوتٌ خافتٌ من مقعد السَّائق.

"ما وجهتُكِ؟"

رجعْتُ إلى الوراء خطوةً أخرى ونظرْتُ في اتجاه السيارات المارَّة. ربما ذهب في طريقه إذا نظرْتُ بعيدًا.

"هل تنتظرين أحدًا؟ انظري، إنكِ الوحيدة التي تقف هُنا تحت المطر. إذا كنتِ تنتظرين سيارة تاكسي، يمكنني إيصالُكِ لمسافةٍ أبعد. ثمة الكثير من سيارات التاكسي عند تقاطع أوسَنْتوكَن."

اقتربْتُ قليلًا. ألقيْتُ نظرةً سريعةً على السيارة ثمَّ عليه. بدا محترَمًا، لا يشبه قُطّاعَ الطُّرُقِ الذين لي أمي. أكاد أشمُّ رائحَةَ الكولونيا التي يضعها؛ لكأنها عشب طازج قُصَّ للتو. كانت ملامح وجهه جميلة وأظافره مبرودةً حدَّ الكَمال. كان يرتدي قميصَ بولو وعلى الجهة اليُسرى تمساح. كان بنطاله الجينز نظيفًا.

وبينما مددْتُ يدي إلى مقبض الباب، قلتُ: "قالت لي والدتي ألَّا أقبل الرُّكوبَ مع أشخاصٍ لا أعرفهم."

"لم أَعُدْ غريبًا، أليس كذلك؟" اسمي توماس وأودُّ القول بأننا أجرينا مُحادثةً مُبهِجَةً بالفعل." ابتسم ابتسامةً عريضة.

عندما وصل إلى الدُّوَّار، انعطف إلى اليمين تمامًا بدلًا من أن يسلكَ المَخرجَ الثاني.

"سيدي، قلتَ سنذهب إلى أوسَنْتوكَن."

"هل أنتِ مستعجلة؟ أودُّ فقط أن أتَّصلَ بشقيقتي في الولايات المتحدة الأميركية. إنها في المستشفى. أسكن في الجوار. وما أن أنتهي من ذلك، سأهرع لإيصالك إلى أوسَنْتوكَن. لربما أوصلْتُكِ إلى منزلك حتى. أين تعيشين؟"

"أعيشُ في أغبو. المشكلة أنَّ أمي ستقلق عليَّ."

قهقه بسخرية. "فتاة كبيرة مثلك، تذكرين والدتك في كل جملة. كأنك طفلة. فهل أنتِ طفلة؟ كم عمرُكِ؟"

"خمسة عشر. لستُ طفلة." رفعْتُ رأسي عاليًا.

استدار ونظر إلى وجهي، ثمَّ سقطت عيناه على صدري. "لا يبدو أنك في الخامسة عشرة. فهل أنتِ حقًّا في الخامسة عشرة؟"

"بلى."

"ما نوع الموسيقا التي تحبِّين؟"

"أيّ شيء."

"أيّ شيء؟ حسنٌ، سيكون هذا بحسب ذوقك. إنه مثاليٌّ لمن يحبُّون اللاشيء. أخرج قرصًا مضغوطًا لواسيو أيندي في مُشغِّل الأقراص الذي ابتلعه ثم تجشَّأَ صوتَ قرع طبل مألوف.

رفع درجةَ مُكيِّفِ الهواء. شعرْتُ ببرودتِهِ تنسف ذراعيَّ العاريتين عبر بلوزتي المُبتلَّة. رائحته تشبه المطر يضرب رصيفًا ساخنًا. جلسْتُ مستريحةً واسترخَيْتُ على المقعد المُخمليِّ.

انعطف نحو شارع أوولوو السفلي وانطلق بسرعة إلى نهايته. قفز خارج السيارة ليفتح البوابة، دافعًا المفتاحَ عبر فتحةٍ بديلةٍ مُؤقَّتةٍ في الحديد السَّميك.

أغلق البوابة خلفنا بعد أن أدخل السيارة.

"لن يستغرق الأمرُ أكثر من دقيقة،" قال، وركض إلى الداخل، مُغلِقًا بابَ السيارة.

نظرْتُ حولي. انقطع التيار الكهربائي، لذا كان الظلامُ دامسًا. عَلا صوتُ المُولِّدات الكهربائية المُدَوِّي من المنازل على الجانبين. ومن إنارة

المنزل المُجاوِر، تمكنت من رؤية الكركديه دموي اللون، وصفوف من نبات البازلاء المحفوظة في أوعية مصفوفة على الجدران.

اندفع الرَّجلُ فجأةً خارجًا من المنزل، ممسِكًا بمظلَّة، مُرتديًا سروالًا قصيرًا كاكيِّ اللون في هذه اللحظة.

"أريدُ أن أُشَغِّلَ المُولِّد. لا أرى شيئًا في الداخل. إنه أحد تلك الهواتف اللاسلكية ولا أعرف أين هو. لِمَ لا تنزلي من السيارة وتساعديني في البحث عنه حتى نمضيَ في طريقنا؟"

"لا. أُفضِّلُ البقاءَ في السيارة. شكرًا."

"لكنَّ البعوضَ سيلدغُكِ. هناك المزيد من الموسيقا في الداخل."

نفختُ باستياء وتركْتُ حقيبتي في السيارة لأُظْهِرَ أَنْ لا نيَّةَ لديَّ ي البقاء لفترة طويلة. كنتُ فُضوليَّةً. فلم أركب في حياتي سيارة مرسيدس. يمتلك أبي سيارة بيجو 504 قديمة، وتستقلُّ أمي الحافلات طوال حياتي. أرادَ جزءٌ مني معرفةَ كيف يعيشُ هذا الرَّجل. أردْتُ أن أرى منزلَهُ من الدَّاخل، ونوعَ المقاعدِ التي يجلس عليها. أردْتُ معرفة إن كان لديه السجاد الكامل الذي تصفه لي صديقاتي في المدرسة غالبًا. رغبْتُ في استنشاق رائحة الثروة وإلقاء نظرة خاطفة على نمط الحياة الذي كنتُ أطمحُ إليه، والرفاهية التي سأعيش فيها لمَّا أكبر وأصيرُ غنية.

بعد أن بدأ المُولِّدُ يهدر بفترة وجيزة، ظهر ثانيةً وتبعْتُهُ إلى مطبخه. أبقى البابَ مفتوحًا لأجلي ثمَّ أغلقَهُ خلفنا. "للحماية،" طَمْأَنني قائلًا.

البلاطُ الأبيضُ يُغطِّي أرضيَّةَ المطبخ. وصوتُ همهمةٍ مصدرها مُجمِّدةٌ كبيرة على شكل صندوق في الزاوية. وطبَّاخ الغاز النظيف بستِّ شعلات؛ لم أر مثله من قبل. حتى سطحُ المنضدة مرصوف بالبلاط، كله أبيض باستثناء

بضع قطرات مما يشبه عصير الكشمش (الزبيب) الأسود.

كانت جدران غرفة جلوسه خضراء فاتحة. صُفَّتْ الأرائكُ المصنوعة من الجلد قشديِّ اللون حول سجادة مربعة الشكل على حوافها أشجار السنط. ووسائد باللون الأحمر القاني في كلِّ مكان.

"انتظري هُنا ريثما أبحث ي غرفة النوم."

عرف أنني كنت أستوعب ما يحدث شيئًا فشيئًا. ربما اتَّضح من ملابسي أنَّ مثلَ هذا الكرم لم يكن مألوفًا بالنسبة لي. جلسْتُ على الأريكة ونظرْتُ إلى شاشة التلفاز الكبيرة. ذهبْتُ إليها لألمسها في البداية ثمَّ لأُشَغِّلَها. لم أستطع تحديد الزر الذي وجب الضغط عليه، فجلسْتُ القرفصاء لأُلقيَ نظرةً على الأشكال. لم أسمعْهُ عندما زحف من خلفي.

"إذًا، ما رأيك ببعض المرح قبل أن تغادري؟" كان قد خلع قميصَهُ، وإذ بكتلة شَعر مُجعَّدة تتلاشى تدريجيًا كلما اقتربت من سرواله الداخلي القصير.

غطيْتُ عينيَّ. شعرْتُ بلهجةٍ لا هوادة فيها في نبرته. تكدَّرْتُ وبدأ دقَّاتُ قلبي تتسارع.

"هيَّا، لا تُضيِّعي الوقت. أليس هذا ما جئتِ لأجله؟ أتظنين أنني لا أعرفُ أمثالَكِ؟ جئتِ طلبًا للجنس فقط. أليس كذلك؟ تريدين أن أُضاجعَكِ!"

"لا يا سيدي. أريد فقط أن أذهب إلى المنزل. لا أريد أيَّ شيء آخر، يا سيدي،" تأوَّهْتُ قائلةً.

مدَّ يدَهُ إلى أعلى ووصلَتْ قبضتُهُ إلى العظمِ في خدِّي. ترنَّحْتُ. منعني الكرسيُّ الخشبيُّ خلفي من السقوط على الأرض. استعدْتُ توازني ثانية

ووقفْتُ باستقامة. غطَّيْتُ وجهي بيديَّ وانفجرْتُ بالبكاء. "أرجوك، يا سيدي. ارحمني. لا أريد شيئًا آخر؛ أريد فقط أن أذهب إلى المنزل." صحْتُ باكيةً، غير أني كنتُ أعلم أنْ لا أحد يسمعني. سمعْتُ صوتي بالكاد من بين ضجيج المُولِّدات.

اقترب مني ودقَّ كتفَيَّ ببراجم أصابعه. سقطَتْ ذراعايَ إلى جانبَيَّ مثل جذوع الأشجار وسقطْتُ على ركبتَيَّ من فرط الألم. أمسك خصلةً من شَعري، وجَرَّني إلى غرفة نومه، وألقى بي على السَّرير. صعد فوقي لكنني ثبَّتْتُ ساقَيَّ ببعضهما بإحكام ورجَوْتُهُ أن يتوقَّفَ. انزعج من مُقاومتي له فجذب وسادةً ووضعها على وجهي. تيقَّنْتُ أنني سأموت لأنني لم أتمكن من التنفس. سمعْتُ دقَّات قلبي تتباطأ. ضعفَتْ ذراعايَ ولم أتمكَّنْ حتى من خدشه بأظافري. عندما رفع الوسادة عن وجهي أخيرًا ووضعها إلى جانبي على السرير، كانت لديَّ قوة بالكاد تكفيني لأتنفس؛ أُصِبْتُ بالشَّلل.

"إذا كنتِ لا تريدين أن تموتي، فاستلقي دون أن تتحرَّكي وباعدي بين ساقَيْكِ!" صاح بصوتٍ عالٍ.

رأيْتُ وميضَ اليأسِ في عينيه. هل هذا هو الرَّجلُ الذي ساعدني وأبعدني عن المطر؟ كانت تلك آخر أفكاري قبل أن أفقد الوعي.

سكنَتْ رشَّةٌ من الماء المُثلَّج على وجهي، واعتقدْتُ للحظة أنني عدْتُ إلى جانب الطريق. ثمَّ شعرْتُ بألمٍ عميق في أُرْبِيَّتي (ما بين فخذَيَّ). ثمة بللٌ بين فخذَيَّ. انفجرْتُ بالبكاء. ما الذي فعله بي؟

"لا تُبالِغي. فالأمر ليس بهذا السُّوء. اذهبي إلى المرحاض ونظِّفي نَفْسَكِ. تأخَّر الوقتُ، وعليكِ أن تكوني في المنزل." خفت صوته مرة أخرى ولان.

استجمَعْتُ كلَّ قوَّتي، وتعثَّرْتُ عبر الباب المفتوح. كان انعكاس صورتي

في المرآة فوق المِغْسلة أول ما رأيْتُ. لمسْتُ وجهي، ممتنَّةً أنَّ التَّورُّمَ غير ملحوظ. ما أَمِلْتُ أن أدَّخِرَهُ لزوجي انْتُزِعَ مني، وكل ما يمكنني إظهاره له هو ألم مبرح وشعر أشعث. وعندما وضعْتُ يديَّ على صدري، لأُغلقَ أزرارَ قميصي، أحسسْتُ بطراوةٍ في ثديَيَّ. اختلسْتُ النظر فوجدْتُ آثار أسنان باهتة في كلِّ مكان.

وُضِعَتْ لفَّةُ ورقِ المرحاضِ فوق كومةٍ من المجلّات. كشف مُحيطُ الورق المُقوَّى عن ساقَيْنِ مفتوحتَيْن لامرأةٍ عارية. بلَّلْتُ المنديلَ الورقيَّ ومسحْتُ به خطوط الدَّمِ على فخذَيَّ. لاحظْتُ أنَّ تنُّورَتي قد زُمَّتْ عند خاصرتي، فأطلقْتُ حاشيتها وكوَيْتُها براحَتَيَّ المُبلَّلَتَيْن.

رقص الرَّجُلُ في مقعدِهِ وغنَّى مع الموسيقا بين نفخات سجائره. توقَّفَ المطرُ. أسرعَ في طريق أويو المتجهة نحو أغبو. حدَّقْتُ عبر النافذة، طوال الرحلة، مُحاوِلَةً مصالحة الشخص الذي أنا عليه الآن بالفتاة التي وقفَتْ تحت شجرة تفاح النجمة الأفريقية بردانةً ومُبْتلَّة. التقطْتُ وجهي في المرآة الجانبية. مَنْ أنتِ؟ سألْتُ نَفْسي.

قال وهو ينقر أطراف أصابعه على عجلة القيادة: "يجب أن تبتسمي."

"أَنْزِلْني هُنا. سأمشي إلى المنزل." كنا أمام بوابات الجامعة، على بعد ثلاثة شوارع من شقتنا. أردْتُ قليلًا من الوقت لأتمالك نفسي، قبل أن أُواجِهَ عائلتي.

"أعني ذلك. يجب أن تكوني سعيدة. فأنتِ امرأةٌ الآن. يجب أن تشكريني." أوقف سيارته بالقرب من الرصيف.

"شكرًا لك،" قلتُ مُغمغمةً بينما كنت أتسلَّقُ المقعد الأمامي. لم أعرف ماذا أقول. لم أنظر إليه مرة أخرى؛ فلم أكن أريد أن أتذكَّرَ وجهه، عينيه،

حنكه. أردْتُ أن أنساه. مشيْتُ بخفة قدر استطاعتي واختفَيْتُ في زحام بائعي الموز.

في المختبر، أيقظَ مشهدُ دمي الذي يُلوِّنُ المِحقنة ذكرياتِ غرفةِ العمليَّات. لقد كان أكثر من مجرد كوخ - ألواح متلاصقة ومُغطَّاة بصفائح حديدية مُمَوَّجة. لم يكن ثمة سقف، لذا كان للشمس تأثيرها السلبي. انحنى سيغَنْ فوقي، ممسِكًا بيدي. كان عصبيًّا؛ استمرَّتْ يده في الولوج إلى الجيب ناحية صدره بحثًا عن منديل لم يكن موجودًا هناك.

"تعرفين أنَّ من الأفضل القيام بهذا هُنا، أليس كذلك؟" حاول سيغَنْ أن يُؤازرَني، داعيًا الآلهة أنه يجيب الأسئلة التي تطرحها عينيَّ. "خطرُ أن يراكِ أحدٌ في أيِّ مكانٍ آخَر عالٍ للغاية. لا سمح الله أن يتعرَّف إليَّ أحدُ أصدقاء والدي. ماذا عسايَ أقول عمَّا أفعله في المستشفى؟ مع امرأة!"

"هذا المكانُ جيد،" قلتُ. لم أكن أريده أن يظنَّ أنني غيرُ ممتنَّة. لا أعرف ماذا كنتُ سأفعل لو لم يكن حَسَنَ التقدير ولم يُحضرني إلى هُنا. لا يهمُّ أنه كان يُضاجعني، لذا أفزَعَتْهُ فكرةُ أن يكون الطفلُ في أحشائي طفلَهُ. حدثت الأمور بيننا بسرعة. قال إنه يريدني وأنا مَنَحْتُهُ نَفْسي. فالعاطفة التي أبداها لي كانت كل شيء.

"بالطبع هذا المكانُ جيد. فأنا أقوم بهذا الفعل منذ خمسة وعشرين عامًا. فإن كانت كلُّ نساءِ أبيكارا راضياتٍ عن خدماتي، فلا بدَّ أن تكوني مُطْمَئِنَّة أيضًا." كانت القابلةُ تتسكَّعُ في معطف المختبر الكبير الذي ترتديه. تمسك في إحدى يديها وعاءً معدنيًّا، وفي الأخرى أداةً من الفولاذ المُقاوِمِ للصَّدأ. ثمة قطرات من الدم على قفازيها، وخنصرها اخترق المطَّاطَ.

"يا سيد، عليك أن تغادر الآن. انتظر في الخارج، من فضلك."

مسَّ سيغَنْ ذراعي برفق وهو يمشي بعيدًا حتى باتت أطراف أصابعنا هي الأجزاء الوحيدة من أجسادنا التي تتلامس. كان مفعولُ المُخدِّرِ سريعًا. نمتُ ووجهُ سيغَنْ أمام عينيَّ.

حلمْتُ أنني كنتُ على متن السَّفينة الدَّوَّارة، وكان ذلك غريبًا؛ إذ لم أر واحدة من قبل، إلَّا على شاشة التلفاز. جلس غريبٌ بأنشوطة تلفُّ عنقه عن يميني. وعن يساري، جلس رجلٌ بغطاء وسادة على رأسه. بدا الأمرُ كما لو أنَّ القدرَ يُطوِّقُنا فبينما عَلَت السَّفينةُ وانخفضَتْ، انحدرت وصعدت، سيطر علينا الخوفُ ذاته، وتوسَّلْنا جميعًا ليُطْلَقَ سَراحُنا. فجأةً، بدأ الرَّجلُ؛ على يميني، يضرب رأسَهُ بالواقي المعدني الذي يُثبِّتُنا في المكان في حين أنَّ الرَّجلَ على يساري يكزُّ على أسنانه بلا هوادة. قرعْتُ بعض الأحاسيس إلى كليهما، غير أنَّ قضبانًا حديديَّةً ظهرَتْ من العدم وثبَّتَتْ ذراعيَّ بجانبي. ولم أستطع تحريكَ أيٍّ من أطرافي. "أرجوكم، أطلقوا سراحي! أعدكم بأن أصبح قوية!" صرخْتُ. لم أعرف لِمَ نطقْتُ تلك الكلمات. فقد كانت بلا معنى بالنسبة لي.

لم أنزل من السَّفينة الدَّوَّارة أبدًا. بدلًا من ذلك، فتحْتُ عينيَّ فوجدْتُ سيغَنْ يحملني بكل ثقل جسده، صدره فوق صدري. أمكنني رؤية القابلة، بطرف عيني، وهي تمسح الأداة الفولاذية الشبيهة بالمنقار بالقطن الطبي والماء الملطَّخ بالدم. انهمرت الدُّموعُ على وجنتيَّ وفي أذنيَّ. تسارعت ضرباتُ قلبي وعطشْتُ بصورةٍ لا تُحتمَل.

عندما حاولْتُ الجلوس باعتدال، توقَّعْتُ أن تكون ذراعايَ مربوطتان بطاولة الفحص، لكنهما كانتا كما هُنا دائمًا: طليقتان. كانت هناك قطرات من الدم المخفف في كل مكان. وحشَتْ المرضةُ قطعةً من القطن الطبي في

ملابسي الداخلية؛ بدا مثل شَعْرِ عانةٍ أبيض. ساعدني سيغَنْ في الصعود إلى الجزء الخلفي من سيارته الهوندا التي اشتراها له والده في عيد ميلاده الحادي والعشرين. أسند رأسي بحزمة من المناشف الصحية التي اشتريناها في طريقنا إلى الممرضة. "ابقي منخفضة حتى لا يراكِ أحد. سأقود سيارتي إلى مكان هادئ لترتاحي لمدة ساعة تقريبًا. ليس هناك الكثير من الوقت. ستعود أمُّكِ من عملِها قريبًا. تذكَّري، لا أستطيع أن أُوصِلَكِ إلَّا عند التقاطع؛ عليكِ أن تسيري إلى المنزل بمفردك."

في مختبر التشخيص، أودعَت الممرضةُ دمي في زجاجات عيِّنات الدم المُعنونة. تسبَّبَت الدُّموعُ في ألمٍ في الجزء الخلفيِّ من عينيَّ، لكنني كنتُ مُصمِّمَةً على ذرفِها في غرفة نومي بأمان. غابت الدُّموعُ بمجرد أن أدفأت الشمسُ مقدِّمةَ رأسي. كيف لي أن أتماسكَ ومصيري مُعلَّقٌ أمامي كأشجار المانجا التي يُضرَبُ بها المثل؟ "اسمعني،" قال الملك، "تمنحُ أحشاءُ هذه المانجا الصفراء الكبيرة الحياةَ الأبديَّةَ. ولكن، حذارِ! للشجرة جذورٌ مسمومة. وحدهم الأقوياء والشجعان من يأكلون المانجا ويعيشون." ولكن، هل يمكن لأيِّ إنسانٍ أن يتباهى بالقوة والشجاعة قبل أن يتناول المانجا ويعيش؟

الفصل الثالث عشر

إيا فمي

"رحل والداكِ،" عمّي؛ شقيقُ أبي الوحيد، هو الرجل الذي تفوَّهَتْ شفتاه بهذه الكلمات. عيناهُ محتقنتان بالدم ومتورِّمتان. عاش معنا لأطول فترة يمكنني تذكُّرُها. عندما ذهب أبي إلى أعماق الغابة ليصطاد لحوم الحيوانات البرية، كان هو الذي اعتنى بي وبأمي. لم تكن أمي في حاجة إلى رعاية. كلما خرج أبي من المنزل، جلسَتْ أمي على الشرفة ونسجَتْ السِّلالَ حتى يعود. قال كثيرون إنَّ موتَهُما معًا كان من رحمة الله بهما.

"إلى أين؟" سألْتُ. لم يذهب والداي إلى أيِّ مكان دون أن يُخبراني. استدعى الأمرُ بكائي.

"توفيًا." هزَّني عمّي من كتفَيَّ كما لو كان يريد أن يضمن أنَّ كلماته التي نطقها انغرزَتْ في بطني. قاومْتُ أصابعَهُ. قفزْتُ في الهواء، مستهدفةً الجدارَ بجبهتي. تطلَّبَ الأمرُ ثلاثةَ رجالٍ بالغين لتثبيتي.

لا بدَّ أنَّ أحدًا وضع لعنة عليهما. لم يُحبَّ الناسُ في قريتنا رؤية الآخرين على ما يُرام. "وإلَّا لِمَ ينزلق جذعُ شجرةٍ من شاحنة ويسحقهما على

طريقٍ سَلَكاهُ يوميًّا؟" كان هذا هو السُّؤال الذي طرحْتُهُ على المُشيِّعين الحائرين الذين جاؤوا لتقديم واجب العزاء. كان والدايَ طيِّبَيْنِ ومُجدَّيْنِ في العمل. بُنِيَ منزلُنا من قوالب إسمنتية؛ قال أبي دائمًا إننا نستحقُّ أن نعيشَ كالملوك.

دُفِنا على الطريقة الإسلامية في يومِ وفاتِهِما. كنتُ طفلتَهُما الوحيدة، لكن لم يُسمَحْ لي برؤيتِهِما. حرص الرجال على إخفاء جثَّتيهما عني، غير أني رأيْتُ خطوطًا حمراءَ على قطع القماش البيضاء التي رُبِطا بها. تسرَّبَت الدِّماءُ من رأسَيْهما المُهشَّمَيْنِ أثناء إنزالِهِما إلى الأرض. Kai! يا لها من شهية مُفزِعة لهذه الأرض التي نسير عليها! إنها تلتهم الدِّماءَ والعظامَ بحماسة، مهما كانا صالحين.

"وجَدْنا لكِ عملًا في إيبادان." لم يتحلَّ عمِّي بالشَّجاعةِ ليقولَ هذا في وجهي، لذا أرسلَ بدلًا من ذلك السَّاحرةَ الكريهة التي كان يُغازلُها. كَرِهَتْها أمي؛ كانت تقول إنَّ هذه المرأةَ مُصابةٌ بمرضٍ في العين: إذ أرادَتْ الحصولَ على كلِّ ما تراه.

"لا أريد الذهاب إلى أيِّ مكان. أريد أن أبقى في أوكِغبو حيث دُفِنَ والداي. هذا منزلي."

"امسحي عينيكِ،" قالت وهي تُمرِّرُ لي خِرقة. "مَرَّ شهرٌ على وفاةِ والدَيْكِ. هذا ليس منزلَكِ ولن يكونَ أبدًا." لا يمكن للبنتِ أن تَرِثَ منزلَ والدِها، فالجميعُ يُصلِّي لها أن تتزوَّجَ وتجعلَ من منزلِ زوجِها منزلًا لها. هذا المنزلُ، وكلُّ ما فيه، ملكٌ لعمِّكِ الآن. هذه هي الحالُ."

"كلُّ شيءٍ مُلكٌ لعمِّي؟" بدا الأمرُ كما لو أنَّ السَّاحرةَ ضربَتْ صدري بقبضتِها. لو كانت في حوزتي سكِّينٌ، في تلك اللحظة، صدِّقوني، لحزَزْتُ بطنَها وفتحْتُهُ على مصراعيه.

"أجل، لعمِّك. ماذا ستفعلين بهذا المنزل على أيِّ حال؟ لا يمكنكِ أن تعيشي هُنا بمفردكِ. حتى جدَّتُكِ قالت إنَّ من الأفضلِ لكِ أن تُغادري."

إنَّها تكذب. فقد رأيْتُ جدَّتي (أمَّ والدي) في طريقِها إلى السُّوق. نصف عمياء. اتَّضَحَ من الطريقة التي تمشي بها، وتُحَيِّي المارَّةَ بحَذَرٍ شديد، أنَّ أحدًا لَمْ يُخبِرْها بوفاةِ ابنِها. لو عرَفَتْ لَقتلَها الخبرُ، ولأُعِدَّتْ جنازةٌ أُخرى باهظة الثمن.

"إذًا، ستعيشين أنتِ وعمِّي هُنا وتستخدمان كلَّ مُتعلِّقاتِ والدَيَّ؟" اعتمرَ عمِّي قُبَّعةَ أبي عند الدَّفن.

"اذهبي واحزمي أمتعتك. سيأتي الأشخاصُ الذين ستعملين لحسابهم لاصطحابِكِ هذا المساء."

"لا أصدِّقُ أنَّ عمِّي سيفعل هذا بي وهو يعلم كم رغب والدي بأن أرتاد المدرسة! أراد لي أن أتعلَّمَ. بابا، هل تسمعُني؟ أيُّ نوعٍ من المصائب هذه التي حلَّتْ بي؟ وضعْتُ يديَّ على رأسي واستحضَرْتُ روحَ أبي.

"اسمعي ما تقولين. أفسدَكِ والداكِ بالدَّلال. تزحف اليرقات أسفل جلدِكِ. وجد لكِ عمُّكِ منزلًا وعد أصحابُهُ أن يُرسلوكِ إلى المدرسة إذا أحسَنْتِ التصرف، ولكن كلُّ ما يمكنكِ التحدث عنه هو المصيبة التي حلَّتْ بك. لم يتذوَّقْ كثيرٌ من الناس الأكبر منك سنًّا الحياة الحلوة التي استمتَعْتِ بها مذ وُلِدْتِ. لا بدَّ أنَّ والداك يشعران بالخزي."

لا أعرفُ متى وكيف عثرت أسناني على أذنها، لكنَّ أسناني رفضَتْ أن تُرْخيَ قبضتَها، حتى مع نزول الدَّمِ من شحمةِ أذنِها في فمي. سمع عمِّي النَّحيبَ من المكان الذي كان مختبئًا فيه، وركض لإنقاذها، غير أنِّي تيبَّسْتُ حولَها. كسرَتْ يدُ الهاون التي استخدمها عمِّي ليطرق بها فمي ويفتحه على

آخره إحدى قواطعي الأمامية. لم أكترث لما حدث. فنصف ضرس لا يُقارن بنصف أذن. ستفكِّرُ مرَّتين قبل أن تتحدَّثَ بسُوءٍ عن والدَيَّ مرَّةً أخرى.

عندما حضرت المرأةُ لاصطحابي، أخبراها بحماسٍ أنَّني حيوان جامح. قالا لها أن تراقبني خشية أن يدفعني جنوني إلى قضم لحاء أشجار الحيِّ.

"لا توجد أشجارٌ كثيرة حيث نعيش،" قالت المرأةُ. "وإذا كانت الأشجار كثيرة، فستكون مشغولةً جدًّا في كَنْسِ الأوراق أسفلها."

وبينما أَقَلُّوني بعيدًا، نظرْتُ نظرةً ساخطةً في وجه عمِّي، عبر النافذة الخلفية، ولعقْتُ شفتَيَّ. كان يجب أن يعرف أنني سأعود ذات يوم، غير أنَّ هذه هي مشكلة الأشرار. ينسون أنَّ العالَمَ متقلِّبٌ، كالنَّاسِ فيه. كنتُ طفلةً مُدلَّلَةً بالفعل، لكنني لم أكن فاسدة. وعلى الرَّغم من أنَّ أمي كانت تغسلُ لي كلَّ ملابسي، لم تكن هناك تنازلات عندما يتعلَّق الأمرُ بطهو الطعام. كانت تدقُّ رأسي بالملعقة الخشبية لو كانت الأمالا رخوة جدًّا أو كثيفةً جدًّا. لذلك أمضيْتُ ليالَي عديدة أعالجُ جبهتي المتألمة. تعلَّمْتُ في منزلِ آيدِغْبي كيف للصُّودا أن تلسع الإصبعَ وتُحَجِّرَ راحةَ اليد.

ما أن وصَلْنا إلى إيبادان، حتى انتزعت المرأةُ مني حقيبتي، ووضعت في يديَّ فستانين، وأخبرَتْني بأنَّ عليَّ أن أناديَها "جدَّتي". قالت إنَّ أطفالَها فقط هم من ينادونها "ماما" وأنَّ مكانتي أدنى من مكانتهم لدرجة كبيرة حتى أقلِّدَهم. "هاكِ،" قالت، "ترتدي الخادماتُ في المنزل الزي الرسمي." أَرَتْني مساحةً صغيرةً أسفل الدَّرج وأشارَتْ إلى سجادةٍ مرصوصةٍ تحت ثلاثة ألواحٍ خشبيةٍ. "ستنامين هُنا. أُحَذِّرُكِ، لا أريد رؤيةَ أيِّ إشارةٍ تدلُّ على أنَّ أحدًا نام هُنا عندما أنزلُ في الصَّباح. سأحرقُ كلَّ ما ليس في موقعه. حتى لو عنى ذلك أن تتجوَّلي عاريةً."

خدمْتُ عائلةَ آيدِغْبي لمدة خمسة عشرة عامًا. خدمْتُ "جدَّتي" وزوجَها؛ خدمْتُ أطفالهما وأطفالَ أطفالهما. منذ أن وصلْتُ إلى هناك، كنتُ خادمةً في المنزل، ولم تتغير منزلتي. سلبوني سنوات عمري المُثمرة، كانوا يعاملونني كما لو عثروا عليَّ في حفرة مرحاض طوال الوقت. كانت جدَّتي تصفعُني لو سقَطَتْ قطرةُ زيتٍ من المغرفة على موقد الطَّبخ. وإذا لم أستجِبْ لندائها من المرة الأولى، حَلَقَتْ كلَّ خصلةِ شَعْرٍ من رأسي. وإذا استغْرَقْتُ في النَّوم، فستجرحني بالشَّفرةِ في جميع أنحاء جسدي، وتفرك الجُروحَ بمسحوق الفلفل الحارِّ. ذات مرة، عندما رأتني أتحدث إلى البوَّاب، جرَّدَتْني من ملابسي، وفركت الفلفلَ الحارَّ بين فخذَيَّ، وطرَدَتْني خارج المنزل مدة يومٍ كامل. لم تتذكَّرْ حتى أنني في الثامنة عشرة من عمري، بصدرٍ عامرٍ بثديين مُكتنزين، وفخذَيْنِ غاصَّيْنِ بالشَّعر.

كان تونده؛ الابنَ البِكْرَ لجدَّتي، أول من زحف بين ساقَيَّ. لم يُسْمَحْ لي بأن آوي إلى فِراشي في الليل إلَّا بعد أن يعودَ كلُّ مَنْ يعيشُ في المنزل إليه. كنتُ أغفو على السُّلَّمِ أثناء انتظاري. في هذه الليلة بالذات، جاء مخمورًا كعادته. قال إنه أمضى ليلةً سيئة وأنَّ عليَّ أن أرحَمَهُ وأَدَعَهُ يُضاجعُني. لم أصرخ مثلما فعلَتْ بناتُ جدَّتي عندما كنَّ يُحضِرْنَ الرِّجالَ إلى المنزل في فترة ما بعد الظهر الحارَّة؛ كنتُ أستلقي بهدوءٍ مُخْفِيَةً الوجعَ تحت جلدي. وعندما ينتهي، يعانقني ويخبرني بأنَّ جسدي جديرٌ بدفع المال لأجله.

"لا أعرف ما الذي تفعلينه هُنا،" قال وهو ينظف نفسَهُ في مغسلة المطبخ. أفرغ قليلًا من المُنَظِّفِ في راحة يده وفرك قضيبه بأطراف أصابعه. ثمَّ ربَّتَ على شَعْرِ عانتِهِ بقماشة غسل الصُّحون. "لا تخدمي عائلتي ما تبقَّى من حياتِكِ، أليس كذلك؟"

أتذكَّرُ هذه المُحادثةَ لأني كنتُ في الحادية والعشرين من عمري في ذلك الوقت، ومع ذلك لم يخطر في بالي أبدًا أنَّ بوسعي المُغادرة. رغم أنَّ احتماليَّةَ حُصولي على الحرية أثارت حماستي، لكنَّ فكرة الهُروبِ جعلَتْ قلبي يخفق. وبسببٍ من تصرُّفاتي الطُّفوليَّة، قرَّرْتُ أن أمنحَ جدَّتي فرصةً للتَّكفيرِ عن أفعالِها، فذكَّرْتُها أنني أرغبُ في الذَّهابِ إلى المدرسة يومًا ما. شتمَتْني لجُحودي، وصادَرَتْ سجادتي لثلاثة أيام. كانت الأرضُ شديدة البرودة لدرجة أنني لم أعد أذكر هذا الأمر ثانيةً. مع أنَّ كلماتِ تونده كانت تتبادر إلى ذهني، إلَّا أنني حاولْتُ أن أنسى إمكانية المستقبل، أو الزواج، أو الأسرة، أو الحصول على منزلٍ خاصٍّ بي. اقتنَعْتُ أنَّ حياتي هي غسل ملابسِ الآخرين، وطهو ثلاثةِ أطباقٍ متفرقةٍ في كلِّ وجبة طعام، ورعاية المواليدِ (الذين ليسوا من صلبي). كنتُ حمقاءَ إذ اعتقدْتُ أنَّ جدَّتي ستهتمُّ وتمنحني الفرصة لتحسين نصيبي.

لم يعد إليَّ دافعُ الفرار حتى جاء اليومُ الذي أرسلَتْني فيه جدَّتي إلى السُّوقِ لشراءِ علبَتَيْ ذرة حلوة. جعلَتْني جدَّتي أقطِّعُ، وأُحمِّصُ، وأقلي منذ الثالثة من صباح ذاك اليوم. كان عيدَ ميلادِ أحد أحفادها، وكان لأعياد الميلاد أهمية عظيمة. عانَيْتُ من التعب بعد كلِّ واحدٍ منها. كانت أطرافي تُوجعني ورأسي تفور لأيام، وثمة أوقاتٌ استغرقني الأمرُ أسبوعًا لأتعافى. لم أدع الجدَّةَ تعرف بهذا مطلقًا. فإن رَأَتْني أستريحُ، عاقَبَتْني.

من الغريب أنها سمحَتْ لي بأن أذهب إلى السوق بمفردي إذ كانت تفضِّلُ أن تتسوَّقَ بِقالَتَها بنفسها. كنتُ أتخلَّفُ عنها بخطوتين وأواجه صعوبةً في حمل الأكياس. وعلى الرَّغم من أنَّ ذاكرَتَها خَذَلَتْها في اليوم السَّابق (حيث وضعَتْ بغباءٍ إشارة فوق الذرة الحلوة في قائمة التسوق التي أَعَدَّتْها

مع أنها لم تشتريها)، كنتُ أنا مَنْ أُرْسِلَتْ إلى السُّوقِ في الشمس الحارقة. لم تسمَحْ حتى لسائقها بأن يصحبني؛ قالت إنَّ مثل هذا التَّرف سيجعلني أطمحُ إلى مكانةٍ تفوق طاقتي. كنت على وشك الانهيار عندما وصلْتُ إلى السُّوق. تحمَّص الجزء العلويُّ من رأسي، وشعرْتُ بالرِّمال الدَّافئة تتسرَّبُ إلى خفِّي من الفتحات فيه.

على أيِّ حال، كنتُ هناك، مسنودةً بواحدٍ من الجدران في سوق بوديجا، حين سألني رجلٌ إن كنتُ أعرف "يسوع." بفضل الفترة القصيرة التي أمضيْتُها في المدرسة الابتدائية لمَّا كان والدايَ على قيد الحياة، عرفْتُ أنَّ "يسوع" ينتمي للمسيحيين. وبما أنه لم يُسمحٌ لي بالذهاب إلى الكنيسة مع جدَّتي وعائلتها، فقد كان غريبًا بالفعل، لذا أجبْتُهُ بـ "لا."

هزَّ الرَّجلُ رأسَهُ، ونظر إلى السَّماءِ ثمَّ إليَّ.

"وُلِدْتُ مُسلمة." لم أطلُبْ تَعاطُفَهُ.

"اسمحي لي إذًا أن أشتريَ لكِ قنينة كوكا كولا، وأُحَدِّثَكِ بما يحصل لأولئك الذين يموتون دون الاعتراف بيسوع ربًّا ومُخَلِّصًا لهم." بحوزته الكتاب المقدَّس مُثبَّتًا تحت إبطه. كان قميصه باهتًا وبنطاله أقصر ببوصتين على الأقل. بدا، هو نفسه، وكأن يستطيع أن يكتفي ببركات يسوع، لذا كنتُ مُتشكِّكَةً في حرصه على إنقاذي، غير أني تأثَّرْتُ بكرمه. شربْتُ أول قنينة كوكا كولا ممتلئة منذ أربعة عشر عامًا، وبقبقت في معدتي. امتدَّتْ حلاوتُها إلى قدميَّ وأطراف أصابعي. تكلَّمَ الواعظُ عن الحب وكلِّ فضائله، لكنني لم أشاهد سوى فمه يرتعش من جانب إلى آخر. ربما شعر أنَّ فكرةَ الحب العالمي سخيفة بالنسبة لي أو ربما لم أستجِبْ لكلماته بالطريقة التي كان يرجوها، إذ أنَّ نبرته تغيَّرَتْ فجأة. أصبحَتْ حازمةً وجادَّة. برزت عيناه عندما

حذَّرني بأني سأذهب إلى جهنم إذا رفضت الجنة استقبالي.

"ولكن، لماذا قد يرفضني الله وأنا لم أرتكب أيَّ خطأ؟" ظنَنْتُ ربما أنني قد وقعْتُ في سحر مجنون.

"كلُّنا خطَّاء، ويَعوزُنا مجدُ الله،" قال.

"ولكن، ماذا عمَّن يخطئ كلَّ يوم؟ ماذا عن الأغنياء الذين يأخذون ويُدمِّرون؟" انتابني الفُضولُ لمعرفة ما إذا كان إلهُهُ مُحابِيًا لجدَّتي لأنها كانت ثرية.

"جهنم!"

"هل أنت متأكد من ذلك؟"

"سيحترق كلُّ الخَطَّائين، يا أختي." توهَّجَتْ عيناه عندما قال "يحترق."

كان في نيته أن يضع مخافة الله في داخلي، لكنَّ فكرة حرق الجدَّة، بدلًا من ذلك، أثارتني. رأيْتُ في ذهني صورًا لجهنم: نيران، وجوهٌ تذوب، أطراف محروقة. عندما طلب مني أن أُردِّدَ صلاةَ الخطَّائين من ورائه، غطَّى صوتُ عويلِ الجدَّة وصرير الأسنان على صوتِهِ. تخيَّلْتُ عمِّي وامرأتَهُ يحترقان في موقدٍ فيه متعلَّقات أبي. كانت تلك الفكرة على وجه التحديد مثيرة.

"مبارك!" صاح. "وُلِدْتِ الآن من جديد. الآن عليكِ أنتِ أيضًا أن تنشري إنجيلَ الأخبار السارة. أضاف اللهُ للتو حجرةً أخرى إلى قصري في الجنة، لأنني ساعدْتُ في خَلاصِ رُوحٍ أخرى." رسم خريطةً لكنيسته على ظهر ورقة دعائية وسلَّمني إيَّاها.

وبينما كنتُ أمشي بعيدًا، قلتُ: "شكرًا لك." سعدتُ لتفهُّمِهِ، ودسَسْتُ الورقةَ في صدريَّتي.

منذ ذلك اليوم وأنا أصلِّي في كلِّ صباحٍ باكر وحتى وقت متأخر من

الليل. أنشأْتُ مذبحًا أسفل الدَّرج ووضعْتُ خريطةَ كنيسة البدايات الجديدة عليه. وإلى جانبها حطَّ كتابُ شُهود يهوه وصور للجنة على الغلاف الأماميِّ. كلما صفعَتْني جدَّتي لشُرودي، كان مريحًا أن أتذكَّرَ التَّرحيبَ بي في جنة عدن الجديدة، في حين أنها مُبعَدَةٌ عن الأبواب الدَّهريَّة ومحكومٌ عليها بالجحيم. الشُّكر للرب.

بعد زهاء شهرين من استقبالي ليسوع، أحرقَتْني جدَّتي بالمكواة لأنني أحرقْتُ أحد قمصانها الحريرية. وبينما كنتُ أفردُ طبقةً رقيقةً من الفازلين على اللحم العاري، قرَّرْتُ ببساطةٍ أنه لا يكفي أن أُنَوِّرَ نفسي بأفكارٍ عن جسدها الذي سيمور في جهنم. ثمة حاجة إلى القيام بشيءٍ أشدَّ. كنتُ أُرتِّلُ لساعاتٍ في كلِّ ليلة: أيها الرب، أرسِلْ الجدَّةَ وعائلتها إلى جهنم، باستثناء ابنها تونده. ما يزال تونده يُسْقِطُ النُّقودَ من بين ثنايا سجادتي. لم أكن متأكدة إن كان يدفع لي مقابل الجنس الذي كنا نمارسه كثيرًا الآن أو إن كان مذعورًا من أنني سأعترف لأُمِّهِ بمواعيد لقاءاتنا الحميمة. لم يكن لديَّ أيُّ وقتٍ لأقصَّ الحكايات على أحد؛ إذ أردْتُ تأدية الكثير من الصَّلوات.

بعد سبعة أيَّامٍ من الصلوات الحارَّة، انزلقت الجدَّةُ في حوض الاستحمام وكسرَتْ ساقَها. تبعثرَتْ فرحَتي الأوَّليَّة حين أدركْتُ أنَّها استغلَّتْ عدمَ قدرتِها على الحركةِ لتُعطيَني المزيدَ من الأعمال. أصبحَتْ عاجزة: فكان عليَّ أن أُحَمِّمَها وأُجَفِّفَ جسدَها كله بمنشفةٍ. هل كان يسوع يُعاقبني؟ أم يدفعني للإمساكِ بزمام الأمور التي منحني إيَّاها؟ اخترْتُ الخَيارَ الثاني وبدأْتُ أُحرِّكُ البولَ وبضع قطرات من ماء المرحاض في كأس الجدة. لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى دخلت المستشفى لإصابتها بالإسهال الحاد. ما أضعَفَ بُطونَ الأشرار! لم يُسمَحْ لي إلَّا بشرب ماء الصنبور طيلة فترة إقامتي هناك. قالت الجدَّةُ إنَّ

من الإسراف أن أشرب من مياه مؤونة العائلة التي كنتُ أغليها وأُقَطِّرُها كلَّ صباح.

كانت هذه هي المرة الأولى، منذ اليوم الذي باعني فيه عمِّي، التي لم تستطع فيها جدتي أن ترسلني في مهمَّات. وسرعان ما بدأْتُ أؤمن أنني أنا أيضًا قد سقطْتُ من بين ساقَيْ امرأة! وبينما أمضى زوجُها وأطفالُها أيَّامَهم بجوارها في مستشفى خاص، كنتُ أتجوَّلُ خارجَ سِياجِنا. كان هناك منزلٌ جديدٌ يُبنى في الشَّارِع المُقابل حيث قابلْتُ بابا ساغي. كان يُزوِّدُهُم باللوازم الصحية (أدوات السِّباكة). بدا قويًّا، ولكن لطيفًا، وهو يعتمر خوذة الأمان الصفراء. قدَّمْتُ له ماءَ الجدَّةِ المَغليَّ الثمين. قَبِلَهُ وشكرني. أحضر لي سلَّةَ برتقال في اليوم التالي. كان تاجو مَنْ سلَّمني السَّلَّة. لم أُضَيِّعْ الوقتَ فأخبرْتُ تاجو أنني أبحثُ عن رجلٍ يتزوَّجني. كنتُ فاقدةً للأمل؛ فلم أرغب أن تجدني الجدَّةُ عندما تعود.

"بابا ساغي هو الشخص الذي يمتلك ما يكفي من المال ليتزوَّجَ العديد من النساء،" هكذا نصحني تاجو. "الشخص الذي أشكو منه كلَّ يوم."

"اجعَلْهُ يتزوَّجني إذًا. أقنعْهُ وسأكون مَدينةً لك إلى الأبد. لا أقارب لديَّ ، فلا أحد يقدِّمُ له التقدير والولاء."

"هل سقطْتِ من السَّماء؟"

"حتى أبعد من السَّماء! انتظر هنا. سأحضر لكَ شيئًا." قسَّمْتُ الأموالَ التي سرقْتُها على مرِّ السِّنين إلى قسمَيْن اثنين، ودسسْتُ إحداها في يد تاجو.

لا أعرف ماذا قال لبابا ساغي، لكنه أدَّى عملَه على أكمل وجه. بعد أقل من أسبوع، جاء تاجو بمفرده في السيارة التي أوقفَها في الشَّارِع المُقابل. انتصف الصَّباحُ، وكان المنزلُ خاليًا من ساكِنيه، لذا كان لديَّ الوقتُ لأحزم

كلَّ ما أريد. قبل أن يصطحبني معه، نظفتُ كلَّ وسائد المنزل باستثناء وسادة تونده. فلم تنتهِ رحلتي معه بعد.

كان أول ما لفت انتباهي في منزل بابا ساغي السَّتائر المُتَّسخة. فقد كانت طبقة الغُبار عليها سميكةً لدرجة أنَّ الجدَّةَ كانت ستجزُّ العُروقَ في عنقي إذا عادت إلى المنزل ورأت ستائرَها مُتَّسخة. إلَّا أنَّ ستائرَها المُستوردة ذات النَّسيج الرقيق لا تكون على هذه الحال؛ فخادمة المنزل ستغسلها بمجرد أن تشعر بقليلٍ من رياح الهرماتان الحمراء الجافة!

كانت جدرانُ منزلِ بابا ساغي مُتَّسخةً أيضًا، وكلُّ شيءٍ قذرًا، لكنَّ الزَّوجتين كانتا الأسوأ على الإطلاق - الضفدعة الهَرِمَة والعنزة الصَّفيقة! الأولى تُسيطرُ على البركة، والثانية تلعب مع ظلِّها طوال اليوم! وكيف تنبعث منهما الرائحة النتنة! لو وددْتُ أن أعاقبَهُما حقًّا، لعُدْتُ إلى منزل الجدَّة على الفور، غير أني قرَّرْتُ أن أرحَمَهُما، خاصة بعد أن أراني بابا ساغي غرفتي. كنت في الثالثة والعشرين من عمري لكنني لم أحصل على غرفتي الخاصة بي من قبل؛ كنتُ أنامُ بين والديَّ حتى يومِ وفاتهما. نظرْتُ إلى السَّرير المُزدَوَج واختبرْتُ نُعومةَ الفِراش براحَتيَّ الاثنتين. سأكون بلهاء إن لم أستلقِ عليه، حتى لو لليلةٍ واحدة. أعرفُ الآن لماذا ينام الأغنياءُ لمدة أطول من الفقراء. عندما استيقظْتُ في صباح اليوم التالي، شعرْتُ وكأنني مُعلَّقَةٌ في الهواء. لكأنني بلغْتُ جنَّتي. حتى الرب ذاته لم يكن ليُجبرَني على مُغادرةِ منزل بابا ساغي بعد ما حدث.

أحضرَتْ إيا توبه وجبة الفطور إلى غرفتي في صباح اليوم التالي. لمسَتْ أصابعُها وجهَ الطَّبق وهي تضعه على طاولة السَّرير الجانبية. كان من

المستحيل أن أتناول هذا الطَّعام. لذا، كلُّ ما فعلْتُهُ، لمدة يومين، هو النوم والاستيقاظ، والاستيقاظ والنوم، كاتمةً آلامَ الجُوع صعبة الاحتمال. في اليوم الثالث، قمْتُ من سُباتي مُدركةً أني سأموتُ إن لم آكل شيئًا. وجدْتُ المطبخَ ونظَّفْتُ كلَّ شبرٍ فيه. طوَّقَتْني الزوجتان في فُضولٍ خافت. أنهيْتُ التنظيفَ في الثامنة مساءً. ثمَّ جلسْتُ أرضًا وتناولْتُ طبقَ البطاطا الحلوة. نظَّفْتُ البطاطا الحلوة وطهوْتُها بنفسي.

أتاني بابا ساغي في تلك الليلة. جلس على سريري وأمسكَ بثدييَّ. ظنَنْتُ بأنَّ الأمرَ برمَّته سيكون مُسلِّيًا إلى أن قفز بين ساقيَّ وحاول إدخالَ قضيبِهِ بالقوة. قلتُ له: "ما زلتُ أرتدي ثيابي الدَّاخليَّة."

لم يكن مثل تونده على الإطلاق. ليس هناك مصٌّ (مَلْجٌ)، أو لعقٌ، أو تمريغٌ، أو تبليل (ترطيب). كان بابا ساغي ثقيلَ الوزن؛ وكلُّ ما يتعلَّقُ به سَمِجٌ وأخرق. يهيجُ ويعزق، ويصُبُّ ماءَهُ فيَّ ثمَّ يقع مغشيًّا عليه فوق صدري. لم يفعل تونده ذلك قط؛ كان دائمًا يهرُّ ماءَهُ على بطني. كنتُ أتطلَّعُ إلى اليوم الذي ستتقاطعُ فيه طريقانا بأمل ولهفة وتلتقي. نظَّفْتُ المنزل لأشهر. عرفْتُ أني سأعثر على تونده في الوقت المُناسب.

سألَتْني إيا ساغي؛ تلك الضفدعة السَّمينة، ذات يوم، إذا شعرْتُ أنَّ إيا توبه تترك أعباءَ تنظيف المنزل كلَّها عَليَّ. كنتُ أُضطرُّ، في بعض الأحيان، للإمساكِ بقبضتَيَّ لأُقاومَ الرَّغبة في سحبِها إلى الفناء الخلفي، وتفريشِ أسنانِها المُصفَرَّة، ومَسْحِ أنفِها، وفركِها وتنظيفِها من رأسِها إلى أخمَصِ قدمَيْها. عندما سألْتُ إيا ساغي ماذا تريد مني أن أفعل حيالَ المعلومات التي أعطتني إياها، رفعَتْ كلتا راحتَيْها وأصرَّتْ أنها أخبرتني بذلك لأنها أَحَبَّتْني.

"شكرًا لكِ،" قلتُ وأنا أحدِّقُ في أمِّ عينيها.

دعني أخبرك الآن، أنا لا أحبُّ الناس الذين يعتقدون أنَّ بوسعهم التَّذاكي عليَّ. اعتادت الجدَّةُ أن تُلقيَ التنانيرَ، وفي جيوبها نقودًا، في سلة الغسيل، لتتهمني بالسرقة. لم أكن بهذا الغباء! ثم تترك صندوق مجوهراتها مفتوحًا وتترك فيه خاتمًا واحدًا. واحدًا فقط! كأنني لا أعرف أنها احتفظت ببقية مجوهراتها في علبة مكياج في خزانة الملابس! أخذْتُ مجموعاتٍ كاملة في اليوم الذي غادرْتُ فيه منزلهم. وأخذْتُ صليبًا ثقيلًا أيضًا. فإذا اعتنقْتُ المسيحية، سأحتاجُ إلى صليب. مع أنَّ أغبى شيء هو ما فعلَتْهُ الجدَّةُ بخصوص لباسي الداخلي. كانت تتسلَّلُ من ورائي وتطلب مني أن أرفع تنورتي لتتمكن من رؤية لباسي الداخلي. كانت تفعل ذلك كلما أبلغَتْها بناتُها عن فقدان ثيابهنَّ الداخلية. لماذا أرتدي لباسًا داخليًّا مسروقًا؟ كانت ثيابُهُنَّ الداخلية مدفونةً في كيس أرزٍّ كبير في حجرة المؤن! أكره الناسَ الذين يعتقدون أنَّ بإمكانهم التذاكي عليَّ.

كانت الضفدعةُ قاسيةً. فقد علَّمَتْني حِيَلًا ساعدَتْني في التَّغلُّبِ على العنزة. "افعلي هذا لبابا ساغي،" كانت تقول. "سيُحبُّكِ أكثر."

"أكثر مما يحبُّكِ؟" سألْتُها.

ثم تُصدِرُ ذلك الصَّوتَ من حنجرتها. نق نق. تمامًا مثل ضفدع.

"لا أعتقد." مع أنَّ فكرة أنْ أصيرَ الزَّوجةَ التي تستطيعُ الحصولَ على أيِّ شيء تُريده من بابا ساغي راقَتْ لي، إلَّا أنَّ الغنيمةَ كانت أقل من ذلك. فقد كان بابا ساغي خنزيرًا ببطنٍ منتفخة؛ لو عرفَتْه الجدَّةُ لوبَّخَتْهُ، ولفَرَكَتْ مسحوقَ الفلفلِ الحارِّ حول فتحته الشرجية.

أتتذكرون حين قلتُ إنَّ ثمة طريقًا أمامنا أنا وتونده؟ حسنٌ، تتبَّعْتُهُ، ذات يومٍ، في طريقه من منزل الجدَّة إلى مكان عمله. وحين رآني أركض نحوه،

انفجر ضاحكًا. ضحك حتى انهمرت الدُّموعُ من عينيه. "برافو!" ظلَّ يصيح. قال أشياء غريبة كثيرة لم أفهمها. اصطحبني إلى فندق ليس ببعيدٍ عن مكان عمله وقال إنَّ استئجار غرفة لمدة ساعتين في فترة ما بعد الظهر يُسمَّى وقتًا قصيرًا. كان من الجيد أن أسترجعَهُ بين ساقَيَّ، خاصة بعد أن أمضيْتُ ليلتين مع بابا ساغي، ذي القضيب الكبير، لدرجة أنَّ رجلين قد يشتركان في قضيبه ويتمتَّعان بفُحولةٍ جامحة.

بينما استخدم قضيبه وكأنه مطرقة، استخدمه كسبَّابة أيضًا؛ حيث ثناه واستدار به حتى لامس جميع المواضع. خلال إحدى جلساتنا القصيرة المتكررة، أخبرْتُ تونده أنني متزوجة من بابا ساغي. لم يَبْدُ مُتفاجئًا على الإطلاق. ابتسم فقط. "سيجعل هذا وقتَنا أحلى،" قال.

ذات ليلة، عندما كان بابا ساغي منشغلًا بضرب إيا توبه، جاءت إيا ساغي إلى غرفتي وأخبرتني كيف وُلِدَ الأطفالُ في منزل بابا ساغي. قالت كما لو أنَّ الحلَّ لا يكمن في الاختيار بل بالضرورة. ابتسمْتُ لنفسي لمَّا غادرَتْ غرفتي. كنتُ حُبلى بالفعل. وبعد ستة أشهر، أتيْتُ أنا وبابا ساغي بفمي إلى المنزل من المستشفى. "إنه كبيرٌ جدًّا بالنسبة لطفل وُلِدَ أبكر بثلاثة أشهر،" سخرَتْ زوجته الأولى قائلة. قلت لها إنَّ للرب طرقًا خفية، وخطفْتُ وليدي من بين ذراعيها.

لا تُسيئوا فهمي. فأنا لا أكره بابا ساغي؛ على العكس، لديَّ أسبابٌ عديدةٌ لأكون ممنونةً له. منحني مكانًا لجأْتُ إليه لمَّا استعدَّ أشرارُ العالَمِ لابتلاعي كلِّي. كما ترون، عندما يدين لك العالَمُ بقدر ما يدين لي، فأنتم في حاجةٍ إلى قاعدةٍ تطلبون سدادَ دُيونكم من خلالها. ولأردَّ له فضلَهُ، عملْتُ بلا كلل لإسعاده. أطهو له وجباته المفضلة بالطريقة التي علمتنيها الجدة. من

السهل إرضاء الناس في هذا المنزل: اطبخ لهم وجبة دسمة وسيعبدونك.

في السنوات التي قضيْتُها في منزل بابا ساغي، لم أنسَ الشر الذي فعله عمي بي قط. كنت أتذكر فعلته كلَّ يوم. يعود الأطفالُ من المدرسة يوميًّا ويتحدثون عن العلوم والرياضيات، ورأسي يغمره الغضب. يستخدمون كلمات مثل "علم الأحياء،" و"الهندسة،" إنها كلمات لا أفهمها. كلمات كنتُ سأفهمها لو أرسلني عمي إلى المدرسة. لو أنه تذكَّر لطف والدَيَّ معه، لاهتمَّ بأن أصير شخصًا أعظم مما أنا عليه اليوم. ولأصبحْتُ غنية وقوية، لا زوجةً ثالثةً في منزل رجل أُمِّيٍّ. حرمني عمِّي من الفرص. والجدة كذلك. لصوص - تلك حقيقتهم! لصوص فرص وحظوظ! لن أستريح حتى ينالوا عقابَهم. يقول الرَّبُّ، في الكتاب المقدَّس: "لِيَ الانتِقامُ." لو كان الرَّبُّ يبتهج بالانتقام، فحَرِيٌّ بي، أنا الرُّوح الفقيرة، التي أساء العالَمُ مُعاملَتَها، أن تبتهج أيضًا. لا بدَّ أن أنتقم. عندئذ فقط سأُسَلِّمُ بوجودِ سببٍ لكلِّ مُعاناتي.

عدْتُ إلى قريتي الأسبوع الماضي. إذا دار في عقلك سؤالُ لماذا، فهذا يعني أنك لم تُصْغِ إلى كلماتي. عدْتُ إلى أوكِغبو؛ اصطحبني تونده. قال إنه يريد مساعدتي في تحقيق أحلامي. أخبرْتُهُ كثيرًا كيف أتيْتُ للعمل عند والدته لخمسة عشر عامًا. تؤثر فيه القصة فيسألني إذا كنت أُمانع أن يذرف دمعةً أو اثنتين. حقيقي بما يكفي، يذرفها، دون أن يتجاوز الدمعتين المتَّفَق عليهما. يقول إنَّ حياتي مأساة جميلة، مع أني لا أعرف معنى ما يقول.

انتظرْتُ في الحظيرة التي بنوها للماعز. عنزتان اثنتان. ها! كانت تلك المساحة لماشيتهم. كادت تقتلني رائحة هذه المخلوقات البائسة، لذا ركلتها حتى مَشَتْ بعيدًا عن أرضي. كان عمي أول من خرج من الباب الخلفي. كان يلفُّ الجرح في خاصرته بقطعة قماش كبيرة. وبينما كان يُحدِّقُ في الغيوم،

نظَّف أسنانَهُ بمسواك وبصق على نحو متقطع. وقد استخدم عصا للمشي. هذا ما يفعله الشَّرُّ: تهرم قبل أوانك. ولم تكن زوجته أفضل حالًا. لمَّا خرجَتْ لتُنظِّفَ أسنانَها، جلسَتْ على قالب إسمنتيٍّ، مُباعِدَةً بين ركبتيها. عيناها مفتوحتان، لكنها بدت وكأنها تشخر. الشَّرِهَة!

بدأ أطفالُهُم بالاستيقاظ، وخرجوا لتحية والديهم قبل أن يبدأوا مهامَّهم المنزلية الصباحية. ذهب أحدهم إلى الحظيرة ليطعم الماعز. ولمَّا لم يجدهما، نثر قشور اليام في جميع أنحاء ساحتي. بدا كوالدي: طويلَ القامةِ وهزيلًا، بمؤخرةِ رأسٍ مُدبَّبةٍ مثل النصف العلوي لبيضة. اسمه ماليك؛ جفل لمَّا رسمع صوتَ أبيه يرعد في أنحاء المنزل. حسَّن عمِّي صوتَهُ في غيابي فأصبح عاليًا.

ذكَّرَتْني رؤيةُ الصبي الصغير أنني لم آتِ إلى هناك لأؤذي أيَّ أحد، أتيْتُ للمطالبة بممتلكاتي فقط. ماذا تفعل عندما يطالبك شخصٌ آخر بما هو لك؟ تُدمِّرُه! تفكِّكُهُ وتُوسعُهُ تدميرًا بحيث لا يمكن إصلاحه من جديد أبدًا. مسَّتْ أصابعي برميل الكيروسين ذا سعة الخمسين لترًا. وَدَّتْ كفِّي فتح الغطاء لكنني انتظرْتُ. كلما طال انتظارُكَ للانتقام، زادَتْ حلاوتُهُ.

وسرعان ما خرج الأطفالُ من المنزل بشرائط حمراء على قماش كاكيٍّ. إذًا، فقد سمح لأطفاله بارتياد المدرسة! ما أظلمَهُ! سالت الدُّموعُ من عينيَّ غير أنِّي كتمْتُها. عمِّي أيضًا، سرعان ما ضرب الطريقَ بنعليه، وفوق كتفه مجرفة قديمة. لا شكَّ أنه كان ذاهبًا إلى أرضيَ الزراعية. وبينما تسلَّلْتُ خارجةً من مخبئي، خفق قلبي بترقُّب. لم تكن هناك حاجة حقيقية للانحناء والاختباء حيث لم نحظَ بجيران. قال والدي إنه بنى منزلنا بعيدًا عن القرية حتى نُحصِّنَ أنفسَنا من أعين الحُسَّاد في هذا العالَم.

سكبْتُ الكيروسين على طول الجدران، بدءًا من الفناء الخلفي. سكبْتُ قليلًا منه على المقعد الإسمنتي الذي كانت أمي تضع عليه سِلالَها. سكبْتُ قليلًا منه على الممسحة التي اعتَدْنا أن نكشط الطِّينَ عن أقدامنا عليها. لم يشترِ الفقراء أو يغيِّروا أيَّ شيء. كان كلُّ شيءٍ كما تركه والدي. رشَشْتُ الكيروسين على كلِّ ما رأيْتُ.

لم تتعرَّفْ زوجةُ عمِّي عليَّ لمَّا فتحَتْ البابَ. "هل تعرفين أنَّ في الكتاب المُقدَّسِ "لا تَمَسُّوا مُسَحَائِي"؟" هكذا سألْتُها.

نظرَتْ إليَّ باهتمامٍ، في البداية، ولكن عندما رَأَتْ عينيَّ تحترقان، تحرَّكَتْ إلى الوراء داخل المنزل. أجابت: "نحن في هذا المنزل مسلمون."

"إنني أخبرك بما يقوله الكتاب المُقدَّس لأنك فعلْتِ ما هو أسوأ من اللمس؛ فأنتِ سحقْتِ مُسَحاءَ الرَّبِّ!"

أقحَمْتُ نفسي عليها وحبسْتُ كلينا في الدَّاخل. وضعْتُ المفتاحَ في صدريَّتي، وسكبْتُ الكيروسين على الملابس في الخزائن، وفي سِلالِ الطَّعام. أفرغْتُ البرميلَ على الأحذية البالية المُكَدَّسةِ في إحدى الزَّوايا. حتى إنني قلبْتُ مواقد الكيروسين على سبيل الاحتياط. استغرق الأمر الكثير لأبتلع ضحكتي (لأمنع نفسي من الضحك)، عندما بدأَتْ تضرب الأرضَ بعنفٍ وتصيح بصوتٍ عالٍ قائلة: "لا تقتليني!" كانت أشبه بـ أنا حمارة (بالإنجليزية). وتلك أقربُ إلى الحقيقة!

ما أسرع أن تشتعل النيران! وبينما هرعْتُ إلى الخارج، رأيْتُ الجزءَ الداخلي من المنزل وقد احترق نصفه. اندلعت النيرانُ عبر النوافذ، وبدا الكوخُ مثل قوقعة سوداء اللون. ظننتم أني قتلتُها، أليس كذلك؟ ذهبْتُ أطلب الانتقام، لا الموت. تركْتُها تخرج من الباب الأمامي، تصرخ وتمزِّقُ

وشاحَها. لم تعرف هل تنادي زوجَها أم تواجه ألسنة اللهب. صلَّيْتُ لتكون أغلى ممتلكاتها مشتعلة بالنار، وإلى الأبد بعيدةً عن مُتناول يدها، ومُهَشَّمَةً أمام عينيها. أسرع بعضُ سكان القرية نحو الوطيس. ركضوا أمامي دون أن ينظروا أيَّ نظرة خاطفة باتجاهي. عندما وصلْتُ إلى نهاية الطريق، كان تونده ينتظرني في سيارته المُكيَّفة. كان يضحك منحنيًا فوق عجلة القيادة. "برافو" قال مُغمغِمًا، عندما التقط أنفاسَهُ.

توندە ليس كمعظم الرِّجال؛ يطلق على نفسه لفظ ماجن. يقول إنه يعيش من أجل الملذَّات الدنيوية. ومن منا لا يحب أن يعيش من أجل اللذة؟ البعض فقط حُرِمَ منها لمدة خمسة عشر عامًا. تضمُّ شفتا توندە سيجارة على الدوام، كما أنه يشرب البيرة حتى يفقد الرؤية. يقول إنه يريد أن يموت أسفل وداخل امرأة لا تكون زوجته. يقول إن السنوات التي قضاها مع أمه جعلتْهُ ضعيفًا، ولو كانت لديَّ الجرأة، لعشْتُ بحرية مثله. إنه مخطئ؛ فأنا لستُ ضعيفةً على الإطلاق. كلُّ ما في الأمر هو أنَّ رحلتي معه لم تكتمل بعد. وفقط عندما يحدث ذلك، سأكون حُرَّةً حقًّا. ولكن لا يمكنني إخباره بذلك.

إنني أنتظر اليوم الذي سيكبر فيه أبنائي، اليوم الذي يقفون فيه بشموخ ويمشون بافتخار. لا أُعامِلُ أطفالي بالطريقة التي تعامل بها الزوجات الأخريات أطفالهن. فأنا لا أضربهم أو أوبِّخهم. لا يعاني أطفالي مثلما عانت أمُّهم؛ سيحظَوْن بحياة خالية من الألم. سيأكلون ما يحبُّون ويغسلون أياديهم عندما يريدون. تعرف العائلة بأنَّ أسرعَ طريقة لرؤية احمرار عينيَّ هي عندما أعود إلى المنزل وأجد أنَّ أحد أطفالي يبكي. يعرفون جميعًا أنَّ

أطفالي ليسوا كغيرهم من الأطفال في منزل بابا ساغي. فلم ينجبهم أحد الرعاع. حرصْتُ على ذلك. يعيش والدهم في منزل به حديقة وموقد غاز. وأمُّ والدهم ثرية ومحترمة. ليس من بين أصدقائها فقراء. ترتدي أفضل أنواع المصاغ الذهبي والدانتيل المُطرَّز بدقة. بذلَتْ قصارى جهدِها لتضمن أن يتزوَّجَ ابنُها الوحيد زيجةً مُعتبرة وأنَّ أطفالَهُ من عائلةٍ طيبة. لا شيء يجعلني أحمد الرَّبَّ أكثر من هذا: أن أدخل منزلها مع أحفادها. سأنظر في أمِّ عينيها وأخبرها أنهم أطفالُ تونده. ثم سأرى ما ستفعله الجدَّة.

تغيَّرت الأوضاعُ في هذا المنزل الآن. كنتُ الأحبَّ على قلبه لخمسة أعوام، وأفضلَ من زوجاته الأخريات، ولم يُخْفِ ذلك في طريقة مُعاملته لي. كان يتظاهر في المساء بأنه مصاب بالحمَّى حتى لا يضطر إلى تحمُّل إيا ساغي. ثم يتسلَّلُ إلى غرفتي في الليل ليكون برفقتي. كما اصطحبني لزيارة أصدقائه. أَحَبَّ طريقة ارتدائي الملابس، لذا كنتُ أنا وحدي من ترافقه إلى الحفلات. أَحَبَّ الطريقة التي أطهو بها الطعام، وأَحَبَّ شَكلي. ومن يقدر ألا يحبني؟ قد أكون في الثلاثين من عمري لكنَّ أطرافي أسرع من أطراف طفل. ليس في معدتي ما يشي بعلامات المخاض؛ وثدياي مكتنزان. الرغبة في عيون الناس كلما سرتُ في الشارع. لم أستطع حتى المشي عبر غرفة الجلوس دون أن يسيل لعاب بابا ساغي، غير أنَّ كلَّ شيء تغيَّرَ في اليوم الذي دخلَتْ فيه القردةُ إلى هذا المنزل.

وجد بابا ساغي قردة تقطعت أسنانها من الحزن ونسي أمري. لا يمكنني قبول الأمر. لن أقبل! كيف لأحد قبول أن يُنَحَّى جانبًا من أجل امرأة تُخزِّنُ أوعيةً مَعيبة؟ دعوني أخبركم بما يجعلني أضحك كثيرًا: في اليوم الذي وضعنا فيه إله الحرب والحديد (ogun) في غرفتها، أعلنَتْ للعالَم أنها ستهب زوجَها

صبيًّا! يا لها من حمقاء! لأنَّ أعظم ما سيخرج منها هراء. تكرهها الضفدعة، لذا لن تخبرها بالسر. العنزة القزم تخافنا، فلن تقول شيئًا. ولن تسمع مني شيئًا. أريدها أن تختفي. أريد أن أستعيد مكانتي، وسأفعل.

بعد ثلاثة أيامٍ من اتخاذنا؛ إيا ساغي وأنا، قرارًا بشأن ما سنفعله، حضرت الضفدعةُ إلى المطبخ. اعتقدْتُ في البداية أنها جاءت لتسوُّلِ الطعام. كان عيدَ ميلادِ كوله وكنتُ أُعِدُّ وليمةً. غمغم الأطفالُ بترقُّبٍ وتساءلوا عن نوع الطبق الذي سأبهرهم به ذاك العام. تعرف الزوجات الأخريات ما تعنيه لي هذه الأيام، لذا يُغادرْنَ المطبخَ ويَجُمْنَ من أجل تناوُلِ وجبة الطعام.

دخلَتْ إيا ساغي إلى المطبخ على أطراف أصابعها. "ماذا تصنعين، يا إيا فمي؟ غادرت الشَّبحُ المنزلَ،" همسَتْ.

"أرز جولاف بالدجاج[13]. جاء بابا ساغي إلى غرفتي الليلة الماضية لكنه لم يلمسني. وقبل أن أُعْطيَهُ طبق السَّمك الأسود الذي أعددْتُهُ له، غرق في نومٍ عميق، أو هكذا أرادني أن أعتقد. "بالنسبة لرجل لا ينام دون أن يشخر،" قلتُ، "لم أسمَعْ أيَّ صوتٍ يخرج من فمه." سحَرَتْهُ تلك المُشعوِذة. إن لم نأخذ حذرنا، فلن ينامَ معنا ما لم يطلب الإذن منها أوَّلًا."

"لا سمحت الآلهة! لن نسمح بذلك! لن نسمح لذلك بأن يحدث. انظري ماذا أحضرْتُ لكِ." مرَّرَتْ لي إيا ساغي كيسًا بلاستيكيًّا صغيرًا عُقِدَ عدة مرات بشريطٍ مطَّاطي.

"إيا ساغي، تمتلكين قلبَ أسد وحكمة سلحفاة. ما من يوم أفضلُ من هذا لتُقَدِّمي ذاك الجرذَ إلى العدالة!"

---

13 أكلة أفريقية شهيرة، وهي عبارة عن أرز مطبوخ بالتوابل الأفريقية، مع قطع الدجاج". م.

"أَخْفِضي صوتَكِ." دقَّقَتْ إيا ساغي النظر من الباب الخلفي. لا بدَّ ألَّا تعرفَ إيا توبه بهذا. من يعرف إلى أين سيقودها ضعفُها؟

"أجل، الأمر بيننا. علينا أن نحسمَ هذا الأمر. وسيعيننا الرَّبُّ."

"أَصْغي إليَّ. ضعي حصَّةَ بولنله خارج باب غرفتها كما نفعلُ عادةً عندما لا تنضمُّ إلينا. وعندما تعود إلى المنزل، مساءً، سنُحَيِّيها كما لو أنَّ كلَّ شيءٍ على ما يُرام حتى لا تشكَّ في أيِّ شيء."

"كم تبلغ سرعة عملها؟ هل سيكون لدينا سبب لنفرح قبل صباح الغد؟"

"قال السيد تاجو إنَّ المُداوي الذي باعه إيَّاها وعد بنتائج فوريَّة. قال إنها جُمِعَتْ من أنيابِ كوبرا. كذب تاجو حين قال إنها من أجل تسكين حياة كلب عليل. وعندما يُحرِّك السم بطنها، سيضطرُّ بابا ساغي إلى اصطحابها إلى منزل أبيها."

"يمكنكِ الاعتمادُ عليَّ، يا إيا ساغي. يجب أن يحصل الأشرارُ على ما يستحقُّونَهُ. هذا ما يقوله الكتابُ المُقدَّس."

بمجرَّدِ أن غادرَتْ إيا ساغي المطبخَ، مزَّقْتُ الصُّرَّةَ باستياء. سيستخدمني الرَّبُّ لغزوِ عدُوِّي. سقطَتْ عباءةُ العدالة عليَّ. ها! أنا مُبارَكة!

باتجاه المنزل

عرفْتُ أنَّ عيدَ ميلادِ كوله اليوم عندما استيقظْتُ هذا الصَّباح، ولكن بدلًا من تهنئة الأمِّ وابنها، تسلَّلْتُ خارجةً من المنزل، وتوجَّهْتُ إلى عيادة التشخيص لأستلم نتائج اختبارات الدم الخاصة بي. في طريقي إلى هناك، اشتريْتُ لكوله سيارة تعمل بالتحكم عن بعد. كانت اللعبة، الموضوعة في صندوق والمُغَلَّفَةُ بورق الهدايا، أثقلَ مما اعتقدْتُ، لذا نقلْتُها من يدٍ لأخرى في كلِّ مرَّةٍ آلَمَني فيها مِعصَمي. لم أرغب، في العودة إلى منزل بابا ساغي بعد. انزعجْتُ من موقف رأس الجرذ، وأحسسْتُ بشُعورٍ انسحابٍ جليٍّ إلى الوطن. قرَّرْتُ أن أذهبَ إلى منزل والدي.

لو لم أكن مُحرَجَة، لزرْتُ صديقاتي، ولو للاعتذار. اختبأْتُ في غرفة نومي عندما أخبرهنَّ بابا ساغي أنَّ حماقتهنَّ ليست موضع ترحيب في منزلنا.

"أليس من الواضح لكِ أنَّ بولنله قرَّرَتْ أن تختارَ الطَّريقَ الأكثر فضيلةً في الحياة؟ عليكما أن تقتديا بها،" قال بابا ساغي. أيُّ امرأةٍ ترغبُ في أن تُعْرَفَ باسم عاهرة؟" انقطع نَفَسُ يميسي وهي تقول ذلك غيرَ مُصَدِّقة.

عندما غادرَتْ توقَّفَتْ عند مدخل الممرِّ وصرخَتْ، "أَخْبِرْ بولنله أنَّ النَّاسَ كالماء. وأنَّ المياهَ ذاتَها التي تفصل بينها الأنهارُ تلتقي في المحيط العظيم ثانيةً. بولنله! هل تسمعينني؟" بكيْتُ بخجل.

ودِدْتُ أيضًا في العودة إلى المنزل خوفًا من الإشاعات. فكَّرْتُ في أنَّ من الأفضلِ ربما أن أخبر أمي، بنفسي، عن الأحداث الغامضة التي تحدث في منزلي. آخِرُ ما أردْتُهُ هو أن تلوم جينات والدي لتدهورِ أخلاقي. أستطيعُ سَماعَها عمليًّا وهي تقول: "لقد أصبحَتْ عاهرةً للمُداوي مثل شقيقتك،" أو، "أنَّها أَظهرَتْ توقًا شديدًا إلى الدم كما فعلَتْ أمُّكِ، قبل أن يُعلِّقَها الرَّبُّ في صدرِهِ لتمنحني الرَّاحةَ."

التقَيْتُ بسيغَن مُصادفةً في سوق دَغْبي قبل أيَّامٍ قليلة، وذكر أنَّ أمي اشتكَتْ من ارتجاجٍ لا يُطاقُ في صدغَيها. لم يُزْعجني هذا الأمرُ كثيرًا؛ حيث أمي تُفرغُ مسحوقَ الأبوكون في فمها كثيرًا عندما كنتُ طفلةً لدرجة أنَّ لارا وأنا اعتقَدْنا أنَّ هذا ما تفعله كلُّ الأمَّهات.

على أيِّ حال، فاليوم يوم عمل. لذا ما لم تأخذ ماما يوم إجازة من العمل، كنتُ على يقين من أنني سأضطرُّ إلى ترك ملاحظةٍ بالشِّفاء العاجل. بتلك الطريقة، يمكنني أن أتجنَّبَ مواكبة التقدم الذي كانت تحرزه صديقاتي الجامعيات في وظائفهنَّ الطَّموحة كمصرفيَّات، وسيدات أعمال، ومُحاضرات، وهي الحياة التي كان ينبغي أن أعيشَها لو لم أتزوَّج بابا ساغي. حسنٌ، لم تتلوَّثْ سُمعةُ أيٍّ من صديقاتي بصورة فظيعة، لذا لم يُزْعجني الأمر. لم أكن أعتقد أنني سأستوعب أيَّ مُحاضرات. لم أكن في مزاجٍ أن أرى إخفاقاتي مُدَلَّاةً أمامي؛ شعرْتُ بالخزي منها، في الأسابيع القليلة الأخيرة أكثر من أيِّ وقتٍ آخَر.

فكَّرْتُ في أنَّ ماما ستكون سعيدةً لأننا لن نُضطرَّ إلى التحدث معًا أيضًا. لم تزرني في منزل بابا ساغي قط، ولكنَّ زائرًا مجهولًا كان يأتيني بغصنٍ من شجرة التمر الهندي، بين الفينة والأخرى، كطعمٍ ليعيدني إلى المنزل في انتظار أن يُريني الرَّبُّ زوجي الحقيقي. على الأقل ما زالت تتذكَّر كم أحبُّ التمر الهندي.

عندما وصلْتُ إلى تقاطع تي، بدا كُلُّ شيءٍ أصغر. الطريق أضيق، والقار تآكَلَ بفعل الفيضانات. لمَّا كان والدُ سيغَنْ على قيد الحياة، اعتاد طلاء الطريق بالقار كُلَّ يناير، غير أنه منذ أن توفي، حذَّرَتْ زوجتُهُ المُستأجرين من أنهم إن لم يتمكنوا من المساهمة بالمال، لوقف التدهور، فمن الأفضل أن يقنعوا بأن يوقفوا سياراتهم عند التقاطع، وينسوا أنَّ طريقَها موجود.

عاش والداي في واحدٍ من ثمانية أكواخٍ مُؤلَّفةٍ من غرفتي نوم على قطعة أرض صغيرة. يفصل سياجٌ طويلٌ المستأجرين عن المالكين، الذين شَغَلوا بناءً متعدد المستويات، مترامي الأطراف، تحيط به روعة البساتين. لكل فرد من أفراد عائلة سيغَنْ، بما في ذلك الأخوات، جناح صغير خاص داخل البناية. كان لجناح سيغَنْ فقط بابٌ يفتح على الحدائق. استخدم الجميعُ المظلة الكبيرة التي امتلأت بالناس من وإلى الباب الرئيس.

مشيْتُ عبر البوابة المؤدية إلى الأكواخ واصطدَمْتُ على الفور بالأعشاب الضارة النامية حول جزء من السياج الذي كان كوخُ والديَّ يستند عليه. بما أنَّ أمي كانت تنظِّفُ المكانَ، مدفوعةً بالتدين، خوفًا من أن ترتبط بالأوساخ، فقد فوجئْتُ برؤية القليل من الأوراق متناثرة حول بابِنا. لم تكن ماما لتسمح بذلك أثناء إقامتي معهم في المنزل؛ كانت ستدعوني إلى غرفتها لتبلغني باشمئزازها من أنني سأواجه مصيرَ أشقاء والدي السفهاء ذاته.

سمعْتُ ضربات قلبي لمَّا طرقْتُ الباب. بدأْتُ بالفعل في البحث في حقيبتي عن مُفكِّرةٍ وقلم حبر بيدٍ واحدة عندما سمعْتُ صوتًا من الداخل. فتحْتُ البابَ وتبعْتُ رائحَةَ البامية المسلوقة في المطبخ. خطوْتُ بهدوءٍ عبر غرفة الجلوس، مُتجنِّبَةً كومةً من الملابس القديمة غير المغسولة لأجد ماما تجلس، مُباعِدَةً بين رجليها، على مقعد منخفض في غرفة المعيشة.

"بولنله؟"

"نعم، ماما." أتتني على حين غرَّة. لم أعتقد أنَّ اسمي سيقفز إلى شفتيها بهذه السهولة.

"لا تنسى أمٌّ خطواتِ ابنتِها أبدًا." كانت تُنَخِّلُ الطَّحينَ في قصعةٍ ذات فوهة واسعة. "أرسلْتُ في طلبك بمجرد أن حدث ما حدث."

"بمجرد أن حدث ماذا؟" اقتربْتُ منها وانحنيْتُ عليها لأعانقها. عندما استدارَتْ نحوي، رميْتُ حقيبة يدي وهدية عيد الميلاد في اتجاهين متعاكسين. بدا الأمرُ كما لو أنَّ جانبًا واحدًا من وجهها قد غمره الزَّيتُ ثم أُضْرِمَتْ فيه النَّارُ. ومن حاجبها الأيسر حتى ذقنها، تدلَّتْ كلُّ قَسَماتها مثل بلاستيك ذائب. كانت عينُها اليسرى تبكي، وفتحة أنفها اليسرى تنزُّ. تدفَّقَ خطٌّ لُعابٍ أسفل الزاوية اليسرى من فمها. "ماما!" غمغمْتُ بينما احتشدت الدُّموعُ في عينيَّ.

"يقول الأطباء إنه شلل بيل أو ربما سكتة دماغية خفيفة. اهدئي. أليس هذا صوتي الذي تسمعين؟ لستُ ميتة. على الأقل ليس بعد." صوتها هو نفسه لكنه أعلى. بدت كلماتها وكأنها تندلق من زاوية فمها بتشويش طفيف.

حاولْتُ ابتلاعَ ريقي غير أنَّ فمي جفَّ فجأة. خشيتُ أن تسمعني وأنا

أبلعه. أطلقَتْ ماما نَفَسًا طويلًا وتطايرَتْ قطراتٌ من البصاق من شفتيها. "أرسَلْتُ شقيقتك إليكِ، لكنها قالت إنها تفضِّلُ الغرق على التوقف قليلًا عند منزل زوجك." لا بدَّ أنها رأت الصدمة على وجهي. "شقيقتك ليست كما كانت. لا، تلك كذبة؛ إنها كما كانت بالضبط." حاولَتْ الوقوفَ إلَّا أنَّ فخذَها اليسرى ارتعشَتْ واهتزَّتْ. "لا مكان لي في تفكيرها؛ رجلٌ تلو آخر. ولا نعرفُ أيًّا منهم سيكون وفي أيِّ وقت." تنهَّدَتْ. "هي تقول أيضًا إنها وجدت لنفسِها زوجًا."

ربما لم يكن مقصودًا، لكنه مؤلمٌ برغم ذلك. "متى حدث هذا، يا ماما؟"

"منذ ستة أيام فقط. كنتُ أكدحُ في العمل، مثل عبد مُسترَقٍّ، كما أفعل دومًا - يجب على الأم أن تستمرَّ في أداء واجبها تجاه أطفالها - عندما أدركْتُ فجأةً أنني لا أستطيع سماعَ ما يقوله زملائي. كنت أرى أفواههم تتحرك لكنني لم أستطع سماع أصواتهم. آخر ما شعرْتُ به كان البلاطَ الباردَ الذي توسَّلْتُ لمديري أن يُغيِّره. يمكنه، على الأقل، استخدام أموال الحكومة التي اختلسها ليجعل محيطه لطيفًا للعين. لا بدَّ أنَّ منزلَهُ قذرٌ أيضًا. على أي حال، عندما استعدْتُ وعيي، وجدْتُ نفسي في سرير في مستشفى الكلية الجامعية. قالوا إنَّ عليَّ البقاء، لكنني هدَّدْتُ بالقفز من الشرفة إن لم يسمحوا لي بالعودة إلى المنزل." نظرَتْ حولها وهزَّتْ رأسَها. "انظري كيف تعيش لارا؛ يبدو المنزل كما لو أنَّ العاهرات استولين عليه. تعرفين كم هي كسولة! حسنٌ، جمعْتُ لها كلَّ الملابس المتسخة لتتصرف. اعتقدَتْ أني سأموت في المستشفى، لكنَّ إليدومير[14] لم يسمح بذلك. إنها عالقة معي." أشارت إلينا

---

14 إله الكون وما فيه. م.

بأن نجلس على الأرائك المصنوعة من قصب السكر. "قال الطبيبُ إنَّ ضغطَ دمي مرتفعٌ بصورة استثنائية. ماذا توقَّع؟ فحياتي غير مستقرة في السنوات الأخيرة".

"يختار الجميعُ طريقه في الحياة، يا ماما." لم أستطع أن أتخطَّى ذاك الأمر، مهما نحل وجهها.

حاولَتْ رفع حاجبيها إلَّا أنَّ حاجبها الأيمن استجاب فقط. يمكنني القولُ إنَّ جرأتي أدهشَتْها. مدَدْتُ يدي لمساعدتها على الجلوس لكنها لم تفعل؛ فضَّلَتْ أن تعرج أثناء سيرها. جلسْتُ أمامها، عصبية جدًّا. كثيرًا ما أثارَتْ ماما أعصابي. عندما كنتُ في المدرسة الابتدائية، كانت رحلةُ العودة من المدرسة إلى المنزل في نهاية الفصل الدراسي عذابًا. كنتُ أعدُّ كلَّ خطوة لأجعلها تستغرق أطول وقتٍ ممكن، علمًا بأني سأواجه ماما. كانت ترشدني إلى المنزل كما لو كنت زائرة وتطلب مني الانحناء مسافة نصف ذراع حتى لا تضطرَّ إلى بذل مجهود إذا ما دعَتْها الحاجةُ إلى صفعي. وبعد مرور نصف ساعة من انتظارها حتى تستوعب كلَّ رقم وتحلل كلَّ كلمة مكتوبة في التقرير، كانت تطويه وتنظر إليَّ بحدَّة. مزَّقَتْني الكلماتُ التي أعقبَتْ ذلك. لأنه ربما كانت ثمة مادة واحدة لم أتفوق فيها على الصف، فكانت ماما تنظر إليَّ من فوق نظارتها وتخبرني بأني لستُ طفلتَها. كانت تقول: "تأتي طفلتي في المرتبة الأولى في كلِّ شيء، لأني لم أُربِّ طفلة بلهاء." في المرة الوحيدة التي اعترضْتُ فيها وقلت بأني حقَّقْتُ المرتبة الأولى في كلِّ شيء آخر، حفرَتْ أظافرها في خلف أذنيَّ ولَوَتْ شحمتَيْ أذنيَّ إلى أن احترقتا. بعدئذ، جلسَتْ معي، وطلبَتْ مني كتابة رسالة لها أشرح فيها لِمَ فشلْتُ في التفوق على الصبي، الذي كان والده إنجليزيًّا، في مادة الأدب الإنجليزي. وبينما أذناي تحترقان،

حاولْتُ معرفة ما أكتبه لأنها أصرَّتْ على أنَّ التفسير الوحيد المقبول هو أنَّ للصبي رأسان. أثناء انتظارها انتهائي من كتابة الرسالة، كانت تنتقل إلى لارا وتجلدها لفشلها الثابت والشامل. ثم كانت تتساءل لِمَ لا تصير لارا مثلي. وسرعان ما تعلَّمَتْ لارا تزييف تقاريرها المدرسية. لم أتحلَّ بالشجاعة. كنتُ أعاني طويلًا. فقد أردْتُ أن أكونَ مثاليةً في عينَيْ ماما. كنتُ أدعو لعودة والدي باكرًا في مثل تلك الليالي، لكأنه عرف ما ينتظره في المنزل. ولمَّا يعود بعد منتصف الليل، يكون مخمورًا فينقذنا من جنون ماما.

قبل أن تقع ماما على الوسائد الموضوعة على أرائك القصب، قامت بما يشبه الرقصة: تميل يساراً، قدم إلى الأمام، يداها على خاصرتيها، تمدُّ ذراعيها إلى أسفل، تقع. خفَّفَت الوسائدُ من آثار سُقوطِها، فربَّتَتْ عليها بامتنان. إنها الوسائد ذاتها التي صنعتها من أجل طقوس العام الجديد في عام 1992، أي قبل تسع سنوات. كنت في السادسة عشرة، وفي السنة الثانية من انعدام الحياة. كانت أمي تحبُّ تغيير شيء واحد على الأقل في منزلنا؛ قالت إنَّ السنة الجديدة لم تكن جديدة حقًّا ما لم نجعلنا كذلك بشراء إبريق ماء جديد أو ستائر جديدة. كانت تزعج والدي، في كلِّ عيد ميلاد، من أجل المال، وكان دائمًا يستسلم في النهاية. ولكن، أنفق والدي كلَّ أمواله، في ذلك العام، على تجديد مخزونه من الجِن. رأينا جميعًا الصناديق الكرتونية في الردهة، غير أنَّ ماما ظلَّتْ تطلب منه الطلب ذاته مع ذلك. وفي الثالث والعشرين من كانون الأول (ديسمبر)، سحبَتْني ماما أنا ولارا حول سوق دَغْبي، وتوسَّلَتْ كلَّ بائعي الأقمشة أن يشفقوا عليها وعلى أطفالها فيعطوها بقايا الأقمشة لتصنع منها فساتين لعيد الميلاد. أمرَتْنا ماما ألَّا ننتعل الأحذية، وأن نرتدي أكثر ثيابنا

رثاثةً. كادت لارا أن تموت من الخزي وظلَّتْ تقول إنها بحاجة إلى المرحاض. لم يزعجني الأمر بتاتًا لأنَّ ثوبي عكس ما أشعر به. قبضَتْ حاشيةُ ثوبي الممزق على مشاعري العميقة بدقة. وقفْتُ إلى جانب ماما، واصطَدْنا معًا كلَّ ما في السوق، حتى حزَمْنا، أخيرًا، قطع القماش الممزقة، في حضنينا، واستقلَّيْنا سيارة تاكسي إلى المنزل.

مذ فتحنا باب السيارة، قرَّرَتْ ماما أنها لن تنام ونحن أيضًا. جعلتنا نقصُّ على امتداد خطوطها المتقلقلة بمقص صدئ بينما كانت تسلك الخيط بعناية في آلة الخياطة القديمة التي جرَّتها من المخزن. وبينما كانت تهتزُّ فوق الإبرة، طلبَتْ منَّا أن نقف خلفَها ونراقب في حين كانت تختلقُ لنا مهمَّاتٍ روتينية سخيفة لنقوم بها. حاكَتْ خيوطَ الحريرِ على النسيج الحريري الصقيل، والبولي إستر على الصوف، والقطن على المخمل، على التوالي، إلى أن نفخَتْ ثماني وسائد مرقَّعة ووضعَتْها في مواضعها. أُجهشَتْ لارا بالبكاء، وكنتُ أظنُّ أنها متعبة. كانت دائمًا أفضل مني في التعبير عن نفسِها؛ أمَّا أنا فكنتُ أقف هناك أصلي من أجل عودة أبي إلى المنزل، وأمسح نظرة التعجرف عن وجه ماما. دخل إلى المنزل مزهُوًّا بنفسه في الواحدة صباحًا. لم يبدُ مخمورًا، بل منتشيًا بعض الشيء. كان منتشيًا إلى درجة أنه ربَّتَ على رأسي دون أن يسألني عن سبب بقائي مستيقظةً إلى هذه الساعة المتأخرة. على وجهه ابتسامة هادئة وفي عينيه غشاوةٌ لامعة.

"ألن تجلس؟" أشارَتْ ماما إلى إحدى الأرائك.

لاحظ بابا الفرقَ على الفور، لكنه ظلَّ جالسًا في مقعده دون أن يُعلِّقَ على حالة الفوضى في غرفة المعيشة؛ تلك التي تسبَّبَتْ فيها ماما.

"تبدو الوسائد مثيرة للاهتمام جدًّا."

مثيرة للاهتمام؟ فكَّرْتُ. ليست فاتنةً، أو مثيرةً، أو مُحرِّكَةً للمشاعر، أو مُغريةً، أو لافتةً للنظر، أو فاتنةً، أو آسرةً، أو جذّابة، أو خلّابةً، أو مُبهِجةً، أو ملفتةً للانتباه؟ ما يثير الاهتمام، بالنسبة لشخصٍ يحبُّ الكلمات، أنَّ تعبيرَ "مثيرة للاهتمام" كان أفضل ما في وسعه التَّوصُّل إليه.

أذهلَتْ لارا الجميعَ حين صاحَتْ قائلة: "لن أتمكن من دعوة صديقاتي إلى المنزل مرة أخرى!" وقفْتُ هناك أستمع إلى أبي يهمهم بسعادة لنفسه. أدارَتْ ماما رأسَها إلى الخلف. لم أُميِّزْ إن كانت تُخفي دموعَها أو تستريح. لا يمكن لأحد أن يُميِّزَ ذلك مع ماما.

"تبدو رائحة البامية كما لو أنها مطبوخة. ألن تساعدي أمَّكِ المسكينة؟ أم أنَّكِ أتيْتِ لتبتهجي بسوء حظّي؟" أعادني صوتُها إلى الحاضر.

اندفعْتُ إلى المطبخ قبل أن تُنهيَ ما تقوله، فارتطمَتْ كلماتُها في مؤخرة رأسي وسقطَتْ على الأرض. لن أتفاجأ إن كانت تسخر مني في غيابي حتى تشعر بإحساس النصر.

"اممم" أطلقَتْ زفرةً لمّا عدْتُ إلى مقعدي. "ربما قرَّرَ الرَّبُّ أنَّ الوقتَ حان ليُريحَني من حزني. ثِقْ وأَطِع؛ إذ لا توجد طريق أخرى لتكونَ سعيدًا بيسوع سوى أن تثق وتطيع." خرجت الترنيمةُ من فمها المنكفئ جانبًا؛ كانت تفتقر إلى اللحن المتناسق والإخلاص. لم تكن أبدًا ممَّن يواظبون على ارتياد الكنيسة. استخدمَتْ ماما الرَّبَّ على هواها.

"لن يأخذَ الرَّبُّ أمانته قبل أن يُريكِ أحفادَكِ. هذا ما تصلِّي من أجله كُلُّ الأمَّهات، أليس كذلك؟" كان ذاك كُلُّ ما استطعْتُ قولَهُ.

"أوه، حقًّا؟ أخبريني، هل تقصدين أن أحفادًا من ذاك المهرج الذي

تسمّينه زوجًا هو ما ينبغي عليَّ انتظاره؟ لأنه إذا كان هذا ما تقصدين، أدعو الله أن يبقيهم في أحضانه.

أفلتَ من فمي كلُّ الهواءِ الذي كان في جوفي.

"كيف تتوقعين مني أن أتشوَّقَ إلى مثل هؤلاء الأحفاد؟ ألم تتساءلي كيف سكت النَّبضُ في قلبي عندما جلبْتِ رجلًا متزوِّجًا لزيارتي؟ أو كم كان طولُ الخنجر الذي غرزه في حنجرتي عندما أخبرنا أنه يغازلك منذ شهور؟ تحت سقف منزلي، يا بولنله! سقفي أنا! كان منزلي يحترق ولم أَشْتَمَّ رائحةَ الدُّخان!"

"كان عليَّ أن أخبركِ بهذا قبل الآن، يا ماما." لم أكن أريد أن أضايقها. اعتقدْتُ أنَّ مرضها سيجعلها تسامحني.

"وها شقيقتُكِ تسير على خطاكِ الآن. ماذا تبقَّى لي لأعيشَ من أجله؟ أتعرفين، أريد من الرب أن يأخذ أمانته حتى أتمكن من النظر في عينيه وأسأله لماذا منحني مثل هؤلاءَ الأطفال الأشرار."

"ماما، لا أريد أن أتشاجر معك."

"حتى لو كذبنا على بعضنا بعضًا كلَّ أسبوع، سيأتي اليومُ الذي سيتعين علينا فيه أن ندقق النظر في أعين بعضنا ونقول الحقيقة. بولنله، إنك أكبر خيبة أمل شهدها العالَمُ. أنتِ معطوبة! تالفة! ومُحطَّمَة!"

سدَّدَتْ ضربتها ببراعة، هذه المرة. فلقد أصابَتْني في نقطة ضعفي. تألَّمْتُ كثيرًا إلى درجة أنِّي رفعْتُ راحتَيَّ إلى وجهي وضغطْتُ حتى خرجت الدموع مثل الصديد من الجرح.

لم تنتهِ من فعلتها بعد. توقَّفَتْ فقط لتلتقط أنفاسَها ثمَّ واصلَتْ ما تفعله. أكان من الصعب عليكِ وعلى شقيقتك أن تُشرِّفاني؟ كلُّ ما طمحْتُ

إليه هو أن تؤدِّيا عمليكما بصورة جيدة. ولكن لا! إنكما تتمنَّيانِ لأمِّكُما أن تموتَ من الحزن. دعيني أؤكِّدُ لكِ يا بولنله أنني لا أجلس هُنا فقط؛ بل إنني أتوسَّلُ للرب في دعائي أن يغفر لي خطاياي، كلَّ يوم، مع أنِّي لا أعرفها. سألْتُ نفسي مليون مرة: ما الخطايا الشريرة التي اقترَفْتُها لأجلبَ إليَّ اللعنات؟ لكن، اسمعي هذا: الطفلة التي تقول إنَّ أمَّها لن تستريح، لسوف يعصف بها الأرق، أيضًا. ثمة عقابٌ للشرور، وسنقف جميعًا أمام خالقنا يومًا ما! أرجَعَتْ ماما رأسَها إلى مسند الرأس.

أبهجَتْها دموعي كثيرًا.

"إنها تبكي الآن. تبكي لكنها لا تفكّرُ في التكفير عن ذنوبها. تبكي غير أنَّها ستعودُ إلى مضاجعته. فما نفعُ هذه الدُّموعِ إذًا عندما - "

"ماما، توقَّفي! أرجوكِ، توقَّفي!"

"أتوقَّفُ عن ماذا؟ هل تصمُّ الحقيقةُ أذنيكِ؟

"أعرف أنني خذلْتُكِ، ولكن ثمة الكثير مما لا تعرفينه."

"لا تقول الحقيقة أبدًا إنه لا ينبغي النطق بها. اسمعي الحقيقةَ الآن واندمي. كافئي أمَّكِ على كلِّ العمل الشاق الذي قامت به من أجلك! بخلاف ذلك، ليس هناك ما ينبغي عليك معرفته!"

لفتَتْ انتباهي حافةُ الجدارِ المكسور. ثمة شقٌّ في الجدار يعلوها، وطابورٌ من النمل يتَّجِهُ نحو قطعةِ خبزٍ ملقاةٍ إلى جانب باب البرَّاد. تمسَّكْتُ بإطارِ كرسيِّ القصب. لامسَتْ حشوةُ الوسائدِ ظَهر يدي. "اغتُصِبْتُ، يا ماما! هل عرَفْتِ ذلك؟ اغتُصِبْتُ عندما كنتُ في الخامسة عشرة من عمري." لم يسبق أن صِحْتُ في أمِّي أبدًا، غير أنِّي سمعْتُ نبرةً حادَّةً لم أتجرَّأْ على استخدامِها من قبل.

"اغتُصِبْتِ؟ ليس هذا الوقت المناسب لتحكي الأكاذيب الشريرة. لا يمكن لهذا الأمر أن يحصل لطفلتي."

احتجْتُ هنيهةً أستجمعُ فيها قوايَ، مُدرِكَةً أنَّها تُراقبني، وتتحدَّاني أن أحكِيَ دون التراجع عن أقوالي أوَّلًا. "أنتِ مُحِقَّةٌ، يا ماما، فأنا معطوبةٌ، وتالفةٌ، ومُحَطَّمَة! أنا كلُّ ما قلتِهِ عنِّي من قبل. تحطَّمَتْ حياتي ولم أعرِفْ كيف أُصْلحها. وما زلت لا أعرف."

"لا!" هزَّتْ رأسَها، من جهة إلى أخرى، نافيةً. وخفت صوتُها إلى أن صار همسًا. "لا يمكن أن تكوني قد تعرَّضْتِ للاغتصاب. ليست ابنتي تلك التي تُغْتَصَب. لم أُربِّيكِ بهذه الطريقة."

"لا أحد يُربِّي ابنته لِتُغْتَصَبَ." أغمضْتُ عينيَّ وأخبرْتُها بما حدث. لم تكن ثمة جدوى من إعفائها من سماع التفاصيل؛ فقد حان الوقتُ لتسمعها. وعندما وصلْتُ إلى الجزء الذي وضع فيه الغريبُ وسادةً على رأسي، انتزعَتْ ماما وشاحَها عن رأسِها، وبدأَتْ تهتزُّ في مقعدها ببطء. لم أتوقَّفْ؛ أردْتُ لأمِّي أن تسمعَ كلَّ شيء. لم أعد أرغب في حملِ تلك التفاصيل وحدي بعد الآن.

دمعة تلو دمعة، تدحرجَتْ أسفل عينٍ واحدة. "لماذا لم تخبريني حتى أتمكن من البحث عن هذا الوحش وقصِّ أعضائه الداخلية؟"

"أردْتُ أن أكونَ ابنتكِ المثالية. لم أكن أريد أن أُخَيِّبَ ظنَّكِ."

"اصمتي، يا طفلتي، أيُّ أمٍّ هذه التي تكره الطفلة التي جاهَدَتْ لإحضارها إلى هذا العالَم؟ آه! حزنٌ عميمٌ هذا الذي يجري في عُروقي." توقَّفَتْ لتمسحَ دموعَها بإزارِها. "هل كنتُ بعيدةً؟ أم صمَّاءَ إلى هذا الحدِّ؟ آه! يا لهذا العالَمِ ومفاجآته العنيفة!"

لم يكن الوقت مناسبًا للإجابة عن تلك الأسئلة. لن أمنحها فرصةَ تبريرِ تصرُّفِها. أردْتُ أن أخبرَها عنِّي. "ماما، كنتِ تعيشين مع هيكلٍ فارغ. كُشِطَ كلُّ ما فيَّ. صار كلُّ ما في داخلي خارجي."

"ألهذا سمحْتِ لنفسِكِ أن يُغْويَها ذلك المهرج؟" رغم ذُهولِها، لم تستطع ماما أن تتجاهل غضبَها على زواجي. لم أتوقع منها أن تفعل؛ فلم يكن هذا أسلوبَها. كانت مُصمِّمَةً على الفوز.

"لم يُغْوِني أحد. كان ذاك المهرِّجُ على استعداد ليتزوَّجني كما كنتُ. لم يسألني أيَّ أسئلة. كما أنَّه لم يعرف لي ماضيًا يُمكِّنه من مقارنة حاضري به. كنتُ تائهةً ولم أرغب في فعل أيِّ شيءٍ في حياتي. كان على استعدادٍ للزواج مني كما أنا. كلُّ ما أراده هو أن أصيرَ زوجته. تخيَّلي كم كان ذلك ساحرًا بالنسبة لي!"

أخبرْتُها بكلِّ ما حدث، باستثناء ما فعلْتُهُ مع سيغَنْ وعملية الإجهاض؛ التي كان من الأفضل عدم ذكرها. أخبرْتُها عن الزَّوجات وجمجمة الجرذ. وأخبرْتُها أنني أزور الطبيبَ لأنني لم أستطع أن أحمل بعد. استمعَتْ إليَّ ماما، ونكَّسَتْ رأسَها، وراقبَتْ وجهي طوال الوقت: الخطوط الصغيرة المتغضنة في زاوية عينيَّ، والتجاعيد الضحلة على الجلد حول فمي. عندما أنهَيْتُ حكايتي، سألَتْني إن كنتُ جائعة. بَدَتْ أكثرَ تَعاطُفًا مما كانت عليه في أيِّ وقتٍ مضى، ولكن مع ذلك، كانت عبارةُ "لقد قلتُ لكِ ذلك" مكتوبةً على كامل وجهها. الأحمق فقط مَنْ يتوقَّعُ تعويضًا. لم تفعل ماما الأشياءَ بتلك الطريقة.

نقعْتُ كلَّ الثيابِ المتَّسخةِ في الماء قبل أن أغادر. وصنعْتُ قليلًا من الإيبا[15]، وعندما جلسْتُ لأسكب الطعام في أوعية منفصلة، أصَرتْ ماما أن

15 طعام أفريقي مصنوع من الكاسافا المجروشة. م.

نأكل جميعًا من الوعاءِ نفسه. لمَّا عدْتُ إلى غرفة الجلوس، بعد غسل الأطباق المتَّسخة، كانت ماما تشخر بهدوء، لذا تفحَّصْتُ غرفةَ نومي القديمة. كانت الفوضى تعمُّ المكان. لماذا توقَّعْتُ شيئًا مختلفًا؟ فلم أكن هناك لأنظِّفَ المكانَ من وراء لارا بعد الآن.

انشقت الصناديقُ الكرتونية التي طويْتُ فيها ملابسي القديمة بعناية. تناثرَتْ بعضُ محتوياتها في جميع أنحاء الغرفة. أمَّا بعضُها الآخَر، فقد انحشر في صناديق أخرى. رسمت شاربين لكل واحدة من نساء روايات ميلز وبون الجميلات. كان أحد دفاتر يومياتي القديمة موضوعًا أسفل السَّرير. لا بدَّ أنَّ لارا دفعَتْ به إلى هناك. ربما فعلَتْ ذلك حتى لا تجده ماما. برغم ذلك كان مُخبَّأً بإهمال. أشكر الرَّبَّ أنِّي منحْتُ النَّاسَ فيه أسماءَ أشجار. التقطْتُهُ ووضعْتُهُ في حقيبتي؛ سأرميه في سلة المهملات وأنا في طريقي إلى الخارج. قبل أن أغادر، منحَتْني ماما حضنًا قويًّا بذراعٍ واحدة. كان ذلك مُحرِجًا لأنني لم أذكر أنها عانقتني بحنان من قبل. بدا أنَّ الألمَ كان دائمًا حاضرًا كلَّما لمسَتْني، لذا فإحساسي بذراعها على ظهري، ودفء وجنتِها تُلامسُ وجنتي، كان جديرًا بالتَّذكُّر.

عندما عدْتُ إلى منزل بابا ساغي في ذلك المساء، لاحظْتُ أنها كانت تلك الفترة الجميلة من الغسق لمَّا امتلأت السَّماءُ بالغيوم البرتقالية كما لو أنَّ فرشاة الرَّسم قد غَسَلَتْها برفق. اعترَتْ خطوتي رخاوة. كان أصدقائي في الجامِعة يمزحون حيال مشيتي المستقيمة، للحدِّ من أدنى اهتزاز مستفز. هذا صحيح. شددْتُ ردفيَّ وأمسكْتُ ركبتيَّ بإحكامٍ معًا، ولكن لسببٍ مختلف. فكَّرْتُ في أنني إذا قوَّيْتُ عضلاتِ فخذيَّ، فسيصعب على أيِّ شخصٍ أن

يُباعد بين ساقيَّ بالقوة كما حدث في أحلامي. دلَّيْتُ ذراعيَّ على جانبيَّ في ذلك المساء. حرَّرْتُ وركَيَّ وبحثَتْ عنقي عن مصدرِ كلِّ صوت، بالطريقة ذاتها التي يفعلها الأطفالُ إلى أن تصفعَ أمَّهاتُهُم مُؤخِّراتِ رؤوسهم ليتبعوا الاتجاه الذي يسيرون فيه. رأيْتُ الحارسَ الليلي يقترب فألقيْتُ عليه التحية قبل أن يصلَ إليَّ. ابتسم لكنَّ ابتسامتَهُ تلاشت بسرعة كبيرة، وخدشَتْ يده الهزيلة رأسًا صلعاء. لربَّما أربكه افتقاري إلى الاتزان؛ فأنا عادة ما أكون متمالكةً لنفسي على نحوٍ رائع.

كانت رائحة نبيذ النخيل الطازج غنية ومُسْكِرة، لذا نظرْتُ في اتجاه الكوخ المُجاور. أردْتُ رؤية اليقطينة الكبيرة الحُبلى تئزُّ بطنين النحل الثَّمِل مثلما ينغمس فيه الشباب، ويغرقون في حلاوته. كانت النساء، اللواتي تحدَّين القيل والقال، متكئات ومتراخيات فوقهم. جلسوا هناك في البعيد، يضحكون ويرتشفون النبيذ من أنصاف القرع. ابتسمْتُ لنفسي، وهرعت، يدغدغني إصبع الحب الشاب، اللعوب.

سمعْتُ الخطوات تقترب مني لكنني تجاهلْتُها. لم أكن أرغب في الالتفاف لأجد بأنها مجرد امرأة فقيرة تهرع إلى المنزل وتمسك إنجيلًا وطفلًا صغيرًا. عدا عن ذلك، فلقد نويت ألا أسمح لشيء أن يقض مضجعي. لم أشعر بمثل هذه الحرية منذ وقت طويل. لم أكن لأتأرجح إلَّا عندما صرخ صوتٌ بلهفة "أرجوك، انتظري."

"مساء الخير، يا ساغي." لم تكن تريد مني أن أُبْطِئَ مسيري؛ بل أرادَتْ أن أتوقَّفَ.

تباطأَتْ قبل أن تصل إليَّ، حاثَّةً إيَّايَ على التوقف. "خالتي، أرجوكِ لا تخبري ماما. ستقتلني."

أطلقْتُ زفيرًا. اختفى ابتهاجي واعتراني شعورٌ بالتعب. لا مزيد من المكائد المنزلية! هل يمكنني تحمُّلُ ذلك؟ "لا أخبرها بماذا؟"

"لا تخبري أمي أنَّكِ رأيتِني في كوخ نبيذ النخيل. ولا تخبري أبي أنَّكِ شاهَدْتِني برفقة صبي." دفعَتْ ساغي أصابعَها في الهواء كما لو أنَّها تنفض البللَ عنها. كانت تثب من قدم لأخرى بفمٍ يلهج بالدعاء.

تعاطف قلبي معها. "لن أنطق بكلمة واحدة." لا بدَّ أنني قد استسلمْتُ بسهولة. إمَّا ذاك أو أنَّها لم تُصدِّقْني.

"أرجوكِ، خالتي بولنله. أرجوكِ. أتوسَّلُ إليكِ، يا خالتي. سأفعل أيَّ شيء."

"إذًا، تريدين أن تعطيني رشوة الآن؟" سألْتُ. خطر لي أنَّه لم يسبق لساغي أن خاطبتني مطلقًا باسم "خالة" مع أنَّها مهذَّبة دائمًا. لطالما أفشَتْ كلَّ ما تريد قولَهُ من غير تفكير. والآن، هذا الغيثُ المنهمر من كلمة "خالتي" الحنونة.

"لا. لا أحاول رشوتك. أتوسَّلُ إليكِ، يا خالتي. لا تجعلي أبي يتبرَّأُ مني. أرجوكِ."

لربما ابتهج شخص آخر حيال رؤيتها في هذه الحالة من الاضطراب الشديد، غير أني لم أفعل. على عكس تفكير الفتاة الصغيرة، شعرْتُ بالأسف تجاهها. كنتُ سأفعل أيَّ شيءٍ، قبل ثماني سنوات فقط. للوصول إلى غرفة سيغَنْ حتى أتمكَّنَ من إرضاءِ اندفاع الدم الغامض بين فخذيَّ. "أَعِدُكِ؛ لن أخبرِ أحدًا."

نظرَتْ ساغي إليَّ ومسحَتْ دموعَها التي لم تسقط بعدُ على وجنتَيْها. "شكرًا لكِ يا خالتي. كانت غلطةً سخيفة. لم أذهب إلى هناك من قبل، لكنَّ

هذا الفتى سلبني لُبِّي. أفكِّرُ فيه عندما أجلس. إنه في بالي؛ يشغل تفكيري، عندما أتناول طعامي. أخشى أحيانًا أن تنظر ماما إليَّ وتقرأ أعمق أفكاري."

"ما اسمه؟"

"جوك. ثمانية عشرة عامًا. إنه طالب في جامعة الفنون التطبيقية في إيبادان، يَدْرُس ليصيرَ مسَّاحًا للأراضي." أرادَتْ أن أنبهر.

جارَيْتُها. "حقًّا؟ أين قابلْتِهِ؟"

"تبيع أمُّهُ الوجبات الخفيفة خارج مدرستنا. يأتي لمساعدتها أحيانًا."

"هل هو وسيم؟"

"حسنًا، لقد رأيْتِهِ، أليس كذلك؟ تغار مني كُلُّ الفتيات في صفِّي."

"لم يبدُ سيء المنظر على الإطلاق." حتى الآن، كنتُ قد ذهبْتُ بعيدًا جدًّا حتى تجاوزْتُ الحدَّ لأعترفَ أنَّني لم أرَ ساغي ولا الرَّجل الذي كانت برفقته.

"ولكن، لِمَ دعاكِ إلى الكوخ حيث نبيذ النخيل؟ ألا يعرف كم تبلغين من العمر؟"

"أخبرْتُهُ أنَّني لا أودُّ الذَّهابَ إلى هناك، لكنه قال إنَّه يريدُ أن يتباهى بي بين أصحابه."

"هل قضيْتِ وقتًا لطيفًا هناك؟"

"ليس تمامًا. فقد ألقى أصدقاؤه نِكاتًا بذيئةً للغاية. كنتُ سعيدةً لمجرد وجودي بالقرب منه حتى أتمكن من النَّظر إلى وجهه."

"وهل رأيْتِ ما هو أكثر من وجهه؟"

"خالتي!" حجبَتْ ساغي عينيها بأصابعها. "أقسم إنني لم أر غير وجهه." قال إنه سيُعلِّمني الليلة كيف أُقَبِّلُ كامرأة لكنني تركْتُهُ وتَبِعْتُكِ. أنا واثقة

أنَّ جميع أصدقائه يضحكون عليَّ الآن." تنهَّدَتْ واسترقَتْ النَّظر من خلف كتفها.

"إذًا، فهم حمقى. أحمقُ مَنْ يسخرُ منكِ لأنك تُظْهرين احترامًا لعائلتكِ. كيف ستشعرين لو أنَّكِ بقيتِ هناك؟"

"لو بقيتُ هناك لفزعت. ولَمَا استطعْتُ أن أسترخيَ." وضعت ساغي يدها في يدي فيما خلقت الفكرة في رأسها صورة أكثر رعبًا.

"هذا جيد. إذًا، فمع أنَّكِ تركْتِهِ في الكوخ، إلَّا أنَّكِ تنعمين براحة البال . . . وهذا يعني أنَّكِ فعلْتِ الصَّوابَ. لا بدَّ للمرأة الحقيقية أن تفعل الأشياءَ التي تريد القيامَ بها على الدَّوام، وفي الوقت الذي يلائمها، أيضًا. يجب ألَّا تسمحي لنفسِكِ بالاندفاع نحو القيام بأشياءَ لسْتِ مستعدَّةً لها." خَطَوْنا معًا نحو الشُّرفة في منزل بابا ساغي، الخطوة ذاتها في الوقت ذاته.

كانت إيا توبه الشَّخصَ البالغ الوحيد الموجودَ في غرفة الجلوس. بمجرد أن دلفنا إلى الداخل، اشتعلَتْ فتحتا أنفها مثل سراويلَ قصيرة رطبة المُعلَّقةِ على حبلِ الغسيل. فتحَتْ فمها لتتكلَّمَ غير أنَّها لم تنبس بكلمة. كانت تُحدِّقُ فقط، ناسيةً أن ترمش، ثمَّ صارَتْ ترمشُ باهتياج. التفتَتْ إلى الأطفالِ يلتهمون طعامَهم بسعادة، ولكن كان من الواضح أنَّها مُثقَلَةُ الفِكر.

لمسَتْ ساغي جبينَ كلِّ مَنْ قابلَتْهُ من إخوتها. مصَّ معظمُهُم عظامَ الدَّجاج، ولُطِّخَتْ وجناتهم بأنصاف حبوبٍ من أرز الجولوف[16]. رفع آكن بصرَهُ إلينا، ابتسم، وعاد إلى عمود الرياضة في صحيفة الأمس. منذ أن حاول بابا ساغي خنقي، أخفى نفسه خلفه الستائر والخزائن كلما رآني.

---

16 أرز يُحضَّر بالبندورة والبصل والفلفل. م.

"ما نوع الأحاديث التي تطرَّقتما إليها؟" سألَتْني ساغي أثناء مسيرنا إلى غرفة نومي عبر الممر. كانت ساغي، عادةً، تذهب مباشرة إلى غرفة نوم أمِّها، ثمَّ إلى غرفة النوم التي تقاسمَتْها مع آكن لتبدل ثيابها، لكنها لم تفعل أيًّا من ذلك هذه المرَّة؛ شبكَتْ ذراعَها بذراعي، عازمةً على عدم الابتعاد عني.

كانت غرفة النوم كما تركْتُها باستثناء وعاءٍ كريميِّ اللون موضوعٍ على طاولة الزينة. ومقبض الغطاء على شكل برعم الورد. "ادَّخَرَتْ لي إيا فمي بعض الدَّجاجِ من عيد الميلاد." فأزحْتُ الرائحة نحو ساغي بالغطاء.

"حسنٌ، ألن تأكلي؟" دون انتظار الضوء الأخضر، غطَّسَتْ ساغي أصابعَها في الوعاء وجرفَتْ منه جناحًا مُتبَّلًا حتى العمق بالفلفل. تدلَّتْ منه قطعة كبيرة من اللحم يغطي نصفها جلدٌ مُنقَّر. وضعَتْ ساغي كفَّها تحتها لتلتقط الزيت وغرزَتْ أسنانَها فيها. أغمضَتْ عينيها لتستمتع بمذاقِ المرق الذي يسيلُ في حلقومها.

"كنتُ قد تناولْتُ وجبة العشاء مع أمِّي للتو. تناوليه. إنه دجاج. لستُ ممَّنْ يأكلون لحم الطيور أبدًا." سلَّمْتُ الوعاءَ بأكمله ليدَيْ ساغي المتلهفتين.

"ثمة ثلاث قطع كبيرة هُنا. كان بوسعي رميها كلها في فتحة أنفي. سأنهي الطَّعامَ عنكِ وألعق الوعاء. ليتني عرفْتُ أنَّكِ سخيَّةٌ إلى هذا الحدِّ -" غمغمَتْ ساغي بفمٍ ممتلئ.

"تناولي قطعَ الدَّجاجِ كلَّها!" ضحكْتُ.

"قلتِ لي في وقتٍ سابق ألَّا أتسرَّعَ...؟"

راقبْتُ ساغي وهي تأكل قطعَ الدَّجاجِ بشراهة. لم يبدُ لي أنَّها تمضغُ ما تأكله إطلاقًا. أمتعني تَجاهُلُ ساغي للبروتوكول، وهي التي نادرًا ما تحدَّثَتْ إليَّ أو جالَسَتْني. تساءلْتُ عمَّا إذا كانت ستظلُّ ودودةً في حضور أمِّها.

لكأنَّ إيا ساغي سمعَتْ أفكاري، فها صوتُها يُدوِّي فجأةً عبر الجدران. سألَتْ إن كانت ساغي قد عادَتْ من مِشوارِها، وسرعان ما أخبرَتْها فمي بحماس أنَّ ساغي مُختبئةٌ في غرفتي. ذهبَتْ إيا ساغي إلى أول الممر، حريصةً على سبر أغوار الوِصالِ الملتبس، وصاحَتْ باسم ابنتها.

"من الأفضل أن أذهب الآن،" قالت ساغي وهي تُغمِّسُ كلَّ إصبع من أصابعها في فمها وتبرمُ حوله لسانَها. أعطيْتُها منديلًا ورقيًّا.

"من فضلكِ، اشكري إيا فمي من أجلي. وأعطِ هدية عيد الميلاد هذه لكوله." سلَّمْتُها العلبةَ المُغلَّفَةَ بالورق المُلوَّن، وارتمَيْتُ على السَّرير. قوَّسْتُ ظَهْري وحاولْتُ أن أنام، لكنني لم أستطع. ظلَّ وجهُ أُمِّي يتحرَّكُ أمام عينيَّ. وفوق ذلك، كان الصَّمتُ مُقلِقًا، وفي الكواليس - ثمة صافرةٌ طويلةٌ في مكانٍ ما وراء نافذتي، خلف الحديقة والسِّياج.

الفصل الخامس عشر

ضوضاء الليل

لم يتغيَّر الحالُ بنومِها في الغرفة ذاتها مع لارا. تستلقي لساعاتٍ، كما يبدو، قبل أن تدرك أنَّ ضوضاءَ الليل تضطرُّها للبقاء مستيقظة. تشبَّعَ الهواءُ بالشَّبق. والضفادع، على بعد أميال، تغني أفضل ما لديها من نقيق التودد، وصراصير الليل تعزف الألحانَ لبعضها بعضًا في ثنائيَّاتٍ مُتناغمة في منزل ألاو. إنه موقع الضوضاء نفسه الذي حاولَتْ بولنله أن تكتشفه عندما أدركَتْ أنَّها ترتدي ملابسها كاملة. لذا، بدَّلَتْ ملابسها وارتدَتْ قميصَ النَّوم، وجَثَتْ على رُكبتَيْها. وبينما كانت تزحفُ بجوار الجدران، ضغطَتْ على فُوَّهةِ مُبيد الحشرات في الفجوةِ الضيقة بين الجدار وحافته الخشبية. أمكَنَها تذوُّقُ طعمِ المُبيدِ في مؤخرة حلقومها.

تقع غرفةُ إيا ساغي على بُعد أمتارٍ قليلةٍ من الممرِّ؛ الأمر الذي ساعد بولنله على سماع صوتِها يرشحُ عبر الجدران إلى داخل غرفتِها. كان صوتُها غاضبًا مثل طنين نحلة مُحبَطَة أمام نافذة مغلقة. وكلَّما اتَّهَمَتْ إيا ساغي ابنتَها بالوقاحة، سَمِعَتْ بولنله اسمَها. وما كان يزيدُ الطِّينَ بِلَّةً، بالقدر نفسه؛ فهو

صمتُ ساغي عند نهاية كلِّ سؤال، الذي بدا أنه يُسبِّبُ الإحباطَ لأمِّها. فتحَتْ ساغي فمَها فقط عندما طلبَتْ منها أمُّها الذَّهابَ إلى غرفتها. "لا تنزعجي، يا ماما،" هكذا قالَتْ.

لم تحمِلْ كلماتُها النَّدمَ الذي كانت أمُّها تبحثُ عنه. "اغربي عن وجهي!" زجَرَتْها أمُّها.

"حاضر ماما."

سمعَتْ بولنله ساغي تمشي متثاقلة خارج غرفةِ نومِ أُمِّها.

قرابة الثانية صباحًا، خرَقَتْ صرخةٌ؛ تقشعرُّ لها الأبدانُ، الصَّمْتَ في جميع غرف المنزل. لم تكن الصَّرخةُ مُجَلجِلَةً - مثل النغمات المنخفضة الحزينة لآلة الترومبون - لكنها استمرَّتْ لمدة غير مريحة من الزمن. استوَتْ جالسةً في فِراشِها مُهْتَزَّة وقفزَتْ من سريرِها. لفَّتْ قماشَ غطائِها حولِ كتفَيْها وخرجَتْ مُسرعةً من غرفة نومِها.

كان كلٌّ من بابا ساغي، وإيا فمي، وساغي، وآكن في غرفة الجلوس. إيا ساغي هناك أيضًا، ولكنها واقفة في الزاوية البعيدة، ترتجف، وقبضتُها في فمها. سقط شريطا صدريَّتِها السَّوداء على ذراعَيْها الممتلئتين، وكان مئزرها مربوطًا حول خاصرتها.

كلُّ ما استطاعت بولنله رؤيته، من حيث كانت تقف، هما قدما ساغي المُسَجَّتَيْنِ على الأرض. انثنتا وانكمشتا كما لو أنَّ نوبة صرع أصابَتْها. جثا والدُها على ركبتيه إلى جانبها، مُحدِّقًا بها كما لو أنه يمتصُّ ألمَها. ظلَّ يلمس ساقَيْها وذراعَيْها، مُخاطِبًا إيَّاها بمزيجٍ من الصَّلوات، والتَّضرُّعات، والوعود. "لا تتركيني يا ابنتي. لا تدعيني أرثيكِ. لا تجري الأمور هكذا في عالمنا. أخبِري الآلهة أنَّكِ تريدين البقاء معي هُنا. أخبِريهم أنَّكِ غيرُ مستعدَّةٍ لاتِّباعِ

طريق الأجداد. أخبِريهم بأنَّ هناك من يُحبُّونَكِ هُنا، في عالَمِنا. أخبريهم أنَّ أباكِ يُحبُّكِ. أخبريهم بالنِّيابة عني، يا ساغي. يا ابنتي، سأشتري لكِ الذَّهبَ. سأشتري لكِ أفضل أشرطة الزينة. يا أوَّلَ ثِمارِ صلبي، لا تتجاهلي كلماتي."
كان مَشْهدًا يُرثى له. حاول كبح دموعه، لكنها تركَتْ بقعًا داكنةً على قميصِ نومِ ساغي. ظلَّتْ إيا ساغي تختلس النَّظر إلى ساغي من خلف ربطة الرَّأس التي انسدلَتْ على وجهِها.

وبينما كانت إيا توبه تحملُ القميصَ المُلائمَ للبنطال الذي يرتديه بابا ساغي، هرعَتْ إلى الغرفة. كانت مغطاة ببقايا الدجاج الملطخة بالدم. طارَدَتْها رائحةٌ نتنة لكنها لم تُزعجها؛ إذ انصبَّ كامل تركيزها على استعادةِ مفاتيح السيارة.

مسحَتْ بولنله وجوهَ جميعِ الحاضرين، ولكن لم يستجب أيُّ زوج من العيون إلى ملامحها المتسائلة. بدلًا من ذلك، كانت العيونُ مُنَدَّاةً بنذير شؤم. جلسَتْ إيا فمي على أريكتها تهزُّ قدمَيْها. ثَقُلَ جفناها بالنوم والاستياء. لم يحظَ أطفالُها بهذا القدر من الاهتمام لمَّا أُصيبوا بالحُمَّى. لِمَ انزعجَتْ الأسرةُ بأسرها لأنَّ ساغي تقيَّأَتْ؟ لقد أكلَتْ كثيرًا جدًّا على أية حال.

كانت الفرصة مواتية لبولنله بأن ترى وجهَ ساغي فقط عندما حملها كلٌّ من إيا توبه وآكن إلى السيارة. بدت وكأنَّها تمتصُّ وجنتَيْها، كما لو أنهما مفرغتان من الهواء. ينسل من حلقومها، سيل جارف من ثرثرة الأطفال، من وقت لآخر. تحولت أصابعُها الملتوية إلى ما يشبه القبضة. بدت كفَّاها كما لو أنَّ الدَّمَ أسفل الجلد قد انحسر في معصميها. وقبل أن يضعاها في السيارة، أصابَتْ جسدَها رغبةٌ مفاجئةٌ في التقيؤ. كانت شدة القيء طاغية لدرجة أنَّها لوَّثَتْ نفسَها فيه.

جلس بابا ساغي في مقعد السَّائق. أمر إيا توبه بأن تصعد إلى السيارة وتجلس إلى جانب ساغي. "اعتنِ بإيا ساغي والأطفال!" صاح في إيا فمي قبل أن ينطلق.

ذهبَتْ بولنله إلى المطبخ لتحضر قليلًا من ماء الشرب البارد من البراد لإيا ساغي وإيا فمي. أحضرَتْ كأسين على صينية وقدَّمَتْ إحداهما إلى إيا ساغي. صفقَتْ إيا ساغي الكأسَ وصحنَهُ وألقَتْ بهما على السجادة وشدَّتْ وجهَ بولنله بالقرب من وجهِها.

"ماذا فعلَتِ بابنتي؟ أجيبيني، يا ساحرة! أيُّ ضررٍ ألحَقْتِهِ بابنتي؟" قبضَتْ إيا ساغي على بولنله من كُمَّيْها، ضارِبَةً الصِّينيَّةَ في الأرض.

"ماما، لا!" صرخ آكن.

التفتَتْ إيا ساغي إلى ابنها. "إذا أردْتَ من أمِّكَ ألَّا تلعنَكَ، فجِدْ الطَّريقَ إلى سريرِكَ. الآن!" وبينما صار الصَّبيُّ خارجَ مدى السَّمع، حفرَتْ أظافرَها عميقًا في كتف بولنله.

"لم أفعَلْ لها شيئًا،" صرخَتْ بولنله. لم تعرف ما إذا كانت ستسحبُ نفسَها بقوَّةٍ من قبضةِ إيا ساغي أو تُقدِّمها كأضحية. وضعَتْ إيا فمي رأسَها على مسند رأسِ كرسيها، وقدَمَيْها على مسند القدمَيْن، وكتَّفَتْ ذراعَيْها، تراقب ما يحدث.

"ماذا قلتِ لها؟ ما اللعنات التي ألقَيْتِها عليها؟" الثومُ مدسوسٌ في كلماتِ إيا ساغي. إذ كانت تمضغُ ستةَ فصوصٍ منه، في كلِّ ليلة، كجزءٍ من عنايتها بصحَّتِها.

"لم أقل لها أيَّ شيء!"

"لماذا إذًا أجبَرْتِها على دخولِ غرفتِكِ؟ لم يسبق لابنتي أن أخفَتْ عنِّي

أسرارًا لكنها الليلة تصرَّفَتْ كما لو أنَّها وُلِدَتْ بلا أُذنين! أخبريني، ماذا فعلْتِ بها؟"

"أرجوكِ، يا إيا ساغي، إنَّكِ تُؤلمينني. دعيني أذهب إلى غرفتي."

دفعَتْ إيا ساغي بولنله بكلِّ ما أُوتِيَتْ ذراعاها مفتولتا العضلات من قوة. سقطَتْ المرأةُ الأصغر حجمًا إلى الوراء ووقعَتْ على عَجيزَتِها أوَّلًا فوق مقعدٍ قبل أن تنقلبَ وتطرق رأسَها على بلاط التيرازو البارد، مُخطِئةً حافة السجادة. ومع أنَّ بولنله سمعَتْ صوتَ العظم ينكشط على الحجارة، إلَّا أنَّها قفزَتْ ووقفَتْ على قدمَيْها إذا ما قرَّرَتْ إيا ساغي الانقضاضَ عليها. مُتزعزعةً، غير مُستقرَّةٍ على قدمَيْها، لمسَتْ بولنله مُؤخِّرةَ رأسِها، ووضعَتْ يدَها في نطاقِ الرُّؤية؛ وإذ بها مُخضَّبةٌ بالدماء. "انظري لِما فعلْتِهِ بي!" هَمَسَتْ.

عندئذٍ، أشارَتْ إيا فمي إلى بولنله، وألقَتْ برأسِها إلى الوراء، وانفجرَتْ في دويٍّ من الضَّحِكات. أمسكَتْ بطنَها واهتزَّتْ فوق مقعدِها. ثمَّ توقَّفَتْ كما بدأَتْ فجأة. "ماذا فعلَتْ هي بكِ؟ كم أنتِ محظوظة لأنَّ إيا ساغي لم تقطع رأسَكِ وتدقَّهُ في الهاون! إنَّكِ حقًّا روحٌ شرِّيرة. اذهبي عنَّا، يا شيطانة! غادري منزلَنا!" ضربت إيا فمي معصميها وهَشَّتْها بعيدًا.

"ولكن، ماذا فعلْتُ لأجعلَكِ تكرهينني؟" ماذا فعلْتُ لأُسبِّبَ الأذى لأيٍّ منكنَّ؟"

"ها! الكلمات ذاتُها نطقَتْها السَّاحرةُ التي قُبِضَ عليها وهي تجفِّفُ يديها بعد العثور على ابن جارتِها طافيًا في البئر المُرَكَّبة." صمَتَتْ إيا فمي. "سنتخلَّصُ من روحِكِ الشِّرِّيرة أسرعَ ممَّا تظنِّين."

رفَعَتْ بولنله يديها. "لا أفهم هذا! مرَّةً تعطينني حصَّةً كبيرةً من قطعِ الدَّجاج من احتفالات عيد ميلاد ابنِكِ، ومرَّةً أخرى تَصِفينَني بالرُّوح

الشِّرِّيرة. ماذا عساي أن أفهمَ من كلِّ هذا؟ أيُّهما أنا بالضَّبط؟"

"ستعرفين قريبًا جدًّا! لا تتعجَّلي، أيَّتها الرُّوح الشِّرِّيرة." أطلقَتْ إيا فمي ضحكاتها ثانيةً.

"إذًا، فمن الجيِّدِ أنني لم أتناول الدَّجاج. يَسُرُّني أنَّ ساغي هي التي أكَلَتْهُ كلَّه. يَسُرُّني أنَّ شفتيَّ لم تلمسا الطَّعامَ الذي قدَّمَتْهُ لي يدا شخصٍ يكرهُني. يَسُرُّني أنَّ-"

اعتدلَتْ إيا ساغي في جلستِها بعد أن تسلَّلَتْ عائدةً من غفوتِها. "هل قلتِ إنَّ ساغي أكلَتْ حصَّتَكِ من الدَّجاج؟"

"نعم، أرادَتْ ذلك فسمَحْتُ لها. لا تملؤني الكراهية. فَلِمَ أحرمُها من ذلك وهي طفلة وابنة زوجي؟" وقبل أن تتمكَّنا من إهانتِها أكثر، هرعَتْ بولنله راكضةً إلى غرفة نومِها وأغلقَتْ البابَ خلفَها.

بعد بضع لحظاتٍ صامتة، غاصَتْ إيا ساغي في مقعدِها كما لو أنها صارت ليِّنة، قدماها أوَّلًا، في قدر من الماء المغلي. توقَّفَتْ فقط لمَّا أخذ ظهرُها موضعَ مؤخِّرتِها. "آه، يا إيا فمي! ما الذي اقترفَتْهُ أيدينا؟"

"أخبَرْتُكِ إنَّ تلك المرأةَ ساحرة. لماذا ذهبَتْ ساغي إلى غرفتِها الليلةَ بالذات من بين كلِّ الليالي؟ لا بدَّ أنَّها غسَلَتْ عينيها بمياهٍ روحانيَّة. لا بدَّ أنَّها عرَفَتْ وأجبرَتْ ساغي على تناول الدَّجاج."

نَظَرَتْ المرأتان إلى بعضهما بعضًا. عرفَتْ كلتاهما أن لا حاجة لاستخدام القوة فيما يتعلَّقُ بشهيَّةِ ساغي. "هل استخدمْتِ المسحوقَ بأكمله؟ ربما لن يتمتَّعَ بالفاعلية التي قال تاجو إنها فيه."

"كل حُبَيْبة منه. بحسب تعليماتك. لا تقلقي، أعرف ما عَلَيَّ فعله. سأذهب إلى الرُّسُلِ في كنيستي غدًا صباحًا. سيصومون ويُصلُّون لثلاثة أيَّام.

لستُ رسولة لكنَّ الله لن يُخيِّبَ ظنِّي. لن نخسر أيَّ طفلٍ في هذه الأسرة!"

"هل قلتِ نخسر طفلًا؟ هل تدركين ما خرج من فمِكِ للتو؟" أمسَكَتْ إيا ساغي مقعدًا من ساقه.

كانت العروقُ حول قبضةِ الزوجة الكبرى ستتفجَّر؛ بدا أنَّ إيا ساغي قد تقذفُ المقعد المصنوع من خشب الماهوغاني. "تكلَّمْتُ بحمق، يا إيا ساغي، كطفلةٍ دون حكمة." تمنَّتْ إيا فمي ليلةً سعيدةً لها بتعجُّلٍ، وأقفَلَتْ على نفسِها غرفةَ نومِها.

عندما حلَّ الصَّباح، جلس الأطفالُ الأصغر حول الممر، ولم يبدُ أنَّهم يعرفون إن كانوا مُتيقِّظين أو مُسَرنَمين. فقد استيقظوا ليجدوا إيا ساغي هناك كما لو أنها لم تكن، رأسها في قبضة يدها، تشاهد غيومًا بيضاء تلون الظلمة. غرفة إيا فمي مغلقة، وكذلك غرفة بولنله. ولم يُعْثَرْ على إيا توبه في أيِّ مكان. وفوق ذلك كلِّه، اختفَتْ حبيبتهم ساغي، أيضًا.

حاول آكن إقناعَهم بأنَّ كلَّ شيءٍ على ما يُرام، وعرض أن يُعِدَّ الإفطارَ، ولكنَّ حلوى الذرة التي طهاها كانت مليئةً بالحبيبات النيئة التي انزلقَتْ من الملعقة. لم يتذمَّر الأطفال؛ امتصُّوها عن الملعقة وغربلوها بأسنانهم. ألقى آكن ملعقتَهُ، بعد بضع دقائق، وأمرهم بأن يسكبوا الحلوى في المغسلة. أنقذ فمي الموقفَ. إذ جلس بالقرب من باب غرفة نومِ والدته وظلَّ يصرخ حتى أَوْجَعَهُ حلقه. على سبيل التغيير، لم يحاول آكن إيقافَهُ، وهرع راكضًا إلى غرفة نومه، آخِذًا وسادةً، وواضِعًا إيَّاها على رأسه. وسرعان ما ظهرَتْ إيا فمي القلقة، واسترضَتْ الأطفالَ بإعطائهم أرغفةً ساخنةً من الخبز وسردينًا مُعلَّبًا.

استيقظَتْ بولنله على صراخِ فمي، ومضَتْ أفكارُها فورًا إلى ساغي.

جلسَتْ باعتدالٍ وشعرَتْ بوخزاتِ آثار الأظافر على كتفيها. أَوْجَعَها رأسُها. ثمة بقعةُ دمٍ كبيرة تصبَّغَتْ بها وسادتُها، ونُدَفٌ من الدَّمِ نقَّطَتْ كتفيها. جلَسَتْ أمام مرآةِ طاولة الزينة وتفحَّصَتْ مُؤخِّرةَ رأسِها بمرآةِ علبةِ بودرة الوجه. إن لم أتوَخَّ الحذر، فسأموتُ في هذا المنزل، فكَّرَتْ. جَمَعَتْ كتلةَ الدَّمِ الجاف الملتصقة بشَعرِها وألقَتْ بها في سلَّة المهملات. ثمَّ أَخْفَتْ الجرحَ بوشاح، وقرَّرَتْ انتظارَ عودة بابا ساغي قبل مغادرة غرفة نومها.

سحقَتْ السيارة الحصى، وتوقَّفَتْ عند الساعة السابعة وخمس وعشرين دقيقة. هرَعَتْ إيا فمي والأطفالُ إلى الباب الجرَّار. كانت حركاتُ بابا ساغي بطيئةً وغيرَ متناسقة لمَّا شقَّ طريقه بصعوبة من أجل الخروج من السيارة، تلحقُهُ إيا توبه؛ ذات الوجه النَّاضبِ من المشاعر كلِّها. ترنَّحا أثناء عبورهما البابَ ليجدا إيا ساغي تجلس على أريكتِها ساكنة، تُحدِّقُ بإمعانٍ دون أن ترى أحدًا. بدأَتْ إيا توبه تخلع عنها مئزرها المُلطَّخ بالقيء قبل وصولها إلى الممر. شفتاها مقلوبتان. بدا وكأنَّها ستُسْقِطُ جلدَها أيضًا لو استطاعَتْ. ارتمى بابا ساغي على أريكته كما يفعل دائمًا. لفَّ عينيه، ثمَّ رأسَهُ، إلى الخلف. مدَّ ساقَيْهِ أمامه وخلع حذاءه من قدميه. "لم تمت. يقول الأطبَّاءُ إنه تسمُّمٌ غذائيٌّ. اعترفَتْ بأنها شربَتْ نبيذ النخيل ليلة أمس. آه، يا لهذي الفتيات الصَّغيرات!" تنهَّدَ. وبينما كان متمدِّدًا قال: "أمَّا بالنسبة لي، فأنا مرهق!" تدلَّى رأسُهُ على المسند، وبدأ يشخر على الفور مثل خنزير بري.

سمعَتْ إيا ساغي صوتَ شخيره، غير أنها التفتَتْ إليه بعينين مليئتين بالارتياح. جلسَتْ هناك، طوال الليل، تتساءل عمَّا إذا كانت ابنتُها ستخرجُ من المستشفى إلى المشرحة. وفقًا للتقاليد، لم تكن لتتمكن من رؤية وجه ابنتها ثانية، أو لمس أصابعها، أو الإعجاب بشَعرِها أبدًا. كانت ممتنَّةً للأخبار

التي حملها بابا ساغي، لذا وقفَتْ وجرَّتْ نفسَها إلى غرفة نومِها.

تبدَّدَتْ الضَّحكاتُ في منزل ألاو حتى نهاية الأسبوع. لكأنَّهم كانوا على موعدٍ مُسبقٍ مع الحزن. وعليه؛ فمن المستحيل إلغاؤه. ذهب الأطفالُ الأكبر إلى القسم الخلفيِّ من المنزل، وانتحبوا بحرقةٍ شديدة، في حين حزن الأطفال الأصغر وافترشوا الممر، حتى أنهم رفضوا ارتداءَ ملابسهم. افتقدوا أختَهُم، كما أنَّ حقيقةَ أنَّها تستلقي على سرير في مستشفى؛ حيث لا يستطيعون رؤيتها، جعلت الأمرَ لا يُطاق. افتقدوا ضَحِكاتِ ساغي، وكلماتِها المُشجِّعة، وبقايا قطع اللحم التي كانت تقدِّمُها لهم.

استصعب آكن فراقَ شقيقته أكثر من إخوته. إذ شاركها النومَ في الغرفة ذاتها لما يقرب من عشر سنوات، وبينما انسلَّ خلسةً من أرجاء المنزل، طغى غيابُ ساغي في كلِّ لحظة. تصوَّر أنَّ إخوته سيبدأون باللجوء إليه قريبًا؛ أرعَبَتْهُ هذه الفكرة. لم يكن متأكِّدًا من قدرته على فِعْل ما تفعله شقيقتُهُ ببراعة. لذا، حمل وحدَتَهُ معه دون أن يلجأ لأحد يُواسيه. حاولَتْ إيا توبه إدارةَ المنزل؛ فلم تكن أمُّهُ قد استردَّتْ عافيتَها بعد، أمَّا حضنُ إيا فمي فلم يستقبلْ إلَّا رؤوسَ أطفالِها هي. طرق آكن بابَ بولنله بهدوء، عدَّة مرَّات، غير أنَّه كان يهرب قبل أن تفتحه له.

الفصل السادس عشر

رسالة

أشاحَ الرَّبُّ بوجهه عن هذا المنزل.

حمل بابا ساغي، الليلةَ الماضيةَ، أنباءً أوقعت الأسرةَ في التياع. أخبَرَنا أنَّ شَعرَ ساغي يتساقط، وأنَّها كلَّما مرَّرَتْ إصبعَها بالقرب من أذنها، تساقط شَعرُها على الوسادة مثل ريشِ طائرٍ منقوعٍ في الماء المغلي.

قد يبدو هذا الأمرُ تافهًا لأذن لا تسمع، غير أنَّهُ هيَّجَ دواخل معدةِ كلِّ مَنْ سمع به في منزلنا. صاحَتْ إيا توبه أوَّلًا لأنها أمضَتْ معظمَ وقتِها تعتني بشعرِ ساغي. أخذَتْ تُوَلْوِلُ ذلك لأنها كانت تجدله لها منذ انضمامِها إلى هذه الأسرة. ليس لديها الكثير لتفعله في حياتِها.

زرتُ الكنيسةَ بعد أن سمعْتُ تلك الأنباء، لكنَّ معنوياتي لم ترتفع. بدا المذبحُ المُضاءُ بالشُّموع، والقسُّ الذي يضيءُ الشُّموع، سخيفَيْن. حدَّقَ النَّبيُّ في ثدييَّ طويلًا جدًّا إلى الحدِّ الذي اضطرَّني أن أطلبَ منه ألَّا يُشوِّهَ سُمعتي. لم أكد أصل إلى المنزل حتى أدركْتُ حجم روحه الشريرة التي تَبِعَتْني.

كنتُ قد أرسلْتُ تاجو إلى مكتب تونده هذا الصباح، ولكن بدلًا من

جلب المال لترتفع معنوياتي، عاد وفي حوزته رسالة مستنسخة:

قرَّرْتُ قبولَ منصب ممثل للولايات المتحدة بعد وفاة والدتي.

شكرًا جزيلًا لأولئك الذين حضروا جنازة والدتي بهذه السرعة.

ولأولئك الذين لم تُتَحْ لي فرصةُ وداعهم، أقول: سامحوني.

عنوان البريد الإلكتروني الخاص بي لم يتغير، وإنني أتطلَّع إلى التواصل معكم قريبًا.

المخلص

تونده أديغب

أسألك: ما البريد الإلكتروني؟ وما معنى ممثل للولايات المتحدة؟ ها! يا الله! هل هذا وجهك؟ لم أستطع إيقافَ دموعَ الغضب التي بلَّلَتْ وجهي. بكيْتُ. إذًا، رحلَتْ الجدَّةُ التي أردْتُ أن أتباهى بولدَيَّ أمامها! ها! جبانة! رأت انتصاري قادمًا فقرَّرَتْ حرماني منه! توسَّلَتْ إلى الشيطان أن يُجَنِّبَها نقمتي، وشماتتي، وضحكتي المُجَلْجلة! وطفلاي! ولداي! ربما كان من الأفضل لهما أن يُولدا لبابا ساغي. كلَّ هذه السنوات ضاعَتْ سُدىً!

ها! تونده! هكذا تخلَّيْتَ عني دون أن تعرفَ ولدَيْكَ! هل سأراكَ ثانيةً؟ لماذا لم تخبرني أنك راحل؟ هل كنتُ ضئيلةً في عينيكَ إلى هذا الحد؟ ألم تُوقظْ رُوحي ضميركَ؟ كم كنتُ مُغفَّلة!

وحيدةٌ أنا في هذا العالَم. الآن فقط أدرك أني يتيمة. لا أحد لديَّ. مَنْ سأكلِّم؟ مَنْ سيرافقني في مشاويري؟ لا تريد إيا توبه أن تَعْرِفَني، وإيا ساغي جُنَّتْ من الحزن. كلما رأيتها، تذكَّرْتُ الدَّجاج المبصوق في المِقلاة.

يا رب، اغشاني بروحك. استرني حتى لا يضحك أعدائي على عاري. أَرْسِلْ ملائكتَكَ لتحميني بأجنحتها. انتقِمْ ممَّن يريدون تعذيبَ ابنتَكَ. صُبَّ على رؤوسهم الكبريتَ والنارا لا تدع الشَّيطانَ يفتنِّي.

الفصل السابع عشر

النتائج

كان الدكتور دِبْيا أقصرَ من معظم الرِّجال، لكنه استعاض عن ذلك بكتابٍ كبير. شَعْرُهُ أجعد قصير، يلفُّ إطارَ عدستَيْ نظَّارتِهِ السَّميكتين حواف مستطيلة ثقيلة. لمَّا دخلْتُ مكتبَهُ، طلب إليَّ الجلوس، وجعلني أنتظره حتى أنهى الصفحة التي كان يقرؤها. قال "المعذرة" فيما كان يضع فاصلًا جلديًّا ممزَّقًا بين صفحات الكتاب. عندئذ فقط حمل ملفِّي ونقل كلَّ ما جاء فيه.

"إذًا، هل أحضرْتِ نتائجَ التَّحليل؟" مدَّ يده دون أن ينظر إليَّ ومزَّق المُغلَّفَ بحماس باستخدام فتَّاحة رسائل فولاذية.

وبينما كان يقرأ، ألقيْتُ نظرةً سريعةً على مكتبِهِ. كلُّ قرطاسيَّتِهِ مُرتَّبة؛ فتَّاحة الرَّسائل، دبَّاسة الأوراق ومُزيل الدَّبابيس، كلُّها مصنوعةٌ من الجلد والنُّحاس اللامع. عندما أنهى القراءة، استدعى ممرضة وأوعز إليها أن تُحَضِّرَني للكشف الطبي. تساءلْتُ عمَّا إذا كان ثمة سبب ما يجعلُهُ يتفادى النَّظر في عينيَّ، وخلصْتُ إلى أنه لا بدَّ خجول. تمتم لنفسه فيما كنتُ أنتظر

مستلقية خلف الستارة البيضاء. لا بدَّ أنَّ المرضة شعرَتْ بارتباكي لأنها أكَّدَتْ لي أنني في أيدٍ أمينة. "الدكتور دِبْيا أحد أفضل الأطباء في البلاد،" قالت.

في غضون لحظات قليلة، دفع الدكتور دِبْيا السِّتارة جانبًا وانقضَّ عليَّ بأظافر مرنة. غمغم في نفسه فيما كان ينكز بطني ويضغط عليها. حدَّق في السَّقف لمَّا باعَدَ بين ساقيَّ ليفحصني من الدَّاخل، وأمال رأسَهُ جانبًا. فقط عندما ضغط بطني لأسفل وبرم أصابعَهُ في داخلي، نظر إلى وجهي مُستفسِرًا وباحثًا عن انكماشي وتجهُّمي.

"استرخي، من فضلك،" قال. "افتحي ساقَيْكِ". مع أنَّ التجربة كانت مُحرِجة، إلَّا أنَّه كان لطيفًا ولم يكن ثمة أيُّ انزعاج. وعندما استوفى فحصه، طلب إليَّ أن أرتديَ ملابسي وعاد إلى طاولته.

"من خلال الفحص الذي أجريْتُهُ، ونتائج صورة الأشعة وتحليل الدم، لا أجد أيَّ أسبابٍ مباشرة لعدم قدرتِكِ على الإنجاب. أجهضْتِ مرة واحدة؟" أخفَضَ إطارَ نظَّارتِهِ ونظر في عينيَّ للمرة الأولى. إذًا، فلم يكن خجولًا حينذاك.

أومأْتُ مُوافِقَة. كما لو أنَّ زميلَهُ لم يكن قد استجوبني من قبل بأسئلة من نوع: متى، وأين، ومَنْ، فسألني هو مرة أخرى. كنتُ بمفردي هذه المرة، لذا كان الأمر أسهل. "عام 1992. في كوخ صغير. على يد ممرضة، على ما أعتقد."

- "ممرضة؟" طرق الطاولة بقبضته. جاعلًا كلَّ ما عليها يقفز. "هل سمعْتِ ذلك، يا ممرضة؟"

"نعم، دكتور." جاء صوتُ الممرضة من خلف الستارة البيضاء، حيث

كانت تنظف طاولة الفحص استعدادًا لاستقبال المريضة التالية.

نظر إليَّ ثانيةً. "حسنًا، كلُّ ما يسعني قولُهُ هو أنَّكِ امرأةٌ محظوظةٌ جدًّا. أجرى عمليَّتَكِ الكبيرة شخصٌ غيرُ مؤهَّل، ويبدو أنَّكِ نجوْتِ دون أن تُصابي بأيِّ أذىً." نظر إليَّ لبضع ثوان، ثمَّ أرخى نظرَهُ فجأة. "حسنًا، بما أنَّكِ الآن أكبرُ سنًّا وأكثرُ حكمةً، بلا شك، آمل ألَّا تُعرِّضي نَفْسَكِ لمثل هذه المجزرة ثانية." لكأنه أمر أكثر من إسداءِ مشورةٍ صريحة.

أوشَكْتُ أن أخبرَهُ بأنني كنتُ في مكتبه لأنني أريد إنجابَ طفلٍ، لا التخلص من واحد، عندما نادَتْهُ الممرضة. "دكتور، أعتقد أنَّ عليكَ أن تطَّلعَ على هذا."

اعتذر الطَّبيبُ وعاد في غضون ثوان. "السيدة ألاو، هناك بعضُ بُقَعٍ من الدم على طاولة الفحص. هل تنزفين ربما؟" حرَّكَ أصابعَهُ بارتباكٍ صوب وجهي مشيرًا إلى أنه لا يقصد جزئيَ السُّفليَّ.

حِرْتُ لفترة قصيرة جدًّا، لكنني بعدئذ مددْتُ يدي ولمسْتُ مؤخرة رأسي. كانت رطبة. "انزلقْتُ وضربْتُ رأسي بالأرض. بقوة." خرجَتْ جملتي كما لو أنها سؤال. حتى أنني ما كنتُ لأُصدِّقَني.

قفزِ الطَّبيبُ من مقعده فجأة، ووقف أمامي. "هل تمانعين لو ألقيْتُ نظرة؟"

حللْتُ الوشاح؛ حامَتْ رائحةُ الدَّمِ الفاسد حول وجهي وعبَّأَتْ أنفي.

"يا له من جرحٍ بليغ. هل اعتنى به أحد؟"

"لا، إنه مجرد جرحٍ بسيط-"

"صدِّقيني، إنه ليس جرحًا بسيطًا." عاد إلى مقعده. "سترافقكِ الممرضة إلى قسم الحوادث والطوارئ من هُنا. سيحتاجُ جرحُكِ إلى ضمادةٍ مناسبة."

بدا وميضُ تَعاطُفٍ في عينيه لمَّا تكلَّمَ غير أنَّهُ تلاشى بسرعة. "الآن، لِنَعُدْ إلى مِحور حديثِنا: أودُّ من زوجِكِ أن يأتيَ لإجراءِ بعضِ التحاليل الأولية. هل تظنِّينَ أنَّ بإمكانه القدوم يوم الإثنين المقبل؟"

"سأخبره،" قلتُ له.

"جيد." فتح الدكتور دِبْيا دفتر مواعيده ورسم بإصبعه خطوطًا مُتعرِّجة. "في العاشرة والنصف صباحًا؟"

"سيكون ذلك مُناسِبًا."

"حضوره مهم. أنا على يقين أنه سيفهم أن أحدًا لا يمكن أن ينجبَ طفلًا بمفرده."

"لديه سبعة أطفال." بوسعي أن أكونَ سليطةَ اللسان. "ولو!" ناولني بطاقة مواعيد. "حسنًا سيدة ألاو، معكِ مباشرةً إلى قسم الحوادث والطوارئ." قال ذلك كما لو أنه لا يثق بي، كما لو أنه تصوَّر أنِّي سأهرب بغطاء رأسٍ ملطخ بالدماء.

ظهرَتْ الممرضة قبل أن ينتهيَ من حديثه، وأَظْهرَتْ له نظرةً مطمئنة.

تعاطَفَتْ معي الطبيبة المُعالِجة. قالَتْ إنَّ الجرحَ التهبَ، وحقنَتْني ببطء بمضادٍّ للكزاز في ردفي الأيمن. ثم حَلَقَتْ الشَّعْرَ حول الجرح بعنايةٍ، وأخبرَتْني، دون انقطاع، أنها لا تؤمن بنزع الشَّعر أكثر من اللازم. بالنَّظر إلى أنه لم يبق إلَّا ثلاثة أرباع ما كان على رأسي عندما جلسْتُ أمامها لأول مرة، تساءلْتُ عن الصَّيحات التي تخيَّلَتْ أني قد أُمَشِّطُ شَعْري على نحوِها.

لحسن الحظ، لم يحتَجْ الجرحُ ضمادةً حول الرَّأس. ضمَّدَتْهُ وأمسكَتْ الشَّاشَ، بسرعةٍ، بشرائطَ من شريط اللاصق الجراحي. عادَتْ ممرِّضةُ الدكتور

دِبْيا بوشاحٍ نظيف. وبينما كانت تُناوله لي، قالَتْ: "يُغْسَلُ كلُّ ما يتمُّ التبرع به إلى الصندوق الخيري أولًا."

غادرْتُ أرضَ المستشفى وأنا أتساءل إذا كان الطب الحديث يسخر من أنِّي بلا ذرية. لم أشعر بالارتياح اللازم. لو لم يكن ثمة خطبٌ بي، فلماذا لم تصبح بطني مُدوَّرةً ومشدودة؟ لا بدَّ أنَّ شيئًا ما قد فات الدكتور دِبْيا! ولا بدَّ أنَّ الطبيب في مركز الأشعة فاته شيء!

وصلْتُ إلى بوَّابةِ بنايةِ والديَّ لأجدَ قفلًا قويًّا يتدلَّى منها. ثمة ستة أجراسٍ جديدة على العمود، إلى جانب كلٍّ منها بطاقة. لا بد أنه طلب آخر بالتحديث من المالكة، فكرت متسائلة كيف لأمي أن تعتاد على فتح البوابة كلما دق الجرس. ثم ضغطْتُ على زر جرس آخر.

سرعان ما ظهر والدي ومن سبَّابته تدلَّتْ مجموعةٌ من المفاتيح. "بولنله، لا تراكِ، هذه الأيام، سوى العيون ذات القوى الخارقة." لطَّخَتْ وجهَهُ ابتسامةُ نشوةٍ، وتساءلْتُ إنْ كان سعيدًا حقًّا لرؤيتي أو إن كان ابتهاجُهُ بسبب مشروب الجن. كان يتجرَّع عادةً أربعة أكواب يُدفئ بها بطنَهُ بحلول منتصف الصباح.

"كنتُ هُنا قبل بضعة أيام، يا بابا،" أجبته متظاهرة بالاستياء من اتِّهامه.

"وقبل ذلك الحين؟" رفع رأسَهُ إلى الخلف، هازئًا، ليلقيَ عليَّ نظرةً متفحصة. "كما تعرفين، لستُ عجوزًا كما يبدو من مظهري." أَحَبَّ هذه الألعاب. عندما كنا صغارًا، أَحَبَّ الترويح عن نفسه بأن يجعلنا نُعبِّرُ عن كراهيتنا للأشياء باستخدام كلماتٍ جديدة. كنت أقول: "أشمئزُّ من الخبز وأحتقر البصل." تحذو لارا حذوي وتقول: "أنا فقط لا أحبُّ ماما إطلاقًا،" مما جعل والدي يقع على الأرض ضاحكًا. كانت لعبة الزَّائر المُفضَّلة لديه إلى

حدٍّ كبير. فإذا فاته أيُّ زائرٍ أثناء خروجه، طلب إلينا أن نصفه. بالطبع، كنا تثرثر بشأن الملامح الواضحة، لكنَّ بابا كان يسألنا إذا كانت ذراعُ الزَّائر اليسرى أقصر من الأخرى، أو إذا كانت لديه شامةٌ مدفونةٌ في شاربه. دغدغه تلعثُمُنا جدًّا. كان يحثُّنا على إبقاء أعيننا مفتوحة في المرة القادمة، ويرسلنا لشراء المَصَّاصات. كان الرَّجلَ الوحيدَ الذي أمكنه التعامل مع ماما؛ كان من الممكن لغيره أن يخنقها أو يهجرها. تقبَّل عجزَهُ منذ فترة طويلة، وبدا أنه مرتاح البال أكثر بلا مسؤولية.

"أنتَ مُحقٌّ، يا أبتي. لم أكن الابنة الأكثر برًّا، غير أنَّ الحيرة واللايقين يعبِّئان حياتي مؤخرًا."

"نعم، سمعْتُ. ابتأسَتْ والدتُكِ كثيرًا بسبب ذلك. يا لهذه القسوة! يا لهذه الشدة! زوجات غير جديرات بالزوجية!" لم يكن كافيًا أن أذكر شيئًا ما ببساطة. فكلما زاد عددُ المقاطع، أعجبه ذلك. وبما أنَّ زوجته لم تُقدِّرْ مناجاته لنفسِهِ، فقد استخدم كلماته الكبيرة على أطفاله. استخدمها أثناء الاجتماع في المدرسة حيث كان يُدرِّسُ التاريخ لسبعة وعشرين عامًا، ونظرة الذهول على وجوه زملائه كانت تعطيه متعة لا حدود لها. لم يكن السبب في ذلك أنه مثقف كبير؛ امتلك فقط هواية غريبة تمثَّلَتْ في حفظِ كلماتٍ من قاموس روجيه للمرادفات الذي كان يتصفَّحه أكثر من ثلاث مرَّات.

وبينما كان يتحدث، شاهدْتُ بابا يتعاركُ مع القفل. سرَّني أنَّ ماما لم تُطْلِعْ بابا على حادثة اغتصابي؛ فلم تكن تريدني أن أَنْعمَ بهذا القدر من التَّعاطُف. فضلًا عن أنها كانت ستشعر بالقلق حيال ظهورها بصورة غير ملائمة، أو ما هو أسوأ؛ بصورة قذرة. أحاطني بذراعه ما أن دخلْتُ إلى البناية حتى لا أجلس القرفصاء أثناء تحيته. لم يحبَّ الانحناء أو الانبطاح؛ قال إنها

طرقٌ خرقاءُ وسطحية للتحية. جذبني قريبًا منه، وهمس في أذني قائلًا: "لارا في المنزل، والمعركة مُحتَدِمة. من الجيد أنَّكِ أتيتِ إذ بدأتُ أشعر بأنَّ عليَّ الفرار."

مشينا إلى الدَّاخل، بأذرع متصلة، وفكَّرْتُ كم كان شُعوري غريبًا عندما اقتربْتُ منه كثيرًا. لم تستحضر رائحتُهُ أيَّ ذكرياتٍ أثيرة. سلب مشروبُ الجنِّ بابا من طفولتِنا، ولمَّا لم يبق منها شيء، بذل أقصى ما يمكنه فعله: هرب. استجمَعْتُ قوايَ لمواجهة نقمةِ لارا. لم تكن لقاءاتُنا غير المتوقَّعة سارَّة؛ فقد حاولَتْ جاهدةً أن تهينني لكنني كنتُ أضبطُ نَفْسي دائمًا. أشفَقْتُ على لارا. ثمة جزءٌ مني يخال أنِّي خذَلْتُها. إذ توجَّبَ عليَّ أن أقف في صفِّها عندما مزَّقَتْ ماما ثقَتَها الهشَّة أصلًا إلى أشلاء. كرَّرَتْ ماما فِعْلَتَها، الآن، غير أنَّ صوتَها فَقَدَ قوته؛ تهدَّجَ، وانغمرَ في كآبة قاتمة، ثم صار ملحًّا وعالي الوتيرة. أنفاسُها غيرُ منتظمة؛ فأعاقت ما كانت تريد قولَهُ.

امتعضَتْ لارا حين رأتني. "إذًا فقد ارتأيْتَ أن تدعوَ ابنتَكَ المُفضَّلة، وتتَّحِدا معًا ضدِّي."

"في الواقع، لا علم عندهم أبدًا بقدومي. أتيْتُ فقط لزيارة عائلتي وأطمئنَّ على حال والدتي. على الرَّغم من أنَّ ذلك قد يبدو لك غريبًا ولا يُصَدَّق، فلم أعرف بالسَّكتة التي أصابَتْها إلَّا الأسبوعِ الماضي، لأنَّ أحدًا لم يتجشَّمْ عَناءَ إخباري بما حصل." نظرْتُ في عينَيْ لارا، وبينما اتَّجهَتْ نظرتي إلى أسفل، رأيْتُ بطنَها وقد كُوِّرَتْ على غير عادتِها. "هل أنتِ -"

"نعم، إنها كذلك! أرأيتِ البليَّةَ التي أصابتني؟ لقد سمَحَتْ لذاك الموسيقيِّ العاهر بأن يركبَها ويحشوَها كاملةً بطفل."

"ماما، هل تُزعجُكِ حقيقةُ أنه موسيقيٌّ؟ أم حقيقةُ أنني الآن حُبلى ولا أسعى لتحقيق أحلامِكِ؟ إنها حقًّا بليَّة! تظنين بأنني لم أجد أمرًا أفضل من

هذا لأفعله.

نقَّلْتُ نظري من إحداهما إلى الأخرى. ورثَتْ لارا من ماما غِلَّها: فبعدما بلغَتْ السابعة عشرة من عمرها، نافَسَتْها في مبارياتِ زعيقٍ كاملة، في حين كنتُ أختبئ في الغرفة المُجاورة، عاجزةً عن تهدئةِ انفعالِ أيٍّ منهما. إنهما متشابهتان جدًّا، وعازمتان على نيلِ مُراديهما مهما كلَّف الأمر، وعنيدتان للغاية.

"لارا، لا تُكلِّمي أمَّكِ بهذه الطريقة." أَدْركَ بابا أنَّ عليه أن يقولَ لها شيئًا قبل أن تُلْصَقَ صفاقتُها بمخزونِ جيناتِنا.

"أيُّ أمٍّ؟ لم تكن أُمًّا لي قط! قد تظن أني كنت أسعى وراء زوجها بأسلوبها الذي جعل مني ضحية. افعلي هذا! ادرسي هذا! التحِقي بالجامعة! تزوَّجي رجلًا يفعل هذا! متى ستتوقَّفين عن محاولة جعلي أعيشُ الحياةَ التي استعصَتْ عليكِ؟ ألا يمكنكِ أن تَسْعَدي في حياتِكِ؟"

"قد أفكِّرُ في مسألةِ التوقف بعد أن أصفع فَمَكِ الجاحدَ ذاك، أيتها المهبولة!"

"ماما، اصفعيني حالًا." تزحزحَتْ لارا إلى أن وصلَتْ حافة كرسيها، وأدارَتْ خدَّها صوب والدتها. "اصفعيني كما كنتِ دائمًا تفعلين. اصفعيني حتى تشبعي! هيَّا! اصفعيني! لماذا أهتمُّ يا تُرى؟"

"يا أمَّ بولنله، لا حاجة لذلك!" إن كان ثمة شيء واحد لا يمكن لبابا أن يُطيقَهُ فهو ما أسماه القساوة غير المبررة. كلما ضربَتْنا ماما في صِغَرِنا، صلَّيْنا؛ لارا وأنا، من أجل أن يهبَّ بابا لإنقاذنا، ويُجنِّبَنا كفَّها، لكنه كان يشيح بوجهه عنا، مغلوبًا على أمره، غير قادر على المشاهدة. تخيَّلنا وقوفَهُ في وجهِها، وتحذيرَها من إيقاع الألمِ بأطفاله، غير أنَّ هذا ما لم يحدث قط. قد

تصدر عنه كلمة تحذيرية هادئة، ثم يغيب مُخلِّفًا كلماته على قارعة الطريق.

حاولَتْ ماما أن تندفع من مقعدها ثلاث مرات، لكنها سقطَتْ إلى الوراء في كلِّ مرة. وضعَتْ لارا نصب عينيها. عندما انقطع نَفَسُها، انطلقَتْ نحو أبي كما لو أنَّ عجزَها عن حَمْلِ نفسِها كان ذنبه. "أصغِ فقط إلى نفسِكَ البائسة. ماذا تعرفُ عن تربية الأطفال؟ تُسمِّي نفسَكَ أبًا لكنك تبقى صامتًا حتى أُهْدِرَتْ كرامتُنا. لولا الأمُّ التي كدحَتْ من أجلهما، لكانتْ حياتهما بلا قيمة!" شخرَتْ وهزَّتْ رأسَها باشمئزاز.

"يا إلهي، ماما المسكينة!" أتقنَتْ لارا سخريتَها مثل أُمِّنا. تابعَتْ: "تخيلي!" "ذهب كلُّ تَعَبِكِ سُدىً. وتصوَّرْتِ أنَّكِ قادرةٌ على أن تفرضي عليَّ مَنْ سأتزوَّج وكيف سأعيش حياتي! حسنًا، المعذرة، فأنا لم أستجْدِكِ لتكدِّي من أجلي. كان عليكِ أن تفعلي ذلك من أجل بولنله وحدها."

كان بوسعي أن أضع لارا في حجمِها الحقيقي، وأصفها بالغبية، وأدفعها لأن تجهش بالبكاء الغاضب، ولكن بدلًا من ذلك اخترْتُ أن أتصرَّفَ بعقلانيَّة - الصفة الوحيدة احتقرَتْها فيَّ. "ماما، مَنْ ذا الذي تودُّ لارا الزواج منه؟ وما سببُ بُغضِكِ له؟"

"أليس عازفَ الغيتارِ ذا الشَّعْرِ المعقود؟ إنه يتبختر مرتديًا بنطال جينز ممزق عند الرُّكبتين، وكلما أتى إلى هُنا، فاحَتْ رائحة سجائره في المنزل كله. كما أنه يتحدث مثل أولئك الجمايكيين، أيضًا - "لا، يا رجل،" "نعم، يا رجل." كان عليَّ أن أسأله يوم أمس: هل أبدو كالرجال بالنسبة لك؟ وماذا فعل يا ترى؟ لم يُولِني أيَّ اهتمام."

غطَّى بابا فمَهُ بكفِّهِ إلَّا أنَّ عينيه برزتا من فرط الضحك. "في حقيقة الأمر، يا ماما، أمُّهُ جامايكيَّة. أجل، شعرُهُ معقود، وتفوح منه

رائحة السجائر. لكنَّكِ تعرفين ما أعني. أحبُّهُ بهذه الطريقة، كما أنني أنا من ستعيش معه." حَكَّتْ أختي بطنَها.

ثمة صمتٌ مُربِك.

"ماما، بقيت مسألة واحدة فقط." التفت الجميعُ للاستماع إليَّ. "أريدكِ أن تفكِّري مليًّا في العواقب المترتبة على كلماتِكِ قبل أن تنطقيها. هذا الطفل الذي تحمله لارا في أحشائها، ماذا تريدين منها أن تفعل به؟"

توقَّفَ بابا وجلس باعتدال بعد أن انتعل حذاءه. ساد الهدوء الشديد أرجاء الغرفة لدرجة أنَّ الجميع سمعوا تكَّاتِ ساعة الحائط. أشاحَتْ ماما بوجهها بعيدًا، مُدرِكَةً أنَّها في مأزق. فتحَتْ فمَها لتتكلَّمَ مرَّتين، غير أنَّها أغلقَتْهُ ثانيةً. لكأنَّ الوجودَ الفعليَّ للطفل، مع أنه لم يُولَد بعد، تبادر إلى ذهنِها عندئذ فقط. لم يكن هذا واحدًا من أعمال لارا الطائشة، بل جنينًا سيتكلَّمُ، ويمشي، ويضحك يومًا ما. وإن كنتُ حقًّا عاقرًا، فقد تكون هذه فرصتَها الوحيدة لتحظى بمولودٍ من ابنتِها. جلسَتْ هناك تحدق في فحولة والد ما قد يكون حفيدها الوحيد. كانت تئنُّ وتنظر من وجهٍ إلى آخَر. حتى لارا لم تستطع أن تحتمل منظر ماما وهي تحكُّ ساقَها برِجْل الكرسي، مثل كلبٍ يحكُّ بطنَهُ؛ زحفَتْ نحو قدمَيْ ماما ودفنَتْ رأسَها في حضنها. لم تقل ماما شيئًا؛ وضعَتْ يدها على رأس لارا ومسَّدَتْ شعرَها بأطراف أصابعها.

عندما عادَتْ لارا إلى كرسيها، نظرَتْ إليَّ وقالَتْ "شكرًا لكِ." قرَّبَ بابا بُرجمَيْ إبهاميه من شفتيه وأغمض عينيه. عمَّ الارتباكُ الأجواءَ في بادئ الأمر، ولكن سرعان ما تحدَّثنا. تحدَّثنا عن نقص الكيروسين والعذاب الذي تُسبِّبُهُ لنا الطوابيرُ في محطات الوقود. ضحكنا جميعًا عندما وصف بابا انزعاجَهُ من النباح المتواصل لجرو الجار. وأعلن أنه خطط لاختطافه وإلقائه

في قرية نائية. قهقهَتْ ماما كثيرًا لدرجة أنها أمسكَتْ جبهتَها واهتزَّتْ في مقعدها. كانت ضحكة من الأعماق في آخرها همهمة. لم يكن صوتًا مألوفًا غير أنِّي سمعْتُهُ من زمنٍ بعيد، قبل أن يكشف بابا عن شغفه بعائلة غوردن بوقتٍ طويل. تخايلَتْ لي صورةٌ جمعَتْنا نحن الأربعة في الغرفة ذاتها: ماما تحمل لارا في رحمها، وبابا يصفق بيديه، وأنا أرقص في أرجاء الغرفة لأُسلِّيَهم. عائلة سعيدة.

نظرْتُ إلى شِفاه الجميع ولاحظْتُ كيف أصبحَتْ أصواتُهُم واضحة، وصافية، وشجيَّة، وكيف تلاشَتْ الأصداءُ المكتومةُ التي اعتادَتْ أذناي على سَماعها. قلت وداعًا، بعد ظُهر ذاك اليوم، دون أن أخبر ماما عن مرض ساغي أو زيارتي للمشفى. لم أُرِدْ أن أخلق أملًا زائفًا. فلا تزال الأمور غير حاسمة، كما أنني عرفْتُ أنَّ أمامي تحديات، مثل كيف سأخبر بابا ساغي عن الموعد. فلم يبدُ الوقت مناسبًا لطرح مثل هذه الأمور.

وما أن انطلقْتُ في الشارع، حتى توقَّفَتْ إلى جانبي سيارة مألوفة، مُطلِقَةً صوتَ صريرٍ عالٍ. سيغَنْ يقود المركبة، وأمُّهُ تجلس في المقعد الأمامي. أطلق الزَّامورَ لينبِّهَ الحارسَ لفتح البوابات. مع أنها ناهزَت الستين، إلَّا أنَّ جلدَ والدةِ سيغَنْ كان يتلألأ مثل ثمرة شجرة باباو قشدية مشروحة. أنفها مستقيم وعنقها طويلة وبارزة.

"ألستِ واحدةً من فتيات عائلة أكانبي؟ ما اسمك مرة أخرى؟" سألَتْ، فيما كانت تشير بإصبعها النحيل نحوي. صكَّتْ أسنانها عندما تكلَّمَتْ؛ لذا لم تتحرَّكْ إلَّا شفتاها. لم تُرِدْ أن تبدو أنها تبذل أيَّ جهدٍ حقيقيٍّ.

ردَّ سيغَنْ قبل أن أفعل. "اسمُها بولنله. تتذكَّرين بكل تأكيد، أليس كذلك؟"

رَمَتْهُ أُمُّهُ بنظرةٍ جانبية مُستهجِنَة. "كيف حالُ أمِّك؟ هل تحسَّنَتْ؟"

"أجل. كثيرًا. شكرًا أمي." بدا ذلك غريبًا. بوسعي النظر إليها والتحدث معها. ما من ذعر أو تلعثم؛ خرج صوتي كما أردْتُ تمامًا.

"حسنٌ. ماذا تعملين الآن؟" تفحَّصَتْ طلاءَ أظافرها الفضي، حيث بدا بوضوح أنها غير مهتمَّة. كانت ثرية جدًّا، ولم تكن في حاجة إلى العمل. أرادَتْ أن تُذَكِّرَني بذلك.

"لا أعمل في الوقت الحالي، لكنني أفكر في الحصول على وظيفة. وإذا لم أتمكن من إيجاد ما أريده، فسأعمل على تحسين إمكانيَّاتي بارتياد الجامعة والحصول على درجة الماجستير."

اتَّسعَتْ عينا كلٍّ منهما في السيارة؛ إذ اندهش سيغَنْ من ثقتي بنفسي، وأمُّه من الاستخفاف. تعافى سيغَنْ من اندهاشِهِ أوَّلًا. "كل التوفيق إذًا." بقوله تلك العبارة، دفع ذراع تغيير السرعة إلى الترس الأول (السرعة الأولى). قهقهَتْ أمُّهُ وضحكَتْ طوال الطريق في دربهما الجميل.

رنَّتْ ضَحِكاتُها في أذنيَّ لفترة طويلة حتى بعد أن توقَّفَتْ عن الاستهزاء بي، وتسخيفِ طموحاتي. لكنني شعرْتُ بالقوة والجرأة عوضًا عن أن أكون محطَّ سخرية. لم تضحكي في الليلة التي طلب منك لصوصٌ مُسلَّحون أن تسحبي أذنيك وتقفزي مثل ضفدعة؛ هكذا قلتُ لنفسي.

نقلني عقلي إلى تلك الليلة عندما جلبَتْ الرِّيحُ المُتمهِّلةُ العواصفَ الترابية، وأُغلق الجميعُ نوافذَ بيوتهم تحسُّبًا للمطر. كانت واحدة من تلك الليالي التي انتظرها الجميعُ بلهفةٍ، رغم برودتِها، ليناموا بقطعة قماشٍ خفيفة.

طلب مني سيغَنْ أن أذهب إلى غرفة نومه في تلك الليلة. كان يصفر لحنَ أغنية "كازانوفا" ما يعني أنَّ الطريق آمنة. أمَّا إذا لاح الخطرُ، أطلق

صفيرًا لأغنية أنيتا بيكر "انتبه لخطوتك Watch your Step".

"ثمة شرٌّ يكتنف ذاك الفتى. طريقته في الصَّفير من خلف الجدار مخيفة. ربما يُحادث الأشباحَ في عالَمِ الأرواح." أرهَفَتْ أمي سمعَها باتجاه الصفير.

ركضْتُ بسرعةٍ إلى غرفة نومي حتى لا ألفتَ انتباهَ ماما إليَّ. بوسعي الاحتفاظ بالأسرار غير أنَّ لساني لا ينطقُ الأكاذيبَ الصَّفيقة مطلقًا. كنتُ أندهشُ يوميًّا أنَّها لم تشمَّ رائحةَ سيغَنْ على جسدي أو تلاحظ الوزن الذي فقدْتُهُ بعد عملية الإجهاض. حاولْتُ جاهدةً أن أتوقَّفَ عن ربطِ ما كُشِطَ من بطني بالصِّغارِ الآدميين الذين يُبَقبقون على ظُهور أمَّهاتهم. سَكَنَتْني الآصرةُ بينهما ولم تُفارِقْني.

كان سيغَنْ في سنته الجامعية الثالثة في ذلك الوقت، وكنت لا أزالُ أنتظر تلقِّيَ خطاب قبولي. غالبًا ما كان يصطحبُ معه الفتيات إلى المنزل ويُخبِّئُهنَّ في غرفته أثناء عطلات نهاية الأسبوع. أَحَبَّ والدُهُ فعلتَهُ هذه؛ إذ أَعجبَهُ أن يكونَ ابنُهُ فحلًا وزيرَ نساء. لكنَّ أمَّهُ أشارَتْ إلى صديقاته بالعاهرات. كانت تقول: "أيُّ ابنةٍ هذه التي تقول لوالدَيْها إنها ذاهبةٌ إلى الجامعة، لكنها بدلًا من ذلك تتسكَّعُ في الأرجاء وتنام في بيوت الرِّجال. يا له من أمرٍ مُشين!" وتمسحُ العرق عن أنفها بمنديلٍ مُطرَّز.

ارتديْتُ ثيابَ النَّومِ، في تلك الليلة، وقفزْتُ تحت بطَّانيَّتي وبحوزتي أحدُ كتبِ سلسلة ميلز وبون الرُّومانسيَّة. وددْتُ أن يظنَّ الجميعُ أنِّيَ أسلَمْتُ للنوم مبكِّرًا، مُدركَةً أنَّ لارا ستفعلُ مثلي. غالبًا ما كانت تقلِّدُني لئلَّا يبدوَ أنَّ روحَ المُبادرة والفطنة ينقصانها. إذًا، فقد كنتُ قدوتَها التي تأسَّتْ بها. ليتها عرفَتْ! سمعْتُ وقعَ خطواتِها بعد مُضيِّ عشر دقائق فقط، وسرعان ما

هَجَعَتْ تحت بطّانيّتِها مثل مومياء مُحنَّطة، وغابَتْ عن وعي العالَم.

تسلَّلْتُ خارج غرفة نومنا وتوقَّفْتُ عند باب غرفة والدَيْنا. أنصَتُّ بترقُّبٍ غير أنِّي لم أسمَعْ إلَّا شخيرَ والدي. لا أشكُّ في أنَّ ماما وضعَتْ وسادةً على رأسِها لتنام. فتحْتُ البابَ الخلفيَّ، ومشيْتُ بحذرٍ على رؤوس أصابعي نحو شبكة تصريف المياه في الجزء الخلفي من المبنى. وفيما كنت أنسلُّ في الأرجاء خِلسةً، حملْتُ معي دلوًا لأُغافِلَ أيَّ شخصٍ قد يراني. ثمة عددٌ لا نهائيٌّ من الأشياء التي قد تصنعها امرأةٌ شابَّةٌ بمثل هذا الدَّلو. لحسن الحظ، لم يكن لقاءُ ابنِ مالكِ المُجمَّع أحدَها.

ولمَّا لم تكن الأحجارُ الإسمنتيَّةُ، جهةَ السُّورِ المُحاذيةَ لنا، مستويةً أو مطليَّةً، دفعْتُ أخمصَ قدمَيَّ على حافاتها وتسلَّقْتُ إلى الأعلى. عندما نزلْتُ على الجهة الأخرى، لعق كلبُ حراسةِ سيغَنْ قدمَيَّ. ضحكْتُ أثناء نزولي فوق مرجتهم الخضراء المُشذَّبة.

غرفةُ سيغَنْ مُشرَعة. لطالما ترك لي بابَها مفتوحًا. عاري الصدر، جلس على سريره يقرأ عددًا قديمًا من مجلَّةِ تايم. نفض رمادَ السَّجائر من منفضة وضعها على فخذه باتِّزان. وعندما أحسَّ بمجيئي، ألقى بالمجلَّة، وسألني: "هل ستمكثين الليلةَ كلَّها؟"

"لا، تركْتُ بابا مطبخنا مفتوحًا. لا أعتقد بأني سأجازف."

"أنتِ خائفة!"

"أولسْتَ كذلك؟" كتَّفْتُ ذراعَيَّ.

نخر مُتذمِّرًا ودخل حمَّامَهُ المُلحَق (الدَّاخلي). ثمة حوضُ استحمامٍ مرجانيٌّ، بالإضافة إلى مرحاضٍ وشطَّافةٍ (حوض استنجاء) مُلائمين.

"لم يعد والدي إلى المنزل بعد. لا أصدِّقُ أنه يفعل كلَّ هذه البذاءة.

فقد رآه فِنْسِنت في حانة كوتن كلوب فيما كان يشتري البيتزا لفتاتين شبه عاريتين." دفع باب الحمَّام وفتحه بإصبع قدمه الكبير. "هل سبق له أن فكَّر كيف سيبدو ذلك؟ فلربَّما كنتُ برفقة فِنْسِنت، أو جلسْتُ مع صديقاتي أحتسي شرابًا، ولَكُنَّا كلّنا رأينا والدي يتسكَّعُ وعلى كلِّ ذراع فتاة." كفَّ عن الكلام لمَّا بدأ يتبوَّل، ولم يُكمل حتى أفرغَ آخرَ قطرة.

"ربما كان في اجتماع عمل مع شريكتيه أو ما شابه." لا يعجبني عندما يصير نزقًا؛ لذا فكَّرْتُ فيما يمكن أن يُهَدِّئَ من أعصابه.

"سَمِّها ما شئتِ،" غمغم قائلًا. "إنه مجرد بابُ رزقٍ للفتاتين ومن الواضح أنَّ والدي شريكٌ راغب وحريص." أخذ فرشاة أسنانه من الكأس المعدنية مُحدثًا رنينًا.

تشتدُّ حذاقتُهُ للغاية كلما احتدَّ. غطَّيْتُ فمي حتى لا يسمع ضحكتي المكتومة. "سيعود إلى المنزل قريبًا. إنه يعودُ دائمًا."

"أجل، يعود دائمًا. سكرانَ حتى الثمالة. كان في مقعد السَّائق عند انبلاج الصبح في الأسبوع الماضي. توجَّه بسيارته إلى المُجمَّع، وحبس نفسه فيها، وانهار على عجلة القيادة. قلقًا جلس إلى جانبه الحارسُ الليلي، دون أن يدريَ إن كان ميتًا أو حيًّا أو على وشك الاختناق." فرَّشَ سيغَنْ أسنانَهُ لبعض الوقت، وبصق في المغسلة. "إنها حقًّا لمعجزة أن يعثر على طريقه إلى المنزل في الليل."

اعتاد سيغَنْ أن يُشَغِّلَ مُكيِّفَ الهواءِ بأقصى طاقته، ففي الوقت الذي يحلق فيه ذقنَهُ، أكون قد استلقيْتُ تحت اللحاف. استكنَّ إلى جانبي واضَّجَعْنا هناك لعدة دقائق. كان شارد الذهن غير أني وجدْتُ جسَّ جسدِهِ مريحًا، عبَّأَ جسدُهُ كلَّ أجزائها. لا أمانع إن كانت ممارسةُ الجنسِ الثَّمنَ الذي

وجب عليَّ أن أدفعه لأكونَ قريبةً من أحدهم. انتظرْتُ. عرفْتُ أنه سيتكلَّمُ عمَّا قريب. ولمَّا فعل، عرفْتُ أنَّ الأمرَ يتعلَّقُ بوالده.

"ها هو قادمٌ الآن،" قال ثم قفز فجأة ليُطفئَ مُكيِّفَ الهواء. تجمَّد سيغَنْ من فوره، وأنصتَ، عندما سمعنا صوتَ عيارين ناريين مكتومين متتاليين. بدا واضحًا أنهما أتيا من مكان مجاور. أسرع سيغَنْ إلى الحمَّام ليحضر الرُّوب؛ أمَّا أنا، فقفزْتُ والرُّعبُ يتملَّكُني.

"سأخرج إلى هناك،" أخبرني سيغَنْ فيما كان يرتدي بنطاله الجينز.

"لا تكن أحمقًا. علينا أن نختبئ."

"والدي في الخارج!"

"أتعتقد أنه يريدك أن تُقْتَلَ؟"

فكَّر للحظة وبطريقةٍ ما تفهَّمَ مَنْطِقي المجنون. لم يشتبه في أنَّ كلَّ ما أردْتُهُ هو أن يبقى معي.

"أين سنختبئ؟" سأل.

"في الخارج. فلنختبئ في الخارج إذا ما دخلوا إلى المنزل."

"لا. قد يكونون في طريقهم إلى هنا بالفعل. هذه هي الطريق الوحيدة إن لم يتمكَّنوا من اجتياز الباب الأمامي. إنه مضادٌّ للرَّصاص."

"لنختبئ في الحمَّام إذًا. بمقدورنا تسلُّقُ السَّقفِ عبر البلاط."

استعنْتُ بأصابعِهِ المتشابكة درجةً أعتليها، ثمَّ رفع سيغَنْ نفسَهُ بعدي وأعاد بلاطَ البوليسترين إلى مكانه. احتوى السَّقفُ على مئات الثقوب التي مكَّنَتْنا من رؤية ما بداخل الحمَّام. وبما أنَّ باب الحمَّامِ مفتوحٌ أيضًا، استطعنا أن نرى ما في غرفة النوم أيضًا. تجهَّم سيغَنْ عندما أدرك أنه ترك الأنوارَ مُضاءةً.

حطَّمَ الرَّصاصُ قفلَ بابِ غرفةِ النوم فجأةً، وركل البابَ بقدمِهِ رجلٌ قصيرٌ وبدينٌ، يرتدي قميصَ كرةِ قدمٍ دون أكمام. زمجر بغضبٍ قائلًا: "اجلبوا الأبلهَ ليُرشِدَنا إلى الخزنة." ومع أنَّ باب الحمَّامِ كان مفتوحًا على مصراعيه، إلَّا أنه شقَّهُ بالرَّصاصِ إلى نصفَيْن. جرَّ رجلان، يرتديان الجينز الأسود، والدَ سيغَنْ من ياقةِ قميصِهِ. بالكاد مشى. كان منتفخ الوجه، ينزف بغزارة من جرحٍ بليغٍ في جبهته. ثمة بقعة دائرية داكنة على بنطاله، والدَّمُ يتقطَّرُ منه في كلِّ خطوة. غطَّى سيغَنْ فمَهُ بكلتي راحتيه؛ وبدا كما لو أنَّ عينيه ستسقطان من رأسه.

"في أيِّ اتِّجاه؟" لطم رجلٌ رابعٌ والدَ سيغَنْ على مؤخرة رأسه، ودفعه في اتجاه الشُّرفة المُؤدِّية إلى المبنى الرَّئيس. ومع أنِّي كنتُ مذعورةً بالقدر نفسه، إلَّا أنَّ دموعَ سيغَنْ التي نزلَتْ على وجهه أَسَرَتْني. لم يبكِ قطُّ طوال السنوات التي عرفْتُه فيها. ولا حتى عندما اصطحبني إلى الممرضة لإجهاض الجنين الذي تصوَّرَ أنه طفلُهُ. ورغم أنه أدرك مقدار الرُّعب الذي تملَّكني، لامني لأنني لم أُصمِّمْ على ذهابه لشراء واقٍ ذكريٍّ. لم يُواسِني مرة أو يعترِفْ بمأساويَّة الحادثة.

مَدَدْتُ إليه يدي لكنه تظاهر بأنه لم يرها. تَمَنَّى لو أنِّي لم أكن هناك. ليس لينقذني من الأهوال التي رأيتها بل لأنه كان مُحْرَجًا من أنِّيَ أنا؛ النزيلة الفاجرة، أشهدُ مثل هذه المأساة العائلية الشخصية. أدركْتُ في تلك اللحظة بالذات أنني لا أُساوي شيئًا عنده. ربما كنتُ أيضًا مجرَّد عتبةِ بابٍ خشبية أُخرى يعلوها التراب. اعتقدْتُ أنني لم أكن جديرةً به.

ساد الصَّمتُ في كل مكان، لكننا عرفنا أنَّ نزولَنا من مخبئنا غير مأمون.

أُصيبَ سيغَنْ بتشنجات في ساقَيْه غير أنه صكَّ على أسنانه. لكأنها ساعاتٌ طوال تلك التي مرَّتْ حتى دخلَتْ أمُّ سيغَنْ الغرفةَ تحمل على رأسِها خزنةً معدنية. كانت ترتدي قميصَ نومٍ طويلٍ، وظلَّ رجلٌ، من الاثنين اللذين يرتديان الجينز الأسود، يلكزُ ردفَيْها برأس مُدية. أجالَتْ نظرَها في أرجاء الغرفة، واتَّجهَتْ نحو الباب الخارجي. في طريق عودتِها، بعد أن وضعَتْ الخزنةَ في سيارة زوجها الجديدة من نوع BMW، طلب منها السَّارقُ المُسَلَّحُ أن تجذبَ أذنَيْها وتقفزَ كالضفدع. وثبَتْ بقدر ما استطاعَتْ في قميصها الحريري فيروزي اللون، تُحرِّضُها على ذلك شفرةُ المُدية الحديدية الصدئة. كانت تبكي وعرفْتُ أَنْ لا علاقةَ لدموعِها بالخزي. ظلَّتْ ترتجفُ وكأنَّ شيئًا ما زلزلَها حتى النُّخاع. عرفْتُ أنَّ والدَ سيغَنْ مات، لكني لم أنبس بكلمة.

غادر اللصوص في الساعة الرابعة صباحًا مُحَمَّلين بآلاف الدولارات النقدية وحُلِيٍّ عثروا عليها في خزنة أخرى دُسَّتْ بذكاءٍ خلف صورةِ جدَّةِ سيغَنْ. حال سمعْنا الصَّريرَ الذي أحدثَتْهُ سيارتان على الطريق، أزاحَ سيغَنْ بلاطَ السَّقفِ وقفز نحو الأرض. لم ينتظر ليساعدني؛ جرى بأقصى سرعته من الشُّرفة إلى المدخل الرَّئيس.

زحفْتُ مُتسلِّلةً خارجَ المنزل وصعدْتُ عائدةً إلى جهتي من السُّور. وبينما انتشلْتُ الدَّلوَ وتوجَّهْتُ إلى البئر، فكَّرْتُ في الكارثة التي كنتُ سأتسبَّبُ بها بتركي البابَ مفتوحًا. فلو قرَّر اللصوص دخولَ مُجمَّعِنا أيضًا، لسَهُلَ الأمرُ عليهم. لربما أغراهم ذلك للدخول إلى منزلنا أيضًا، مع أننا لا نملك شيئًا ذا قيمة. وضعْتُ دلوَ الماء وسط أرضيَّةِ المطبخ، وزحفْتُ إلى سريري. عمَّ الهدوءُ أرجاء المنزل بأكمله. إذا سألَتْني ماما عن أيِّ شيء في الصباح، سأحاول أن أكذب.

لم أحتج لذلك. فبعدما استيقظْتُ، كان الحيُّ بأكمله محزونًا. احتقنَتْ كلُّ العيون في الجِوار بالدَّم، وتوقَّفَتْ سيارات على طول الطريق في شارعنا. ذهب والداي إلى منزل المالك، مثل كلِّ المستأجرين، لتقديم واجب العزاء، ولكن لم يُسْمَحْ لهم بالدخول. امتلأ المنزلُ بالوجهاء من عِلية القوم؛ الذين رفضوا أن يُلوِّثَ الفقراءُ سَجَّادَهم الفارسيَّ.

لم أرَ سيغَنْ لعدَّةِ أيَّام. وقفْتُ بالقرب من بوَّابتنا، يوم الجنازة، لعدَّة ساعات، علَّني ألمحه. وبينما كان الموكبُ الجنائزيُّ يسيرُ نحو المقبرة، نظر باتجاهي، لكنه نظر للأمام لمَّا رآني. لا شفة مزمومة ولا حاجبًا مرفوعًا تقديرًا لوقفتي ويقظتي.

الفصل الثامن عشر

بذرة

تباطأت حركة المرور في شارع سانغو وتحولت إلى ارتجاجاتٍ متقطعة.

تابع بابا ساغي حديثه مع سائقه بقوله: "تبدو سعيدة ومُطْمَئِنَّة." "وَلَّت الكوابيسُ؛ فلدينا الكثير لنكون شاكرين." صمَّمَ على اعتناق التفاؤل.

مَسَّدَ تاجو عجلة القيادة كلما توقفوا وبدأوا. ثمة جنازةٌ في المقبرة المحلية، وها قد تَجَمَّعَ عددٌ قليلٌ من الشُّبَّان عند البوَّابات يُغنُّون التَّرانيمَ والأغنيات الجنائزية الحزينة. يُحْتَسى مشروبُ البراندي في شربةٍ واحدة، وتنتثرُ الزُّجاجاتُ الفارغةُ على الأرض حول بوَّابةِ المقبرة. للرِّجال أيادٍ سوداء معقودة بِشُعورهم غيرِ المُصفَّفَة. حمل أحدُهُم صورةً بإطارٍ لشابٍّ يظهر بنصفٍ مهندم وابتسامة ثملة. إذ نقلَتْ كلَّ زيفِ صورةِ استوديو التصوير؛ لا بدَّ أنَّ هذه صورةُ الوضعيَّةِ الثالثة أو الرَّابعة على الأقل. بعد بضع لحظات، اجتازَتْ حافلةٌ جامعيَّةٌ ملأى بالشابات حركة المرور الضاغطة وأودَعَتْ راكباتِها عند مدخل المقبرة.

تباطأَتْ حركةُ السيارات، وحملقَ كلُّ مَنْ فيها من ركَّابٍ بعيونٍ مُشفِقة.

عرفوا حقَّ المعرفة أنَّ من المهم أن يثملوا قليلًا قبل دخول المقبرة؛ إذ كانوا بحاجة إلى قليلٍ ممَّا يُخَدِّرُ العقلَ ويُبَلِّدَ الحَواسَّ. ليس سرًّا أنَّ المقبرة كانت مزدحمة. إذ تعكر صفو كل شبر من الأرض. ومع ذلك، دخلت النُّعوشُ وخرج حاملوها مرتدو القفازات مُودِعين أعباءهم في قبورٍ يبلغ ارتفاعها ثلاثة أقدام.

أُقْحِمَتْ الجثامينُ في اتحادات بغيضة. إذ دُفِنَ رجال طائشون فوق أرامل عفيفات؛ وأطفال فوق رجال مُسنِّين؛ وفتيات فوق نساء أصغر من أن يكنَّ أمهاتهن. لن تقبل الطبيعة كلية المعرفة مثل هذا التزاوج: دُمِّرَت القبورُ الضحلة بفعل الكلاب وما نبذته الكلاب، عادت الأمطار الغزيرة إلى المنطقة السكنية على الجانب الآخر من الطريق.

تلبَّدت الغيومُ أثناء مرور تاجو ببوابات المقبرة. بصق بابا ساغي من النافذة بعد أن توقَّفَ ليحدِّقَ في وجوه المُعزِّين فاغرًا فاهه بدهشة. "إذًا، فالمُختصُّ هو من يريد لقائي؟"

"نعم،" قالت بولنله.

"الآن، ذاك رجل فَطِن. يدرك مسألة أن يكون للمرأة سيد تمتثل لأوامره. على عكس ذاك المعتوه الذي قابلناه قبل أيام. من الواضح أنه يفهم أهمية الزوج!"

قرَّرَتْ بولنله أنَّ من الأفضل ترك الأمور مبهمة. فقد كان صعبًا بما فيه الكفاية استجماع شجاعتها لدعوته. في الواقع، لم يكن لهذا أن يتحقق لولا زيارة بابا ساغي لابنته في وقت متأخر من الليل.

"هل ستنام طوال الليل الآن؟" سأل فيما كان يفتح بابَ غرفة النوم.

كانت بولنله تمسح حبَّاتِ العرق من جبين ساغي. "تكلَّم بهدوء، من فضلك؛ فقد نامَتْ للتو."

أخفض بابا ساغي صوتَهُ حتى همس. "هل ستنام طوال الليل الآن؟"

"لا. إنها تصحو كلَّ بضع ساعات، عندما يصير الألمُ غير محتمل."

"ألم ينفَعْها الدواء؟" مدَّ يده ليمسح على رأس ابنته لكنه استردَّها خوفًا من أن يزعجَها في غفوتِها. "ربما يجب أن نعيدَها إلى المستشفى." نظر إلى بولنله آمِلًا في الحصول على إجابة.

"يمكنك ذلك. لكنكَ قلتَ بنفسِكَ إنَّ الأطبَّاءَ يتوقَّعون أن تتعافى ببطء. بالمناسبة، طلب الدكتور دِبْيا لقاءَكَ. إنه الطبيب المختص الذي التقيته عندما ذهبْتُ لموعدي في مستشفى الكلية الجامعية. قال إنه من المهم أن يتحدَّث إليك." سار الأمر بصورة رائعة.

"إذًا، فقد ذهبْتِ إلى الموعد؟" لم يتوقَّعْ أنها ستُبادر لذلك.

"نعم، واستلمْتُ نتائج الفحوصات. قال إنه من المهم أن يلتقيك. غدًا، في الواقع."

"ولكن لِمَ لم تخبريني من قبل؟"

"وما فائدة علاج الثعلبة بينما يشكو الجسم كله من مرض الجذام؟ سيطرت حالة ساغي على عقولنا.

زفر بابا ساغي عميقًا. "أنتِ مُحِقَّة. حسنًا، إن استدعاني الطبيب، فسألُبِّي النداء. يجب أن تُعالَجُ كلُّ أمراضِ الجسد." مشى على رؤوس أصابعه نحو الباب.

"الموعد في الساعة العاشرة والنصف."

"أرجو أن نصحوَ مرتاحين!"

قليل من أنصاف الحقائق، وقليل من الحقائق المسكوت عنها، وأُنْجِزَت المهمَّة!

لم يكن الدكتور دِبْيا في مَزاجٍ مُرحِّب؛ عندما دخل بابا ساغي وبولنله إلى عيادته. كان ينقر غطاءَ قلمه في أذنه، كما لو أنَّ شيئًا قفز إلى الداخل، أثناء ذلك، فقط ليزعجه.

"صباح الخير، دكتور." أَمِلَ بابا ساغي في أن يفرض عليه انشراحَ صدرِهِ وحُبورَه.

"اجلس من فضلك. أتصور أنك السيد ألاو؟" نظر إلى رأس القلم النظيفة باشمئزاز وألقى به في سلَّة المهملات.

"نعم. أنا الزوج." وضع يديه على صدره. "وهذه هي الزوجة التي لا تستطيع الإنجاب." أشار إلى بولنله بسبَّابتيه الاثنتين كما لو أنَّ ثمة احتمال ضئيل بأن يخطئ الطبيب بينهما.

"حسن، حسن. الآن بعد أن ميَّزْتُ بينكما، اسمحا لي أن أُطلِعَكما على سبب وجودٍ كما هُنا. الآن، للوصول إلى تشخيص قاطع حول عدم قدرة زوجتكَ على الإنجاب فمن المهم فحص الزوجين الآمِلَيْن بأن يصيرا والدين سويًّا. أجرينا بعض الفحوصات على السيدة ألاو بالفعل، لذا عليكَ الآن أن تخضع لبعض الاختبارات الأولية، أيضًا. سيساعدنا هذا الأمرُ في تحديد كيفية التغلب على الصعوبات." تجنَّبَ استخدامَ كلمة "مشكلات."

"أرجو ألَّا تُلمِّحَ أنني قد أكون سبب هذه الصعوبات." نظر بابا ساغي إلى بولنله نظرة عجلى، ثم قرَّبَ وجهَهُ من الطبيب بقدر ما سمحت الطاولة. "دكتور، اسمع، أنجبْتُ الكثيرَ من الأطفال. لدي أبناء وبنات. الشيء الوحيد الذي لم يُنعم به الله عليَّ هو التوائم. لعلمكَ، لا يزال هناك وقت لذلك. أخبرني إذًا." صَمَتَ، ثم سأل: "ألن تكون الفحوصات التي تريد إجراءها لي مضيعة للوقت؟"

اتكأ الدكتور دِبْيا على مقعده وخلع نظارته. نظر إلى بابا ساغي باهتمام شديد فيما كانت نظارته تتأرجح على إصبعه مثل عصا بندول الإيقاع. "سيد ألاو، هل ترى ذاك الطابور في الخارج؟"

"نعم. ينتظر الكثير من الناس خارج هذا الباب."

"حسن. هل تعرف سبب وجودهم هناك؟"

"أليسو هنا من أجل رؤيتك؟" لم يعرف بابا ساغي إلامَ يرمي لكنه كان مرتابًا على الرغم من ذلك.

"صحيح، إنهم كذلك. لكنهم هُنا أيضًا لأنَّ لديهم إيمانًا مشتركًا."

فتح بابا ساغي فمه ليتكلم إلَّا أنَّ الطبيب رفع إصبعع منفردًا وأوقف الرَّجلَ قبل أن يبدأ. "إنهم يعتقدون أنني أعرف ما أقوم به. يعتقدون أنني لا أجلس هنا لأختلق الأشياء. يعتقدون أنني عندما أطلب منهم فعلَ شيءٍ ما، فهذا لأنني أعتقد أنه لمصلحتهم. وعلى أيِّ حال، لم أُجَرْجرهم إلى هنا من بيوتهم، أليس كذلك؟"

"حسنًا - "

"لا حسنًا، ولا لكن، ولا جدال، ولا شكَّ في فهمي لأمراض النساء والتوليد." التفتَ إلى بولنله. "سيدة ألاو، إذا كنتِ تبحثين عن حل، بوسعكِ أن تنصحي زوجَكِ ربما. يجب إجراء تحليل للسائل المنوي لاحتساب عدد الحيونات المنوية. يتطلب هذا أخذَ عيِّنةٍ من السَّائل المنويِّ لزوجِكِ وفحصها في المختبر. مختبرات المستشفى متاحة حتى الساعة الثانية عشرة. كلما عجَّلنا بأخذ العيِّنة، كان ذلك أفضل. كتب في عجالة على استمارة صفراء، وسلَّمها لها، مع وعاءٍ شفَّافٍ صغير. أوضح تصرُّفه بالكامل أنه عيَّنها وسيطًا.

"شكرًا لك، دكتور."

"وكيف حالُ الرَّأسِ؟"

"أفضل بكثير." ربَّتَتْ على وشاحِها بحذر، وابتسمَتْ للطبيب ابتسامةً خجولة.

عَتَتْ رياحُ الهرماتان العام الماضي، وتلطَّخَتْ الجدرانُ بطبقة رقيقة من الطين الدافئ. كانت النوافذ عالية جدًّا لدرجة أنَّ بابا ساغي؛ طويل القامة بصورة استثنائية، لم يستطع معاينة أرض المستشفى. مثل الغرفة، طليت بالأبيض الباهت. ثُبِّتَتْ مجموعةٌ مُؤلَّفَةٌ من جهازَيْ تلفاز؛ بقياس عشرين بوصة، وفيديو، على حاملٍ مُتحرِّك؛ أسفلَها علبةُ فازلين كبيرةٌ موضوعةٌ على رفٍّ.

أمسك بابا ساغي قضيبَهُ بيده كما لو أنها فاتورة ضخمة لم يكن يتوقع دفعها. تسمَّرَتْ عيناه، في الفيديو، على الرَّجلِ الذي غمَّسَ لسانَهُ في عانة امرأة. كان مندهِشًا ومُشمئزًّا، في آنٍ معًا، لاستجابةِ عضوه لِما بدا أنه من المُحرَّمات على نحوٍ مُثيرٍ للقلق. وبينما كان حجمُ قضيبه يزدادُ في يده، عصره بكلِّ قوَّته ليردعَهُ ويُوهِنَهُ. إلَّا أنَّه لم يتوقَّف عن الانتفاخ، فاستمرَّ هو في عصره. راقب المرأة الشقراء فيما كانت تمص قضيب شريكها.

"مستحيل!" امتلأ فمُ بابا ساغي باللعاب. نظر من ناحية قضيبه إلى الوعاء الصغير. فحص خصيتيه ونكزهُما بلطف، على أمل أن يخرج منهما شيء. لم تخرج إلا قطرة. لمَّا لم يكن بوسعه تحمُّلُ ذلك، أقفل سَحَّابَ بنطاله وفتح باب الغرفة. كانت بولنله جالسةً على مقعدٍ في نهاية الممرِّ، وذقنها مدسوسة في عقفةِ راحةِ يدِها. وممرِّضةٌ جالسةٌ في الجِوار تنفخ فقاعات العلكة أثناء تصفُّحِها كومةً من الاستمارات.

"أيتها الممرضة!" نادى بابا ساغي، واختار المُحادثةَ الأقلَّ حَرَجًا بكلِّ

تأكيد. رفعَتْ بولنله بصرَها نحو بابا ساغي غير أنه أشار إلى الممرضة وأومأ إليها لتأتيَ.

"هل أستطيع مساعدتكَ، يا سيدي؟" وبحرصٍ، أَبْقَت البابَ مفتوحًا بقدمِها.

"لا أستطيع أن أفعلَ هذا!" بطريقةٍ واحدةٍ فقط يُريقُ الرَّجلُ ماءَهُ، وهي الطريقة التي قمت بها طيلة حياتي. لا أفهم كيف سأفعل ذلك على هذا النحو. فأنا لا أعرف حتى كيف أُمسكه!"

"سيدي، إنَّ الأمرَ أسهل مما تعتقد." تساءلت الممرضة كيف لا يتقن الرجال فنَّ إمتاعِ أنفسهم في ظلِّ أحاديثهم الكثيرة عن صولاتهم وجولاتهم مع النساء! قد تظنُّ أنَّ النِّساءَ صناديقُ قمامةٍ لهم. "هل شاهدْتَ الفيديو؟ سيساعدك."

"لم أُطِقْ مُشاهدتَهُ. كيف لأحدٍ أن يتفاعل مع تلك القذارة؟" استنشق الهواءَ بحدة، وكبت رغبتَهُ في البصاق.

"إذًا، ربما تستفيد إن رأيْتَ كيف يتمُّ ذلك أوَّلًا." فتحت البابَ بغطاءٍ معدنيٍّ لقنينة كوكا كولا، وسارت نحو التلفاز. أوقفت الفيديو وضغطت على زرِّ الترجيع. "كل ما عليكَ فعله هو تقليد كلِّ ما يفعله الرجل في الفيديو. حاول ألَّا تفكِّرَ كثيرًا فيما تفعله. دع عقلك يذهب إلى ... نعم ... دع عقلك يسافر صوب زوجتِكَ الشابة تلك. تخيَّل أنك معها."

صَمْت.

ضغطَتْ على زرِّ "تشغيل"، وابتدأ الفيديو. أشاحت الممرضة بوجهها عن الشَّاشة، وغادرت الغرفة، غير أنها قبل أن تغلق الباب استدارت وقالت: "سيد ألاو، الفازلين متوفر؛ إنه تحت التلفاز. يقول بعضُ الرجال إنهم حين

يستخدمونه، تتمُّ العملية بصورة أسرع." وبينما كانت الممرضة تسير عائدة إلى مكتبِها، فقعت فقاعة ورديَّة صغيرة بنقرةٍ من لسانِها.

امتلأ الفازلين بالفجوات حيثما انغرزت فيه الأصابع اليائسة. غرف بابا ساغي أقلَّ من حفنة، ودهن بها قطعة اللحم التي تتخبَّطُ أعلى فخذه. ظهر في الفيديو رجلٌ صينيٌّ عارٍ، يشاهد امرأةً ترقص حول عمود، يمسك بقضيبه ويُداعبه. قلَّدَهُ بابا ساغي. عندما اقتربت منه المرأة، وجَّه قضيبَهُ نحوها ومسَّدَهُ بقوة. فعل بابا ساغي الشيء ذاته، وقلَّد حركات الرجل. لم يمض وقت طويل حتى بدأت أصابعُ قدمَيْ بابا ساغي تتقوَّس. أحسَّ أنه مُستلقٍ على فِراشٍ بعجلات ينزل كالصاروخ من فوق ربوةٍ شديدة الانحدار. التصاعد الجامح والبديع للذة الجنسية جعله يرتعش.

طلب الرجل في شريط الفيديو من المرأة أن تركع أمامه. عندئذ، تغيَّرتْ ملامحُ وجهه، واهتاج. حشر عضوه في قبضته نصف المفتوحة وأدار عينيه إلى السَّقف. كان بابا ساغي سيقلده لولا أنَّ عينيه مفتوحتان. إذ صوَّرَ له خيالُهُ الجامحُ بولنله، عاريةً، تجلس على ركبتيها، تستجديه من أجل الحصول على بذرته. ولمَّا قذف الرجل ماءه في وجه الراقصة، أضاف بابا ساغي؛ الذي لم يكن في حاجةٍ إلى التصويب قط، بقعَتَهُ الخاصة إلى الجدار البعيد، في حين رسا الوعاءُ بأناةٍ أسفل خصيتيه.

حين عاد تنفُّسُهُ إلى طبيعته، أجال نظرَهُ في المكان، لا يدري ماذا يفعل. قال لنفسه: إن أرادوا البذرة، فسيحصلون عليها. انتظر إلى أن عادت أصابعه إلى طِبيعتها، ثم استخدم حافة الوعاء ليكشط آخر قطراتِ مائه النَّازل من رأسِ قضيبه. أقفلَ غطاءَ الوعاءِ بإحكام، وجلس يستريح. ترى، ما الذي قد يقوله المُعلِّمُ لو رآني هُنا، ألهثُ، مثل ظبيٍ مُطارَد؟ وما رأيُ تاجو لو وصله

أنَّ رئيسه ألاو؛ أنا، ملأْتُ وعاءً بلاستيكيًّا بمائي؟ وما قولُ إيا ساغي لو رأتني أستمني؟ عذَّبَتْهُ نظراتُ خيبة الأمل على وجوه أفراد العائلة، والأصدقاء، والعمَّال، واحدًا بعد الآخر. عندما شقَّ طريقَهُ بين الناس، عدَّل ملابسه براحتيه الرَّطبتين وفرَّ من الغرفة، وشريط الفيديو، والراقصة، وذكرى ما فعله هناك.

في الخارج، بولنله تحثُّ الخطى في الممرِّ. "هل انتهى الأمر؟" سألَتْ وقد بَدَا اهتمامُها بالعيِّنة أكبر من البقع التي تآلفَتْ في واحدة بين فخذيه.

"بذلْتُ قصارى جهدي." لم يكن في وسع بابا ساغي النظر في عينيهَا؛ فقد تشبَّثَ خيالُهُ الجامحُ بجدران عقله وأحرَجَهُ.

حين عادا إلى غرفة الاستشارة الخاصة بالدكتور دِبْيا، عرفَتْ بولنله أنَّ مكروهًا حصل. سارعت الممرضة التي تنفخ الفقاعات بالنتائج إلى الطبيب في مُغلَّفٍ مُحكَم الإغلاق. ولكنَّ الدكتور دِبْيا تعجَّلَ وفتح المُغلَّفَ الذي كان في يده، بدلًا من دعوة مريضَيْهِ إلى الدخول، حاشرًا ذراعَيْهِ في الكُمَّيْنِ المَثنيَّيْن لمعطفِهِ الأبيض.

عاد بعد دقائق يجرُّ الدكتورَ المُهَندَمَ عثمان. النظرةُ التي ألقاها الدكتور عثمان على بولنله كشفت الأمر. ربما لم يعرف أصلًا أنَّ نظرةً شقَّتْ طريقَها بينهما. كلُّ ما كان ينوي فعلَهُ إلقاءُ نظرةٍ سريعة عليها غير أنه نظر إليها شَزْرًا ومطَّ شفتَيْهِ. إنها بلا ريبٍ نظرةٌ، نظرةٌ مُتعاطفة.

بالعودة إلى غرفة الدكتور دِبْيا، كان النقاش حول مصير بابا ساغي جاريًا.

"أعتقد أنَّ إطْلاعَهُ على الأمرِ سيُعرِّضُ النِّساءَ في منزله للخطر. لقد جاءت بجرحٍ غائرٍ في مؤخرة رأسِها الأسبوعَ الماضي."

"لكننا لا نعرف إن كان هو الفاعل. لم أستشعر أيَّ عنفٍ منزليٍّ. بدا مُتملِّكًا أكثر من عدواني. أتعرف؟ بدا عاشقًا أكثر من مقاتل."

"بالنسبة له، زوجته هي التي تشكو من العلل. كان من الممكن أن تتغيَّرَ المسألةُ لو أنَّ عددَ حيواناته المنوية قليل، لكننا لم نجد شيئًا! ولا حتى حيوانًا منويًّا وحيدًا سابحًا في الأرجاء!"

"ربما أصيب بالتهاب الغدة النُّكافيَّة في مراهقته. أراهن بأيِّ مبلغ أنه لم يتلقَّ أيَّ مطعومٍ في حياته."

دقَّ الدكتور دِبْيا الطاولة بأطراف أصابعه الثمانية. لم يكترث لرهان الدكتور عثمان؛ أراد أن يعرف أيَّ طريقٍ يسلك من حيث كان. "ثمة شيء ما غير منطقي. أعتقد أنني سأحتاج إلى مقابلة زوجاته الأخريات."

"أجل، هذا معقول. قل فقط إنَّ هذا جزءٌ من الفحص. لا يمكنه أن يُجادلَ في هذا."

"إذًا، فأنتَ تُوافقني في مسألةِ عدمِ إطْلاعِهِ على النتائج الآن؟"

"أعتقد أنَّ هذا معقول. وقف الدكتور عثمان مُتحمِّسًا للعودة إلى قسمِهِ.

"ولكن، ماذا عن الفتاة؟ ألا يحقُّ لها أن تعرف؟"

"بضعة أيام أخرى لن تنالَها بسوء." بهذا حيَّاهُ مُلوِّحًا، وأغلق البابَ وراءه.

وجد كلٌّ من بولنله وبابا ساغي نفسَيْهِما في المقعدَيْن ذاتهما اللذَيْن جلسا عليهما في صبيحة ذاك اليوم، باستثناء أنَّ مُكيِّفَ الهواء يعمل هذه المرة. عبَّأتْ رائحةُ الليمون المنبعثةُ من مُعطرِّ الجوِّ الرَّخيصِ أرجاء الغرفة. لاحظَتْ بولنله فورًا أنَّ ثمة اختلافًا ملحوظًا في سلوك الدكتور دِبْيا: صار

الآن مُهذَّبًا بصورةٍ مُقلِقَة. لم تكد تراه يقف لاستقبالهما حتى توقَّعَتْ الأسوأ. نظرَتْ إلى بابا ساغي لترى ما إذا كانا يفكِّران بالطريقة ذاتها، لكنه - نَعِسًا كان - كشط لعابًا جافًّا من زاويتَيْ شفتيه؛ إذ غلبه النوم خارج غرفة الاستشارة الخاصة بالدكتور دِبْيا.

ومضَتْ ثمانيةٌ من أسنانِ الطبيب. بدأ بقوله: "لم يكتمل الفحص."

تكدَّرَ بابا ساغي حال سماعه هذا الكلام. فانفلجَ منخراه، وشابهَتْ عيناهُ المصابيحَ ذات الإنارة المُبهرة. "لن تجبرني حتى الآلهة على تكرار ذاك الـ... الـ... الفِعْلَ الفاجر. لن أقوم بذلك!" وطقطق أصابعَهُ فوق رأسِهِ مُتَحدِّيًا ما سمع.

"لا بأس، سيد ألاو. لن أطلب منك عينة ثانية من سائلك المنوي. في الحقيقة، لا أحتاجُكَ في شيء، ليس الآن على الأقل. نريد رؤية زوجاتك الأخريات، أو ربما إحداهنَّ. لك أن تختار." فكَّر الدكتور دِبْيا أنه ربما استجاب لصوت السلطة، فكر الدكتور دبيا.

"لماذا؟ قابلْتَ بولنله. وقابَلْتَني. لماذا تريد رؤيةَ زوجةٍ أخرى؟" قرَّرَ بابا ساغي التَّظاهُرَ بعدم الاهتمام؛ وأراد أن يقتصَّ من الطبيب لفظاظته السابقة معه.

"حسنًا، كما تعرف، قبل أن تُلَفَّ الفاصولياء؛ المغسولة والمقشَّرة والمُصفَّاة والمهروسة، بالأوراق، على المرء أن يتأكد أنَّ المُكوِّناتِ كاملة."

"أكيد! أو قد تتبقى معك قطعة بلا طعم من بودِنغ الفاصولياء المطبوخ على البخار." أكمل بابا ساغي القول.

ابتسم الدكتور دِبْيا. إنَّ استخدامَ الهُراء التقليدي مضمونٌ مع البيضِ الفاسدِ من عواجيز الطراز القديم. "حسنٌ، بالضبط. انظر إلى الدعوة التي

أُوجِّهُها إلى زوجاتِكَ على أنها بيضةٌ مسلوقة، ليست نصفًا، ولا ربعًا، بل بيضة كاملة ستُتِمُّ مُكوِّناتِ هذه الوصفة السخية."

"ها، دكتورا أراكَ تميلُ إلى كلِّ ما هو لذيذ. أنا أيضًا أُفضِّلُ أشهى الأطعمةِ لمعدتي، وسأُحضر لكَ الزوجة التي تهتمُّ بأن أحصل على ذلك." ابتسم بابا ساغي بابتهاج. "اكتُبْ اسمَها - السيدة لاباكه ألاو."

"ربما يوم الأربعاء؟ أُدَرِّسُ يوم الأربعاء من كلِّ أسبوع عادةً، لكن يمكنني أن أُخصِّصَ لها موعدًا في الساعة التاسعة والنصف." سلَّم بطاقة الموعد لبابا ساغي. "أراك يوم الأربعاء. ورجاءً، لا تترك زوجتَكَ الرَّائعةَ هذه في المنزل!" قصدْتُ منها أن تكونَ مزحة، وقد فُهِمَتْ كذلك.

قهقه بابا ساغي طوال الطريق في الممر الذي نُظِّفَتْ أرضيَّتُهُ مُؤخَّرًا، والمسافة التي قطعها على السَّلالِم الضيقة، وفي طريق العودة إلى السيارة.

الفصل التاسع عشر

بابا ساغي

أتذكَّرُ قولًا مأثورًا من طفولتي: رجلٌ أحمق هذا الذي يقع في فخٍّ أَعَدَّهُ بيديه. وقد صار على كلِّ لسان بسبب ما جرى لوالدي؛ الصياد الذي علقَتْ قدمُهُ في شركٍ نصبه للإيقاع بظبي. يقولون إنه سمع زعيقَ دجاجة غينيا الحبشية البرية، وطاردها، غافلًا عمَّا كان أمامه. اقتادَتْهُ أذنُهُ إلى وفاةٍ مُبكِّرة؛ بالكاد وصل العشرين من عمره. لم ينتظر ليرى وجهي أو يمسك بقدميَّ الصغيرتين. مات مربوطًا بحبل في قعر جُحر. يقولون إنه كان مدفونًا بالفعل عندما وجدوه؛ فلا جدوى من إخراجِهِ لدفنِهِ ثانيةً، لذا جرفوا المزيد من التراب فوق جسده.

لم يتزوج أيُّ رجل آخَر أمي لأنهم خافوا أن يموتوا هم أيضًا في حفرة أُعِدَّتْ سلفًا لحيوانٍ مُنحطّ. لكنهم كانوا جميعًا حيواناتٍ منحطَّة، غير جديرين بها. عملَتْ أمي في وصل الأقمشة وصباغتها باللون النيلي. لطالما اسودَّ أخمصُ قدمَيْها، لذا كنتُ أجلس لساعاتٍ، في صغري، أُزيلُ من أظافر قدمَيْها آثار الصِّباغ الأسود. عندما بلغْتُ الثانية عشرة من عمري، تمنَّيْتُ

لو أنها بترَتْ أصابع قدمَيْها. ليس لأنني كرهتها، بل للألم الذي ألَمَّ بذراعَيَّ، ولأن ماما لم تكن قانعة أبدًا. أظنُّ أنها أَحَبَّتْ أن ألمس قدمَيْها.

لمَّا بلغْتُ السابعة عشرة، صلَّيْتُ من أجل أن تغفرَ لي الآلهةُ كلَّ أفكاري الشريرة عن أمي؛ فلولاها لَمَا كنتُ هُنا اليوم. كانت أمَّ الأمهات بالنسبة لي. اعتنَتْ بي في مرضي الذي حوَّلني إلى طفلة صغيرة فقدَتْ قدرتها على المشي والكلام. قالوا إن السبب في ذلك روح أبي التي حضرَتْ لتستحوذ عليَّ، غير أني عرفْتُ أنها كذبة. لماذا يريد أيُّ أبٍ فعلَ ذلك؟

بدأ كلُّ شيءٍ بصداع. وبينما كنتُ أحتطبُ في الغابة ذات يوم، بدأَتْ رأسي تخفق. لكأنَّ العظامَ المُلتحمة فُصِلَتْ عن بعضها قسرًا. مُترنِّحةً، تمكَّنْتُ من الرُّجوع إلى البيت. غاصت يدا أمي في الصِّباغ، غير أنها هرعَتْ لمساعدتي لمَّا رأتني قادمة. لو لم تفعل، لكُسِرَتْ جمجمتي على الحجر. حملَتْني إلى منزلنا وأَرْقَدَتْني على حصيرة. لم أعرف أنَّ جسدي مُضَرَّجٌ بالصِّباغ. لكأنَّ ساحرةً أوقدت النار في بطني. تصاعدَتْ ألسنةُ اللهب إلى حلقومي بانقضاء كلِّ ساعة. يقولون إني صرخْتُ "نار" إلى أن أخمدها النوم.

عندما أدركْتُ أنَّ سروالي تغيَّر، عرفْتُ أنَّ صبحًا جديدًا بزغ. لم يلمس أحدٌ قميصي؛ عرفْتُ لِمَ حين نظرْتُ في المرآة الصغيرة في زاوية الغرفة. لكأنني حشوْتُ ثمرَتَيْ مَنْجَة في الثَّنية حيث تلتقي عنقي بوجهي. انتفخَتْ عنقي إلى درجة أنَّ أمي كانت تتنهَّد بحسرة كلما وقعَتْ عيناها عليَّ.

حالُ ابنتي اليوم تشبه حالي التي استمرَّت أسابيع: لم أنفع نفسي أو أحدًا. مرَّتْ بي أيَّامٌ أغمضْتُ فيها عينيَّ من فرط الوجع؛ فصرْتُ صمَّاء وبكماء. تنثني ساقاي كاليرقات وأفقد الإحساسَ بذراعيَّ. تُحَمِّمُني أمي، بجنون، في الماء البارد، لا لشيء بل لتقفَ وتندهش عندما يبدأ البخارُ

بالتصاعد من رأسي.

وصلْتُ إلى ما وصلَتْ إليه ساغي اليوم، وأعرف أنَّ الشيء الوحيد الذي سيُخلِّصُها ممَّا هي فيه هو ذراعُ شخصٍ تختاره. بهذه الطريقة حُلَّتْ مشكلتي. كانت أمي الشَّخصَ الذي اخترته. أرجو تَفَهُّمَ السبب الذي جعلني أتغاضى عن نومِها في غرفة بولنله. صحيحٌ أن لا أحد بوسعه أن يحبَّ ابنته كالأم، إلَّا أنَّ المرضَ لا يقتصر على تفاني الأم فحسب، بل يتعلق بخَيارَاتِ من يُعاني. قد يُعجِّلُ أيُّ فرقٍ رحلةَ ساغي إلى الآلهة. لن أدفن طفلتي. ساعدني في قول آمين.

فلنعد إلى مرضي. قالت ماما إنَّ روحًا تتسلل خلف الباب كلما دخلت الغرفة. قالت إنها تشعر بوجودها. همسَتْ في أذني أنَّ رائحةَ عَرَقِ زوجِها واضحة، لذلك استدعت المُعالج ليطردَها.

توسَّلَتْ له: "لا تسمح له بأن يأخذ ولدي مني." أَعِدْهُ إلى مثواه." كانت تُدرك مَخاطرَ استدعاء الرُّوح باسمِها.

همس المُداوي العجوزُ للودع، ثم ألقى به في منتصف الخِرقة التي جاء ملفوفًا بها. "مم. حضرَتْ روحُهُ لتنتقم."

"ولكن، ماذا فعلْتُ لأُغضبَها؟"

"لستِ أنتِ من أغضبها. إنه الصبي."

"ماذا فعل الصبي؟"

"يمشي على قبره مثل قائد يذرع القصرَ ويتجاهل تقديم احترامه للملك."

"لكن الصبي لا يعرف أين دُفِنَ. حتى أنا لا أعرف! فقد رفض الرجال أن يأخذوني إلى هناك!"

"ليس من حقك أو حقي أن نُسائل الأرواح. قولي لابنكِ أن يهجر

الغابات وإلَّا فإنه سيهجر أرض الأحياء. وما أن يبلغ، أَبْعِديه من هُنا لتحمي أولادَهُ الذين لم يُولَدوا بعد."

"سمعْتُ كلماتك، وإنها ملأى بالحكمة. خذ هذه أقمشة لزوجاتك." أعطَتْهُ أمي كومةً من القماش المصبوغ بالربط والمُطرَّز بصورة جميلة.

وما أن انحنى عند العتبة، حتى ركعت ماما إلى جانبي وأمسكَتْ يدي اليمنى بكلتي يديها. "يا بُنيّ، هل سمعْتَ كلامَ الحكيم؟"

" بعضًا مما قال فقط،" أجبْتُ، مع أني سمعْتُ كلَّ شيء.

"إذًا، اسمع. عليكَ أن ترحلَ بعيدًا عن هُنا في القريب العاجل. اذهب إلى إيبادان؛ حيث الغابات قليلة والقصور كثيرة. ابتعد عن هذه الجذور التي تُنذر بربط قدميكَ وسحبكَ إلى قبورها."

خفَّ انتفاخُ عنقي في غضون أسابيع. أقسمْتُ لأمي أني لن أرتاد الغابات مرة أخرى أبدًا، لا لجمع الحطب، ولا للصيد حتى. لكنهم يقولون "فرخ البط عوَّام". ومع أني قاومْتُ الغابات، إلَّا أنَّ أوراقَ أشجارِها أشارَتْ إليَّ. رسمت الجذورُ طريقًا، ورَجَتْني الأغصانُ أن أَحُطَّ عليها. وقبل أن أدرك ما حصل، كانت أذني تتكئ على الأشجار المهيبة، أستمع إلى زعيق دجاج غينيا الحبشي الذي كان من المستحيل أن أراه. لوحظ اختفائي المتكرر. فقد كانت أمي تسمع وقع قدمَيَّ تدوسان عتبة الباب، وعرفَتْ فورًا أني عصيْتُ أمرَها. ذات يوم، ربطَتْ أمي رزمة نقود ورقية في منديلٍ وضعَتْه في جيبي، وأرسلَتْني في رحلة إلى إيبادان، تصحبني بركاتها. ذهبْتُ للعمل كمتدرِّب في متجرَ لبيع مواد السباكة.

عملْتُ لسنواتٍ طوال دون أن أتبيَّن كُنه رائحة النساء إلى أن وجدَتْني روحُ أييكارا ورَشَفَتْني في جوفِها. بهذه الطريقة قابلْتُ المُعلِّمَ - النبيل الذي

أرشَدَتْني أنوارُ حكمته في الظلمة. لو تمثَّلت الآلهةُ بالرجال، لَجاهدَتْ بغية الحصول على جسد المُعلِّم. كان هو مَنْ أخبرني بأنَّ عليَّ أن أعود إلى المنزل وأتزوج بالمرأة التي اختارَتْها أمي، مخافة أن تُمرِّرَ نساءُ أييكارا دمي بكُدْرَتِهِنَّ. المُعلِّمُ مَنْ وجَّهَني نحو المُداوي عندما بدا أنَّ ظَهر إيا ساغي سيبقى ملتصقًا بفراش الزوجية. أُلزِمَتْ بالاستلقاء على جنبِها، لشهورٍ عدَّة، ببطنها المنتفخة مثل الجزء الخلفي من إصيص فخاري يُسْكِرُهُ ماءُ المطر. أطلقَتْ أمي اسم "ساغي" على ابنتي. أنعمَتْ أمي النظر في وجهها، ثم توفِّيَتْ قريرةَ العين.

يشير الشبق بإصبعه نحو كل الرجال، وبُعيد زواجي، بدا أنَّ نساءَ أييكارا يشبهن الأميرات والإلهات. سعدْتُ بعلاقاتي السرية مع أخريات، لكنَّ المُعلِّمَ قال: "زوجتان في المنزل خير من عشر على الشجرة. كلهنَّ إيزابل[17]. فالرجل الذي يملأ بيته بالمواليد، لن ينقصَهُ الحُبور أبدًا." يقول هذا رجل يقولون إنَّ قضيبَهُ لم يذق نداوة أيِّ امرأةٍ قط. كما ترى، فالآلهة رحيمة دومًا: ما تأخذه منك، تعيده إليك بطريقة ثانية. رجل حكيم. تزوَّجْتُ بثانية؛ هدية لاسترضاء مزارع يائس. وتزوَّجْتُ بثالثة لأنها وهبَتْ لي نفسَها بتواضع. أيُّ نوعٍ من البشر هذا الذي يرفض امرأة مكتنزة؟ ألن تغتاظ الآلهة إن ضيَّعْتُ فرصةَ التَّرؤُّفِ بإنسانٍ آخر؟

اخترْتُ بولنله، لا أستطيع أن أكذب. عزمْتُ أن تكون لي، بالطريقة ذاتها التي يعزم فيها طفل ظمآن يقع ببصره على كوبٍ يعبِّئه الصنبور بالماء. قال المُعلِّمُ إني محقٌّ في امتلاكِها. اشترى لي جرعتَيْ ويسكي، وربَّتَ على كتفي. ما من ذرة غيرة أو حسد. صدقوني، إنه رجل جدير بالإعجاب.

---

17 ورد اسم إيزابل في الكتاب المقدس عابدة للأصنام؛ وامرأة تستخدم نفوذها لتُلحق الدَّمار بالآخرين. وغالبًا ما ارتبط اسمها بالشر. عاشت في القرن التاسع قبل الميلاد. وتزوجت من ملك إسرائيل "أخاب". م.

الفصل العشرون

العودة إلى الوطن

ثمة ما يميز أمًّا تُحَمِّمُ طفلَها، لذا قرَّرْتُ أن أُحمِّمَ ابنتي. أريد أن أطمس بصمات تلك المرأة وأستردَّ ابنتي. لم تكن هذه الـ"ساغي" ابنتي التي غادرت تلك الليلة.

انتظرنا عودتها بفارغ الصبر. ضغط الأطفال جباههم على زجاج الباب الجرَّار. لم أستطع الجلوس فجثمْتُ على حافة الأريكة. عندما دخلت السيارة إلى المُجمَّع، حضرت قطعة من الشمس مع زجاجها الأمامي. قفز الأطفالُ إلى الأعلى والأسفل كما لو أنَّ أقدامَهم من المطاط. لم يكد بابا ساغي أن يفتح باب السيارة حتى حجبوا ساغي بأياديهم. أراد الجميع أن يلمسوا صغيرتي ساغي، كما لو كانوا يتثبَّتون من حقيقة أنها هي فعلًا. نظرَتْ ساغي إليهم جميعًا ولمسَتْ جِباههم بالطريقة التي تحب. ابتسمَتْ غير أنَّ شفتَيْها كانتا متشققتين ومتقيِّحتين. حملها والدُها إلى غرفة الجلوس وأراحَها على أريكته. اندفعَتْ إيا توبه إلى جانبها وأسندَتْها بالوسائد، ولكن ما أن لمسها ظهرُها حتى سقط رأسُها على مسند الذراع.

بدت وكأنها تشبه شبحًا. إذ فقد وجهها امتلاءه، وامتلأ جبينُها بالقشور. أمَّا مُقلتا عينيها، فقد كانتا صفراوين كما لو أنهما تسبحان في البول. حتى أنَّ ثدييها تسطَّحا على صدرها. فبشرتها التي كانت لازبةً ومطواعةً في السابق ترهَّلَتْ مثل جلدٍ مسحون. فقدَتْ شعرَها كله، وفروة رأسِها تلمع كالرُّخام.

ذهبْتُ إلى ابنتي، وجثوْتُ على ركبتَيَّ أمامها. وضعْتُ يدًا على صدرها، وربَّتُّ بلطف على رأسِها باليد الأخرى. لكأنَّ الصوت أصمَّها، لكنَّ ابنتي لم تُرِدْ مني أن أتوقف. نظرَتْ إليَّ وقالت: "ماما، أنا هُنا، على قيد الحياة."

قلت لها: "أجل يا صغيرتي." "تركْتِني لكنَّكِ عُدْتِ." وقفْتُ والتفتُّ إلى كل الوجوه من حولنا. "ابنتي عادت." لم يتجاوز صوتي الهمس لكنه وصل إلى كل أذن. حتى تاجو بكى فرحًا وهو في الشرفة.

لم أكن لأفارقَها لولا أنَّ بابا ساغي طلب طعامه. "معدتي تدقُّ جرسَها" هكذا قال. "أحضِري الطعام لي ولابنتي. هذا يومُ فَرَح. قال الأطباء إنَّ السرعة التي نقلناها بها إلى المستشفى أنقَذَتْ حياتَها. كانت على أعتاب الموت لكن الآلهة رحمتني وأعادتها. مليون عبد وألف خادم لا يمكن أن يُضاهوا قيمة طفل. فلن يرثِيَ الرَّجلَ حقَّ الرثاء عند مماته سوى أطفاله. أنقذتني الآلهة من دفن ابنتي وإني ممنون. فليشرب جميع من في المنزل زجاجة كوكا كولا!"

وثب الأطفالُ بابتهاج في أنحاء الغرفة. منحتني رؤية زوجي منشرح الصدر أملًا كبيرًا. كان تعلُّقُهُ بساغي واضحًا لا يتزعزع.

ولمَّا عدْتُ بطعامه، وجدْتُ بولنله في غرفة الجلوس إلى جانب ابنتي. وقد مسَّتْ وجنةَ ساغي بطرف إصبعها. فُوجئتُ بساغي تمسك يد بولنله بقوة وتقرِّبُها من صدرِها. تبادلتا كلماتٍ لم أسمعها. حدث هذا عندما

نطقَتْ ساغي بالكلمات التي أحرَقَتْ قلبي. "أبي" قالت، "سأسعد كثيرًا لو سمحْتَ لي بالتعافي في غرفة خالتي بولنله."

ربما هبَّتْ زوبعة في الغرفة وزخَّتْ وابلًا من البَرَد على الحاضرين. اتجهت كلُّ العيون إليَّ. ما عساي أفعل وأنا أعرف أنَّ السبب في ذلك مرضُ ابنتي؟ أيًّا كان ما فعلتْهُ بولنله لتسحرها فإنه لا يزال يعمل، لكنَّ الوقت لم يكن مناسبًا للقتال. هزَّتْ بولنله رأسها وغطَّتْ يدها بيدها.

كسرَتْ قرقرةُ معدةِ بابا ساغي الخاوية الصمت. نظر بحنانٍ في عينَيْ ابنته. "افعلي ما يحلو لكِ، يا ابنتي،" قال. "كما تشائين." كان يعرف أنَّ الوقت ليس مناسبًا لطرح الأسئلة إلا أنه لم يتجاهل الأمر. دعاني إلى جانبه وطلب أن أعطيه أذني. عندما جثوْتُ بجانبه، قال لي: "ستبقى طفلتُكِ لكِ، وستبقين أمَّها دومًا."

أول شيء فعلْتُهُ قبل تجهيز مياه الاستحمام هو التأكد من أنَّ بولنله غادرت المنزل. لم أشأ أن يَحُولَ بيننا أحد. أنا امرأة وأعرف كيف أستخدم الليفة وأين أضعها دون أن أضغط. أعرف أيضًا أنَّ الدَّعكَ ممنوع. كانت ساغي تُبدِّلُ جلدها، كالأفعى، بآخر رقيق وصافٍ.

خلعْتُ عنها ملابسها وساعدْتُها لتجلس على مقعدٍ وضعْتُهُ في حوض الاستحمام. وفيما كانت تجلس هناك، بظهرٍ أحدب، صببْتُ أوعية معبأة بالماء الفاتر.

سألْتُها: "لماذا لا تتحدثين معي، يا ابنتي؟"

رفعَتْ ساغي رأسَها لتنظر إليَّ. كان في عينيها اتهام، لكنها لم تقل شيئًا. كنتُ متأكدة أنَّ في جعبتها كلام كثير.

"أهو شعرُكِ؟ ألهذا أنتِ صامتة؟ سينمو من جديد، سترين."

هزَّتْ ساغي رأسَها من اليمين إلى اليسار، وأَحْنَتْ رأسَها.

"إذًا، فالأمر يتعلق بثدييكِ. ستستعيدين اكتنازهما."

نظرَتْ ساغي إلى ثدييها ورفعتْهُما كلًّا على حدة كما لو أنها تزنُهُما.

"إذًا، لماذا لا تتحدثين معي؟ لا عيب في المرض."

قالت: "هل ثمة عيب في الموت؟" ولم تقوَ حتى على السُّعال.

"لماذا تقولين شيئًا كهذا، يا ابنتي؟" كنتُ في حيرةٍ من أمري. "لن تموتي. ولن أنوح حدادًا على طفلتي."

"لكن يجوز للأمهات الأخريات الحداد على بناتهن. يسعدك هذا، أليس كذلك؟"

"لا يهمني ما يجري في منازل أخرى، يا ساغي. أنتِ مَنْ يهمُّني."

"ماما، لا. سألتكِ إن كان يسعدكِ لو أنَّ أمًّا أخرى ناحَتْ حدادًا على ابنتها." سعلَتْ وأمسكَتْ بالسطل ليسندها. سال الدم من أحد منخريها.

مددْتُ يدي لأغسل الدم، إلَّا أنَّ ساغي أبعَدَتْ يدي عنها.

"ماما، قال الأطباء إني تسمَّمْتُ. قالوا أيضًا إنني كنتُ سأموت. لماذا يوجد سمٌّ في منزلنا؟ كان في الطعام الذي تناولته ليلة ذهابي إلى غرفة الخالة بولنله، أليس كذلك؟"

أسقطْتُ الوعاءَ الصغير من يدي في السطل، وتناولْتُ منشفة. "ساغي، لا تخوضي في أمور لا شأن لكِ بها!" قلتُ بحزم.

وقفَتْ ساغي وفردَتْ ذراعيها كاشفةً ما بقي منها. "انظري إليَّ يا ماما وأخبريني أنَّ هذا الأمر ليس من شأني."

أشحْتُ بوجهي وابتلعْتُ ما غصَّ به حلقي. لكأن ساغي دُفِنَتْ في

الأرض لأسابيع. فقد التصق جلدُها بعظمها. "تستفزِّينني، يا ساغي."

"إذًا، فلتمت البنتُ التي تستفزُّكِ!" قالت. "لو أنَّ أحدًا في هذا المنزل يقدم طعامًا سامًّا ولم تكتشفه أمي أنا، فكيف إذًا تستحقُّ حياتي أن تُعاش؟"

"دعيني أغطِّيكِ يا صغيرتي. فقد سنَّ البردُ أسنانَهُ اليوم." حاولْتُ أن أفرد المنشفة على كتفَيْ ساغي، غير أنها طرحَتْها في سطل الماء بكلِّ قوة ذراعيها الهزيلتين.

"لا، دعيني أموت!" أخذَتْ تصرخ حتى انقطع نفسُها وأُنْهِكَتْ قواها.

"لم يكن الطعام مُخصَّصًا لكِ، يا صغيرة! لم يكن لكِ!" بدوْتُ كما لو أنَّ مسًّا أصابني. شاهدَتْني وأنا أمزِّقُ ثوبي من العنق إلى الحاشية. صفقْتُ الجدرانَ وخدشْتُ وجهي. لكمْتُ ثديَيَّ، وشدَدْتُ شَعري. لم أستطع أن أتمالكَ أعصابي.

جثَتْ ساغي في الحوض، وهزَّتْ رأسَها ببطء. ثم قالت بالهدوء ذاته الذي ابتدأَتْ به حديثها: "ماما، أشعر بالبرد. أحضري لي منشفة جافة، من فضلك."

يوم الغسيل

قرَّرَتْ إيا ساغي أن تُحمِّمَ ابنتَها اليوم. هذا جيد؛ فمنذ أن ذهبَتْ ساغي إلى المستشفى، كانتا؛ هي وإيا فمي، تتصرَّفان كما لو أنهما نسيتا كيف تتصرف الأمهات.

جاء آكن إلى غرفتي وأخبرني أنَّ أزياءهم المدرسيَّة متَّسخة. طلبتُ منه أن يأخذ أوعية الغسيل إلى الخارج. أعطيتهم الصابون، ووجلسْتُ معهم في الخارج. عمَّ الحزنُ أرجاء المنزل، لذا فمن المفيد لهم أن يفعلوا ما يستمتعون به عادةً. كانوا مثل كلِّ الأطفال؛ يحبون اللعب بالماء.

كوَّنوا دائرة حول كومة ضخمة من الغسيل وقرفصوا أمام الأحواض البيضاء، لكنهم لم يتحدَّثوا سوية مثلما اعتادوا. فلم تكن ساغي موجودة لتطلقَ عليهم رغوة الصابون. لم تكن هناك لتبدأ الأغنيات التي عرفوها وأحبُّوا غناءها جميعًا.

بقي فمي غاضبًا لأن أمَّهُ لم تُعْطِهِ نقودًا لشراء الحلوى، فغطَّس يديه في حوضه ورفض أن يفرك الثياب فيه. إنه أنانيٌّ مثل أمه. جلس هناك فيما كان

المُخاط يسيلُ من أنفه. كان يمدُّ لسانَهُ ويلعق المخاط من حين لآخر.

لو أنَّ آكن لم يقف ناحية حوضه ويصفعه على وجهه، لتجاهله الأطفال كما يفعلون عادة. ترك الصبي الأكبر مسحةً من رغوة الصابون على وجنة فمي. ولمَّا استفاق من الصدمة، بدأ يغسل ثيابه ويمرشها.

عجيب كيف لفتىً طيب مثل آكن أن يخرج من رحم إيا ساغي. راقبْتُهُ مذ كان صغيرًا. سيكبر ليصير أبًا صالحًا يومًا ما. فهو لا يُفسد الأطفالَ بالدَّلال كما تفعل ساغي. يهتمُّ بهم لكنه حازم. ويعرف الخطأ والصواب. أذكر مرة لمَّا جلسوا جميعًا إلى مائدة الطعام يؤدُّون واجباتهم. مرَّتْ بهم بولنله، في ذلك اليوم، وسألَتْ إن كانوا في حاجة إلى أيِّ مساعدة، غير أنَّ صوتَ ساغي جاء عنيدًا. فعندما تأتي بولنله، تعرف ساغي كيف تقول لا، لكنها تسمح للأطفال باستغلالها. تقول: لا. تقول: هذا عملي. من كان يتصور أنَّ بولنله سترعاها ذات يوم؟ هذا العالَمُ مليء بالأسرار!

انطلق فمي في عناده المعتاد، في ذلك اليوم، وعلى مقربة من مائدة الطعام. جلس أولًا ثم نظر إلى قلمه كما لو أنه لا يعرف ماذا يفعل به. بعدئذ، بدأ يبكي مثل رضيعٍ عمره ثمانية أيام. قال إنه لا يفهم شيئًا، ولا حتى اسمه! انتقل بكرسيه بالقرب من ساغي ورجاها أن تحلَّ واجبه عوضًا عنه. ولِمَ لا يتوقَّع من الناس أن يفعلوا كلَّ شيء بدلًا منه أمَا وأمُّهُ تعطيه حتى قبل أن يطلب؟ أمُّهُ أفسَدَتْهُ. إنه شديد النتانة لدرجة أنَّ الدُّودَ يتساقط من جسده.

لو أنَّ آكن لو يكن حاضرًا في ذلك اليوم، لأهملَتْ ساغي واجباتها لتكتبَ بدلًا منه. كانت ستمسك بيده وتكتب الإجابات. لم يسمح آكن بذلك. نظر بجدية إلى شقيقته وطلب منها أن تغادر. "لا يستحقُّ هذا الصبي

دلالَكِ له،" هكذا قال.

ضحكَتْ ساغي وأخبرتْهُ بأنَّ الحظَّ الكافي لا يحالفُ الجميعَ ليولدوا بذكاء فائق. لم يتوقف آكن عند هذا. نظر إلى فمي بملامح قاسية. "كيف لكَ أن تتذكر كلَّ شخصية في كلِّ برنامج تلفزيوني واسمَ كلِّ لاعب كرة قدم، لكنَّ عقلَكَ يتعطل عندما يُطلَبُ منكَ كتابةُ واحد-اثنان-ثلاثة؟" سأل.

فكَّرْتُ، يا لحكمة هذا العقلِ الفَتِيِّ.

نبَّهَتْ ساغي شقيقَها آكن إلى أن يُخفضَ صوته حتى لا تدخلَ إيا فمي من الباب وتُوبِّخَهُ.

ردَّ بقوله: "لو حضرَتْ، سأخبرها كم أنَّ ابنَها كسول." لم يرتجَّ صوتُهُ. فلم يكن خائفًا. تعجَّبْتُ من جرأته لأنه حتى أنا، الزوجة، لم أستطع التفكير في قول مثل هذه الكلمات لإيا فمي. سيكبر ذاك الفتى؛ آكن، ليصير رجلًا صالحًا.

عقدَتْ إيا ساغي اجتماعًا قبل غروب الشمس. دون أن ترفع بصرَها إلينا، أخبرتنا؛ أنا وإيا فمي، بالحديث الذي دار بينها وبين ساغي في الحمَّام. أكذب إن قلتُ إني فهمْتُ ما قالتْهُ. من أين أتت ساغي بمثل هذه الجرأة لتتحدث مع أمها بتلك الطريقة؟ إلَّا أنها كلما تحدَّثَتْ أكثر، اتَّضحَ ما اقترفْنَهُ. لذا، فعلْنَها! سرقْنَ روحَ ساغي! ليتني كنتُ أجرأ. لو عرفْتُ كيف أُوقِفُ دموعي، لَمَا ذرفْتُ الكثيرَ منها. أنصتُّ لِما تقوله إيا ساغي، لكنني لم أستطع أن أنبس بكلمة. عجز لساني عن الكلام. لم يسعني إلا أن أصلِّيَ من أجل أن تبسط الآلهةُ رحمتها على منزلنا.

وبينما كانت إيا ساغي تتكلم، رأيْتُ إيا فمي مُتلهِّفة. ولمَّا لم يسعها أن

تكتم السُّؤال، اتجهت نحو إيا ساغي. "أخبريني،" قالت. "كيف لنا أن نعرف أنها لن تخبر أباها بما قلتِهِ؟ مذ عادت من المستشفى، وهي ترفض أن تأكل ما لم يشاركها والدها. من يدري ماذا ستقول لبولنله؟ أم أنك نسيتِ أنهما تنامان في غرفة واحدة؟ أسأل لأن من الأجدر أن نبدأ في حزم أمتعتنا الآن."

"نستحقُّ أن يُلقى بنا في الشوارع،" قلتُ. "ما طار طيرٌ وارتفع، إلَّا كما طار وقع. انتهى وقتُنا هُنا."

"هذا رأيُكِ، يا إيا توبه." لم أستطع تصديقَ أنَّ بوسع إيا فمي أن تكون صارمةً إلى هذا الحد بعد كلِّ الشر الذي اقترفَتْه. "إن أردْتِ أن تكتسي الشوارع مع أطفالك، فتجهَّزي للرحيل،" قالت. "أوَليست إيا ساغي من أفشَتْ سرَّنا لابنتِها؟ وبما أنها هي من قتلَتْنا، عليها أن تدفننا. ثم كيف لكِ أن تعرفي أنكِ لن تنتهي في السجن؟ إنَّ ساغي قرَّة عينِ أبيها."

"إيا فمي، لا. ستذهبين أنتِ إلى السِّجن،" قلتُ لها. لا أدري من أين أتيتُ بالجرأة، لكنني عبَّرْتُ عن رأيي بصراحة ولو لمرة. "هل كنتُ هناك حين أعدْتِ لعدوَّتِكِ وجبتَها الأخيرة؟ إيَّاكِ أن تجرِّيني إلى مَكيدتِكِ الإجرامية! إن كنتِ تؤمنين بالله، لصلَّيْتِ من أجل الصغيرة التي تتشبَّثُ بالحياة بصعوبة. ولكن لا، تجلسين هُنا وتتساءلين كيف ستمكثين في المنزل الذي حرقْتِهِ بيديك! كم مرة زرتِ ساغي لتسأليها عن أوجاعها؟ كم مرة سألتِ كيف تسمع بعد أن فقدَتْ السَّمعَ في أذنها اليمنى؟ ولا مرة! تفضِّلين الاختباء على عمل خيرٍ قد يمحو خطاياكِ! استمرِّي في الاختباء،" قلتُ لها. "لستِ جديرةً بتلك الطفلة التي دنَّسْتِها." تركتهما هناك في غرفة الجلوس. وجَّهْتُ كلماتي لإيا ساغي أيضًا.

الفصل الثاني والعشرون

فِكتور

تتنهَّدُ الزوجات وتُحدِّقْنَ في الفراغ. لكأنَّ قبضةً قُدَّتْ من حجر حُشِرَتْ في حُلوقهنَّ. فقط يجلسن ويُمْعِنَّ التحديق. لا يبدو حتى أنهن يكترثن بي بعد الآن؛ وهذا في حدِّ ذاته أمرٌ مُحيِّر. أُفضِّلُ الوضعَ السَّابق لمَّا كنَّ مُتوقَّعات. ليس بوسعي الآن معرفة أيُّهنَّ تركَتْ الطعام خارج باب غرفتي. كان الوضعُ أسهل جدًّا. لطالما تركَتْ إيا فمي ببقايا الطعام المحترقة في قاع القدر لتضعها في الأعلى مع قطعة لحم صغيرة أُزيلَتْ أطرافها، في حين تركَتْ لي إيا توبه كومةً من الأرز الأبيض الناصع مع مكعب إضافي من اللحم البقري مخبأ تحتها. ثمة الآن طبقان متماثلان من الطعام - أحدهما لي والثاني لساغي.

أتصوَّر أنَّ السبب في ذلك مرضُ ساغي. إذ أنها لم تكتسب أيَّ وزن، كما أنَّ الدم يسيلُ من أنفها باستمرار. ما كنتُ لأقولَ هذا لكنَّ أنفاسَها كريهة، حتى عندما تطلقها من منخريها. تنبعث منها رائحة بغيضة وعنيدة. تُخيِّم في غرفتي أثناء الليل، فيشقُّ عليَّ التنفس. تُصيِّرُ الجزءَ الخلفيَّ من الحلق مُرًّا، وتَتعْلقُ في أغطية الفِراش كما لو أنَّ جثة وحش صغير دُفِنَتْ هناك.

لكأنَّ العفنَ ينخر ساغي من الداخل إلى الخارج.

كانت تُخفي مرآةً صغيرةً أسفل وسادتها وتبكي كلما نظرَتْ إليها. طلبَتْ مني قبل أيام قليلة أن أُقسِمَ بحياتي أني لن أُطلِعَ بابا ساغي على الأمر. ربما كنتُ سأُلْزِمُ نَفْسي بهذا قبل أسابيع قليلة، غير أني لا أستطيع حمل نَفْسي على فعل هذا الآن. لا لأجلها، وليس الآن، ولا لأحد. قلتُ فقط "أُقسِم" وكان هذا كل ما في الأمر.

عندما تنام، لا يسعني إلا أن أنظر إليها. أشعر بأني أعرف ما يُكدِّرُها. فقد فتك بها المرضُ، وتركها جرداء. فقدت السيطرة على جسدها إلَّا أنها تجهل ماذا ستفعل إن استعادتْهُ. تعرف أنَّ المرضَ سيفعل بها أفاعيله. إنه لأمرٌ غريب أن تُشْعِرَني ساغي بالقوة. في حضورها أتحلَّى بالصلابة. يُشْعِرُني خوفُها بأن ليس هناك ما يخيفني أكثر. قالت لي شيئًا غريبًا بالأمس. قالت: "يا خالة، أنتِ فكتور." اعتقدْتُ أنها تهذي. فسألتُها: "فكتور؟"، لكنها انجرفَتْ في واحدة من غفواتها التي تمتدُّ لثلاث دقائق. تستفيق منها مُشوَّشَةً قليلًا، وتسأل أسئلة مثل: "أين جناحَيَّ؟" تركْتُ مسألة "فِكتور" ولم أعد إليها.

فكتور. لم يُنادِني أحدٌ باسم "فِكتور" [منتصرة] من قبل. إنه قوي، حتى كاسم؛ مليء بحروفٍ ساكنةٍ صلبةٍ وعنيدة. يستحيل أن تنطقه دون أن تزمجر وتكشف أسنانك. أعجبني أنها نادتني به، وإن وُلِدَ من فكرة مجردة.

تقول لوالدها أعجب الأشياء أيضًا. تتكلم أحيانًا دون أن تخرج أصواتٌ من فمها. ثم عندما يُنهكه التعب، ويتجه نحو الباب، يعود صوتُها. "ألن تسمعَ ما أريد قولَهُ، يا أبي؟" تسأل. فيعود بابا ساغي إلى جانبها لتبدأ الثرثرة الصامتة من جديد.

يتمتم بصوتٍ مُثقَلٍ بالكآبة: "يقول الأطباء إنَّ هذا مُتوقَّع."

في الخارج

جلسَتْ إيا ساغي بهدوءٍ في السيارة، إلَّا أنَّ شعورًا بالنشوة تسلل تحت جلدِها. سمعَتْ أنَّ أُناسًا على وشك التجوال في الشوارع عراة يَشْكُون من تنميلٍ في جميع أنحاء أجسادهم. الحقيقة هي أنَّ أطرافَها خَدِرَتْ لابتهاج بابا ساغي، وابتسامته النقية والواثقة؛ كالحمل الذي يقفز إلى المسلخ.

لم تكن التعليمات معقدة: أخذ بطاقة الموعد هذه؛ الاستيقاظ في وقت مبكر من صباح يوم الأربعاء؛ ارتد ثيابك ورافقني إلى الأطباء؛ إذا طرحوا عليك أيَّ أسئلة، فلا تُخْفِ عنهم شيئًا.

وضعَتْ إيا ساغي خطتها الخاصة. لن تكون هناك أسئلة، إجابات فقط. لن تنتظر حتى يُنتزَعَ منها حبلُ الحقيقة الطويل؛ ستتطوَّع عن طيب خاطر ودون إقناع، وإن تسبَّبَ هذا في أن يخترق رأسُ بابا ساغي جدران المستشفى. الحقيقة كالنور، هكذا يقولون، لا تخفى إلى الأبد. وإن تَوارَتْ في قعر بئر، فسيُجلِّيها القحطُ ذات يوم. وإنَّ عُقْرَ بولنله حَمَلَ معه الجَدْب.

انتظر الطبيبان في غرفة الاستشارة. لم يدرِ الدكتور دِبْيا كيف يسوق

النبأ لبابا ساغي؛ إذ أنَّ تلك مهمة صعبة. أيقول بأنَّ هذا أمرٌ واقع؟ أم يُغيِّرَ نبرةَ صوته كما لو أنَّ أحدًا توفي؟ أم يخبره بطريقة تجعله شاكرًا لولادته في عصر التقدم العلمي؟ ومع كل ذلك، كان من الممكن له أن يعيش حياته كلَّها دون أن يعرف شيئًا.

لمَّا مدَّ الدكتور عثمان يده ممسكًا مقبض الباب، نصحه الدكتور دِبْيا بأنه قد يتعلَّم شيئًا ما إن بقي واستمع. اشتمَّ الدكتور عثمان رائحةَ الخوف تنبعث من زميله المغرور، فعاد من حيث كان إلى طاولة الفحص، وكتَّف ذراعيه. كما أنه كتم ابتسامةً ساخرة لمَّا أطلَّ الدكتور دِبْيا برأسه خارج الباب ليدعوَ بابا ساغي وإيا ساغي للدخول.

"أيها الطبيبان، هذه زوجتي الأولى. لا يمكن لرجل أن يحظى بأفضل منها." أشرق وجهه بزُهُوٍّ.

"حسنًا. سيدة ألاو، شكرًا لمجيئك. تفضلي رجاءً." أحسَّ الدكتور دِبْيا بقليلٍ من الحرج لانفعال مريضه. لربما سَهُلَ الأمرُ أكثر لو كان مزاجه أهدأ. قرر أن يدخل في الموضوع مباشرة. "سيدة ألاو، متأكد أنك على دراية بالفحوص التي أجريناها بخصوص صعوبات الحَمْل التي تواجهها السيدة ألاو الصغرى."

"السيدة بولنله ألاو،" أوضح الدكتور عثمان قائلًا.

حلَّتْ إيا ساغي العقدةَ في ربطة رأسها، بعناية، وخلعَتْها، كاشفةً عن رأسٍ بشعرٍ رماديٍّ لا متساوي الطول. ثم طَوَت الوشاحَ بدقة متناهية إلى ثمانية أجزاء متكافئة، ووضعَتْهُ بتأنٍّ على طاولة الطبيب دون أن تلمس أيًّا من كتبه الموضوعة. وبالقدر نفسه من الدقة، وقفَتْ ثم جثَتْ على ركبتَيْها. نظر الطبيبان إلى بعضهما. وتبدَّدَ ابتهاجُ بابا ساغي وحلَّ محلَّه ارتباك وحرج.

"سيدي" - التفتَتْ إلى زوجها تخاطبه - "لا تقرر الكلماتُ من تلقاء نفسِها إن كانت ستشهد بالحق أم لا، لكنَّ أهلَنا يقولون إنَّ اليومَ الذي تقولُ فيه الكلماتُ كلمتَها آتٍ لا محالة." ثم انتقلَتْ بنظرِها إلى الطبيبين.

نظر الطبيبان إلى بعضهما ثانيةً. جلس الدكتور دِبْيا في كرسيه يستنشق الهواء، فانزلقَتْ نظارته على قصبة أنفه.

"أعرف السبب الذي يمنع بولنله من الإنجاب،" تابعَتْ قائلة، "وإنه سبب لا يستطيع ألفُ طبيبٍ علاجه. لا يُعِدُّ اليام نفسه بنفسه. إنه يحتاج يدًا خبيرة تُقطِّعه إلى شرائح وتُعرِّضه لحرارة شديدة.

شهق بابا ساغي في ارتباك.

"لستُ متأكِّدًا تمامًا من أنني أفهمكِ." أراد الدكتور دِبْيا من إيا ساغي أن توضِّحَ لزوجها بعباراتٍ لا لبس فيها.

"ذلك لأنَّكَ شابٌّ ولا تعرف سنن الحياة. كنتُ زوجةً شابة حين وجدْتُ نَفْسي غارقةً في سحابةٍ من الحزن. جَزِعَةً بلا ولد. كلما رأيْتُ أمًّا تُهدهد رضيعًا على ظهرها، خالجَتْ حلمتَيَّ حكةٌ تشتهي الإرضاع. جرَّبْتُ وزوجي كلَّ الطرق. لم يدع فخذيَّ يستريحان بل قفز بينهما كلما حلَّ علينا الغسق. حتى أمه كانت متلهفة لنسله. ثم خطرت لي فكرة. كانت فكرة آثمة، لكنني عرفْتُ أنها ستنهي حزني. في الحقيقة، لقد كانت أكثر من مجرد فكرة؛ وعدَتْ بأن تكون حلًّا. لو لم يكن لدى زوجي بذرة، فما الضرر في أن أبحث عنها في مكان آخر؟" هزَّتْ كتفَيْها. "لذا، وجدْتُ البذرة وزرعْتُها في رحمي."

أدار بابا ساغي جانبه نحو زوجته ونظر إليها بعين واحدة فقط. رفع ذراعه للدفاع كأنها تحميه من الإيحاءات المشينة التي تختبئ في حكاياتها الرمزية.

سألها الدكتور دِبْيا: "هل تقولين إنَّ زوجَكِ ليس الأبَ البيولوجيَّ

لطفلك الأول؟" وجدْتُها!

"لا الأول، ولا الثاني."

انحنى بابا ساغي كمن تلقَّى ضربة في وجهه. "يا ويلي! هذا مستحيل!"

"ماذا عن الزوجتين الأخريين؟ وعن أطفالهما؟" سألها الدكتور دِبْيا. فلتتدفق الحقيقةُ كاملةً، أفضل من قولها مبتورة وعلى مراحل!

"أنا ضلَّلْتُهما. ربما لو أني لم أُرِ الثانية طريقي، لانكشف عاري سريعًا. لكن، أتعرف؟ كانتا مستميتتين على الإنجاب. أدركتا أنَّ للأطفالِ أهمية كبيرة جدًّا عند زوجي. لذا، عندما لمسْتُ استماتتهما، أشفقْتُ عليهما، وشاركتهما سرِّي. فاتَّبعتا الطريق نفسه."

ولول بابا ساغي مثل كلب أُمسِكَ به فيما كان يلتهم عشاء سيده.

"إذًا، فأنتِ تقولين إنَّ أطفالَ السيد ألاو ليسو من صلبه؟"

"لا أحد منهم." مدَّتْ يدها لتلمس زوجها إلَّا أنه قفز مبتعدًا عنها.

اعتدل الدكتور عثمان في وقفته. "سيدة ألاو. تكلمتِ بما فيه الكفاية. شكرًا لكِ. ربما من الأفضل أن تتوجهي إلى المنزل الآن." أدرك أنَّ بابا ساغي على وشك الانفجار.

نهضَتْ إيا ساغي وغادرت الغرفة والهدوء في عينيها.

كان رأسُ بابا ساغي منحنيًا تمامًا مثل غصن يحتضر قبل أن يقدم أوراقه لعصفة الريح التالية. سقطَتْ دموعه على الأرض بهدوء.

"سيدي، هل ثمة ما يمكننا أن نقدمه لك؟ مشروب مرطب ربما؟" سأله الدكتور دِبْيا.

غمغم الدكتور عثمان بـ "فلنتركه" لزميله وخرج من الغرفة على رؤوس الأصابع. أخذ الدكتور دِبْيا كل الأدوات الحادة على طاولته وأسرع خلفه.

الفصل الرابع والعشرون

تاجو

للأغنياء بطون ممتلئة. إنهم يختالون متبجحين إلى أن ينقلب العالَمُ على جنبه. يرون المزيد من الطعام ويهجمون عليه. إذ أنَّ جوعَهم دائم كما ترى. الأمر مختلف بالنسبة للفقراء. لم يعرفوا طعم الشبع قط. لذا، فإنهم يتزاحمون من أجل الحصول على بقايا الطعام، لا لأنهم جائعين، بل لأنهم يريدون أن يعرفوا معنى الشبع والاطمئنان اللذين يجعلان الأغنياء يقتنعون أنَّ العالَم ملك لهم.

أُفضِّل الحديث بالأمثال. أُمضي بضع دقائق يوميًّا متأمِّلًا التوازن الظالم لهذا العالَم. إلَّا أنَّ أمثالي معقدة للغاية، دقيقة جدًّا، وحتى مُضلِّلَة، معظم الوقت. أودُّ أن أُقلِّبَها في رأسي، لكنَّ مديري عاد وعليَّ أن أنشغل بالطريق. لا أتلقَّى أجرًا لأكونَ مفكِّرًا. أنا سائق.

لا يجدر بي أن أُحبَّ هذا العمل مثلما أفعل؛ إذ يجب على كلِّ شعرةٍ في جسدي أن ترفضه بعد ما جرى لأخي. "قادته الحافلة إلى حتفه وها أنتَ تفعل مثله،" تصيح أمي. تقصد من الحكاية تحذيري، لكنني أخبرها بأنني أقود

شاحنة صغيرة، وليس حافلة.

كما ترى، كان فاروكو - الأخ الذي تتحدث عنه أمي - ابنًا جديرًا بأن يُبكى عليه. بشرته صفراء إلى حدٍّ أنه كان من المفترض أن يولد في وقتٍ لم تُشعِّث فيه رياح الهرماتان الرِّمال. اعتاد أن يرتدي قميصًا مفتوحًا حتى سرَّته، وسلاسلَ فضية تتدلَّى من رقبته. تاقت النساء إليه. رآه الرجال حاذقًا ومتأنقًا. اعتقد بأنه كذلك أيضًا. كان يداعب النساء بابتسامة ظريفة ولسان حلو وأنيق يتأرجح بين شفتيه حين يحادثهن.

فعل فاروكو ما يفعله معظم الشباب عندما يبلغون سنَّ الحكمة: غادر قريتنا بحثًا عن الثروة في مدينة إيبادان. غادر معظم الرجال في أولَغبون للسبب نفسه: كانوا يعملون أو يتدرَّبون طوال الأسبوع ويعودون إلى القرية لزيارة عائلاتهم فقط في عطلة نهاية الأسبوع. برهن فاروكو أنه ابنُ أبينا حقًّا وقام بشيء مميز: تدرَّب على القيادة، وسرعان ما حصل على وظيفة قيادة حافلات عامة لشركة نقل معروفة. لن أُسمِّيَها لأنك ستعرفها ربما. يعرف الجميعُ مالكَها.

كان يقود حافلته إلى قريتنا، أحيانًا، وينفض الوحل الذي كسا واستقرَّ على الطرق الترابية. كان يتباهى بلونها العنَّابي اللامع، وينطلق بطيش عبر الأشجار. أَحَبَّ هذه المتعة المتهوِّرة، ونحن كذلك. كنت أركض، مع الأطفال الآخرين، خلف الحافلة، وأصرخ بحماس، في حين كان آباؤنا وأمهاتنا يهرعون إلى مداخل البيوت مُلوِّحين. كان من الصعب ألَّا أرغب في أكونه هكذا بقميصه الفضفاض، طائرًا مثل شراع، وعود الثقاب المُثبَّتِ على زاوية ابتسامته الظريفة.

تشوَّقت النساء لعودته صباح السبت. وكنَّ يمطرْنَني بالهدايا، من

الإثنين إلى الجمعة، على أمل أن أُثنيَ عليهنَّ أمامه. أخذْتُ هداياهنَّ لكنني لم أنبس بكلمة عنهنَّ لأحد. كان فاروكو سيُدمي فمي لو ظنَّ أني أتخطى حدودي ثانية. فمنذ أن أمسك بي وأنا أختلس النظر عبر ثقب بابه، صار يُذكِّرني بانتظام أنني ما زلتُ في التاسعة من العمر وأنه يكبرني باثني عشر عامًا. لا أُكِنُّ له أيَّ ضغينة على ضربه لي. لا. فلم يطرق رأسي بجدران الطين الصلبة ليجرح مشاعري؛ بل فعلها ليضعني في منزلتي. سواء أنجح في ذلك أو لم ينجح، فتلك مسألة متفاوتة، إذ أنَّ اختلاس النظر من ثقب بابه كان عادتي. حمل ثقبُ باب فاروكو الكثير من الملذات. وغالبًا ما تعلَّمْتُ الطرق التي يعمل بها جسد المرأة.

بوسع فاروكو أن يحظى بأيِّ امرأة. قد تلاحقه النساء، ومع ذلك يُشْعرهنَّ بشهوانيته وعرقه المتصبب من فرط المضاجعة. يرغبن فيه ويتفضَّلُ عليهنَّ، وبينما يرتدي ابتسامته الظريفة، يجثمن على جسده. دعني أخبرك أمرًا، عندما ترغب بك امرأة، فمن الأفضل أن تستسلم وتدعها تمتطيك. ستشعر بعدئذ أنك مثل قطعة نقود معدنية مصقولة. لم تكتفِ النساء من جلده الأصفر. ولم يهنأ لهنَّ بال حتى انعصرت أثداؤهن فيه، وطوَّقْنَهُ بأفخاذهن، وانثنت أصابع أقدامهن عليه.

لم تطرق لاتُندن بابَ بيتنا الأمامي، في نهاية هذا الأسبوع بالذات، كما فعلَتْ أيام السبت الثلاثة الماضية. كان هذا استثنائيًّا إذ تميل النساء المنفلتات إلى الدوران بمهارة أكبر. استمرَّ فاروكو في مراقبة الباب ليعرف إن وصلَتْ، لكنه جزع عندما حلَّ المساء. أعطاني نيرة واحدة وأرسلني لأجدها. "وإن لم تتبعكَ فورًا، اجثُ على ركبتيكَ وتوسَّل إليها حتى تفعل، وإلَّا كان حسابُكَ معي عسيرًا!" جنَّ جنونه وهو يتأمل خصيتيه. انتعلْتُ

شبشبي وتساءلْتُ عمَّا يميِّزها. لا أجد بأنها تختلف عن الأخريات. ببساطة، لا يستطيع طفلٌ أن يفهم هذه الأمور، كما تعرف.

أعطَتْني لاتُندن يدَها وسمحَتْ لي بأن أسحبها إلى منزلنا، هي ورائحة قشر البرتقال التي تفوحُ منها. لم تكن تتصور، بالطبع، أني رأيْتُ ثدييها المتدلِّيين أو مؤخرتها. ثلاث مرات، على وجه التحديد. تلك المرات هي كل ما شغل بالي حين لمسَتْ شَعري، وداعبَتْ رقبتي، ونكزَتْ جبيني. ثم اختفَتْ وراء بابِ فاروكو. وما أن وضعْتُ عيني في ثقب الباب، حتى أصبحْتُ مستعدًّا. صُعِقْتُ لمَّا رأيْتُ لاتُندن مستلقيةً هناك بارتخاء واضح. لكنَّ فاروكو رفع جسدَهُ عنها بعدئذ، فلمحْتُ أنَّ الرجال يحتقرونها حين تُرافق غيرهم. متغضنة، هناك بين فخذيها، صدَفة عفيَّة، نصفاها شفتان فاتنتان مكسوَّتان باللون الوردي الخلاب. ضائعًا كنتُ في معجزة الصّدَفة النابضة لدرجة أني نسيتُ أن أحترس من فاروكو؛ الذي رفس البابَ ووجدني واقفًا هناك فيما كانت يدي ترتعش في سروالي. تجاهل اعتراضَ لاتُندن وركلني إلى أن صرتُ أتلوَّى من الألم. لم أجرؤ على الصراخ. فلو عرف والدي بفعلتي، لجعلنا كلينا ننام في المطر.

ظهر فاروكو بين حقول الذرة في الساحة الخلفية بعد بضعة أشهر. كان حافي القدمين، والعرق يتصبب من مسامه كلِّها. بدا أنَّ إحدى ذراعيه مكسورة، وقد تلطَّخَتْ أصابعه بالدم. استدعتني أمي إلى غرفتها وطلبَتْ مني أن أكتم خبر وصوله. لسببٍ بسيط: حافلة فاروكو اقتادَتْهُ إلى حتفه. تصوَّرْتُ أنَّها جُنَّتْ لأني كنتُ أعرف أنَّ أخي حيٌّ يُرزق، وإن كان مكروبًا. كنت قد سمعته يبكي في غرفة نومه، وشاهدته يطلب الغفران كما لو كان لا بدَّ لخطاياه أن تُكشَطَ كشطًا من جلده.

تكشَّفت الحقيقةُ لاحقًا، بعد أن اقتحم منزلَنا الرِّجالُ في سيارة الفولفو الرمادية، وجرَّدوا فاروكو من ملابسه، وأحرقوه على مرأىً من الجميع في القرية. إذ تبيَّن أنَّ النوم غلب فاروكو أثناء قيادته حافلة ملأى بالركاب، بعد أن قضى ليلته يشرب بشراهة، فاصطدم في عمود كهرباء خرساني. لقد قتلهم جميعًا وفرَّ من مكان الحادث قبل وصول الشرطة. لذا عاد إلى المنزل ليشارك ما تبقى له من وقت مع عائلته وربه؛ لا بدَّ أنه عرف أنه كان أزيد بقليل من رجل ميت يصلي.

ألقى الرجال في سيارة الفولفو الرمادية أربعة إطارات تالفة على رأسه، ورشُّوا شعره بالبنزين، وأشعلوا النار فيه. وكلُّ جلده الأصفر؛ ذاك الذي اشتهته النساء، احترق وتفحم في شحمه. شاهدَتْ أمُّنا ما حدث، حتى عندما لسع الدخان عينيها، ظلَّتْ تخبر المتفرجين الهستيريين بصوتها المُحذِّر أنَّ الحافلة هي التي اقتادته إلى حتفه. في النهاية، توقَّف رأسُ فاروكو عن حركته الجنونية، حينئذ خارت عزيمة ماما. خرَّتْ على الأرض الدافئة مثل قطعة قماش قديمة من الكتان.

دفنَّا فاروكو في حقول الذرة، دون أن نضع علامة على قبره. فلم يكن مكانًا مريحًا يريد أحد أن يتذكَّره، ولكن كان في قرب المكان مواساة وراحة لماما، وإن بالسر. بكيْتُ حتى كادت عيناي تسقطان من رأسي. أين كانت الشرطة؟ لماذا لم يكن هناك تحقيق، أو مقالات صحفية؟ هل تعرف لماذا؟ سأقول لك: لأن الأغنياء هم من يملكون هذا العالَم، والفقراء لا يُساوون شيئًا. تغيَّرَتْ نظرتي للعالَم كثيرًا في تلك الأسابيع. كانت النساء أكبر مفاجأة بالنسبة لي. إذ لم يتركني أرتاح عندما كان فاروكو حيًّا. ولكن ما أن اختفى جسده تحت التراب، حتى حوَّلْنَ محبَّتهنَّ لرجالٍ آخرين، وإخوتهم

الصغار. كما لو أنَّ بشرته الصفراء لم توجد أبدًا. تجنَّبْنَ النظر في عينيَّ لمَّا كنَّ يرينني، حتى لاتُندن. النساء مخلوقات متقلبة! وسيدمِّرْنَ هذا العالَم بقواقعهنَّ الزَّلقة واللزجة في نهاية المطاف.

قلتُ في نفسي إنَّ موتَ فاروكو لن يذهب سُدىً، وبأنني سأصيرُ كلَّ ما حرمه العالَم منه. على الرغم من أنني بتُّ أُعْرَفُ بلقب الأخ-الأصغر-للسائق-القاتل، لكنني ودِدْتُ أن أصير سائقًا، أيضًا. انتقلْتُ إلى إيبادان في سن التاسعة عشرة؛ الوقت الذي كانت فيه لاتُندن، ومثيلاتها، يمشين بأعقابٍ جافة متصلبة في أرجاء القرية، والشيب يغزو رؤوسهن. وعن طريق إعلان نُشِر إلى جانب الطريق، وظَّفني رجلٌ بدأ عمله الخاص بالمال الذي حصل عليه لا أعرف من أين. وما شأني أنا؟ لا يهمني أيُّ شيء آخر ما دمتُ أستلم راتبي في يدي في نهاية كل شهر.

ما أن التقيْتُ بمديري، حتى عرفْتُ أنه يَعُدُّ نفسَهُ من الأثرياء. يتكلم مثلهم، ويتصرف مثلهم أيضًا. ولا يزال يفعل. في المقابل، ألعبُ دوري كسائق، السائق الفقير المسكين، السائق الذي لن تعرف بطنه معنى الشبع أبدًا. إنه طيب معي ويعاملني جيدًا، ولكن هنا تكمن مشكلتي - فأنا أشفق عليه. ماذا تتوقع بعد أن جلسنا جنبًا إلى جنب كل يوم تقريبًا لمدة ثمانية عشر عامًا؟ أُقسِمُ أنَّ الشيء الوحيد الأسوأ من رجلٍ غنيٍّ هو غنيٌّ يسعى إلى أن يكون رجلًا صالحًا.

قال لي، بعد بضعة أشهر من بدء العمل، إنَّ زوجته تواجه مشكلةً في الإنجاب، لكنني صمتُّ. بعد أيام، بدأت الزوجة أيضًا تُكلِّمني عن مشاكلها. لم أقل لها شيئًا هي الأخرى. إلَّا أنها بدأت تعطيني الهدايا وتنظر إليَّ بعين الغرام. قالت إنها لا تعرف أحدًا في إيبادان وتحتاج إلى صديق.

اقترحْتُ عليها التفكير في فتح متجر بمشاركة أخريات. أليست تلك طريقة النساء في تكوين الصداقات وبدء نميمتهنَّ التافهة؟

على أية حال، أرسلني مديري، في مساءِ يومٍ حارٍّ، وفمي جافٌّ، إلى المنزل لأستلم طردًا تركه تحت رعايتها. كانت في المنزل حين وصلْتُ، ودعَتْني للجلوس في الداخل. ولمَّا عادَتْ من غرفة نومها، وجدَتْني جالسًا في كرسي زوجها. كنتُ لعوبًا في تلك الأيام، ولكن ماذا تتوقع من شابٍّ لا يملك أريكة؟ وبدلًا من أن توبِّخني، طلبَتْ مني أن أبقى جالسًا، وضحكَتْ. أدركْتُ لاحقًا أنها جلسَتْ فوقي، وامتطتني كحصان. لا أستطيع القول إني قاومتها، ولكن تذكَّر، فزوجة مديري ليست امرأة بحجم متواضع. ثبَّتتني أسفلها بقوة ثلاثة رجال. اعتقدْتُ أنني ربما يجب أن أطلب منها التوقف، غير أنها غطَّتْ فمي بيدها، أو ربما كنت أنا الفاعل. حدث هذا منذ مدة طويلة جدًّا. ولا أتذكر الأحداث بوضوح الآن. كل ما أعرفه هو أنَّ ما حدث أشبه بسرقة أسمن صدر دجاجة من مائدة طعام رجل ثري.

بعدئذ، صرتُ كلما أرسلني مديري إلى منزله، في مهام مختلفة، أجد نفسي جالسًا على تلك الأريكة، تمتطيني امرأته مثل سرج حصان جديد. لا أعرف ما الذي أعجبني أكثر؛ المروحة المعلقة فوق رأسينا، أم أريكة مديري، أم امتطائي فيها. انتفخَتْ بطنُها مثل دمَّل في بضعة أشهر. الدمامل مؤلمة للغاية. حتى بعد أن تنفجر، إذ تبدأ الحكة ولا تنتهي.

لا أدري إن كانت ساغي طفلتي. الأمُّ وحدها تعرف من والد طفلها. كل ما أعرفه هو أنني وجدْتُ نفسي جالسًا في الأريكة ذاتها مرة أخرى بعد عامين. أُقسِم أني كان يجب أن أولَدَ حصانًا. كنت أحيانًا أتخيل أنَّ لاتُندن هي زوجة مديري. ها! حتى الآن عندما أتوقف عند كشك بيرة لأتناول

الحلزون، آكله منفرجًا وأقضمه متمهلًا، إكرامًا لها. لا تسخر مني، رجاءً.

تطلب مني إيا فمي تسليم رسائل إلى رجل في مدينة بوديجا. آه من الأغنياء وما يفيض منهم! وقبل حتى أن أضطر إلى سؤاله، ملأ تونده يدي بالمال. لا يمكن لإيا فمي أن تستاء أكثر مني عندما سافر تونده. شعرْتُ كما لو أنَّ أخي توفي. لم يكن مديري جزيل العطاء. فبعد أن يعطيني راتبي، يتجاهلني حتى الشهر القادم. لا يعرف بأني أتناول الطعام في مطبخه دون حساب. لحمه، وكرشته، وكليته، وكبده، ولسانه - كُلُّ ما تحلم قُدور زوجتي أن يُطبَخَ فيها. يرى أطفالي أنَّ حساءً لا يمتلئ بشرائط من جلد البقر أمرٌ مرعب. ربما كان من الأجدر ألَّا يتذوَّقوا ما لن تعتاد عليه أفواههم أبدًا.

الطفل الثاني لإيا ساغي صبي لا يشبه أباه. عندما أنظر إليه، أحيانًا، وأغمض عينيَّ، أرى أنَّ ابني الصغير سيكبر ويصير شبيهًا به. إن كنت تتصور أنني آبَهُ لذلك، فهذا يعني أنك لم تسمع كلمة واحدة مما قلته! ماذا أفعل بابن بابا ساغي فيما أنا أطعم أولادي بصعوبة؟ حياتي بسيطة، وأريدها أن تبقى كذلك. نصيب الرجال الفقراء هو أن يحصلوا على ما يستطيعون الحصول عليه ويرحلوا، بهدوء.

أطلِقْ عليَّ أحكامك إن شئت. قل إني خائن! أعتقد بأني كنتُ شريفًا قدر استطاعة رجل فقير. إن لم تقبل بذلك، سأتركك لأفكارك الخبيثة. سأرحل عندما أتعب من هذه الوظيفة. فالإعلانات التي تطلب السائقين المهرة كثيرة. وكما قلتُ، حياتي بسيطة، وأريدها أن تبقى كذلك.

الوداع

سمع تاجو صوتَ أحدٍ يتقيأ، لكنه لم يدرك مصدره إلا عندما رأى بابا ساغي يترنح أمام باب السيارة المفتوح. تركت بقايا فطوره بقعًا ملونة على ياقة قميصه البيضاء الناصعة. أمر قائلًا: "خذني إلى المُعلِّم!" تضرَّجَتْ عيناه بالدماء، كما لو كان يبكي دمًا.

شاهد تاجو إيا ساغي تغادر المبنى قبل بضع دقائق. كانت تتخبَّطُ في سيرها مثل راقصة ثملة؛ مُخَطَّتْ بمنديل رأسها الذي تمسك به. دفعَتْهُ غريزته إلى الاختباء أولًا، لكنه قاوم، ومشى نحوها. سألها: "ألن تعودي معنا يا إيا ساغي؟"

"لا، سأعود إلى المنزل وحدي، يا تاجو. زوجي يعرف." اكتمل إحساسها بالخزي؛ فمجرَّد رؤيتها لتاجو أشعَرَتْها أنها قذرة.

"ما الذي يعرفه زوجك؟"

"أنَّ أطفاله ليسو من صلبه."

"هل ذكرْتِ له اسمي؟"

توقفت إيا ساغي عن السير ونظرت إلى الوراء. "هل فقدْتَ عقلكَ؟ قدمي في منزل زوجي والأخرى خارجه ولا يسعك إلا أن تسأل إن ذكرْتُ اسمَكَ أم لم أذكره؟" ثم عادت إلى لهجتها كأم وقالت: "أخبرْتُ زوجي عن أطفاله. فيمَ يهمُّكَ هذا؟"

"أعتذر إن بدوْتُ غير مهتم، ولكن لديَّ عائلة أعولُها أيضًا. أنا أعمل في منزلك، لذا إن كنتُ سأفقد عملي، أليس من الصواب أن تُحذِّريني؟ فمديري يعاملني جيدًا." كان يعلم أنها تعرف ما كان يفكر به، ولم يكن ليريح فكرها أنه يعتقد أنها لا تعرف.

"ربما لم تفهم كلامي، يا تاجو. إعفاؤك من عملك أو عدمه مسألةٌ بينك وبين مديرك."

"كنتُ فقط أفكر في-"

"لا يا تاجو. لا تفكر. اقبض على مِقْودك. ذلك عملُكَ، أليس كذلك؟" التفَّتْ إيا ساغي بكامل جسدها وانطلقت بقوة باتجاه بوابات المستشفى.

حكَّ تاجو فروة رأسه بعود أسنان وعاد إلى السيارة. شعر بأنه مفضوح، كما لو أنَّ النَّسيمَ سحج جلد بطنه وأبلاه. كانت رؤية أحشائه مشهدًا بغيضًا، فعرف فورًا أنه لن يقدر أن يسامح نفسه.

"هل أنتَ بخير يا سيدي." سأل تاجو حين تهاوى بابا ساغي في المقعد المجاور للنافذة.

"قُد السيارة وحسب!"

انتظر تاجو نسمة من الريح ثم قال: "ثمة شيء وددْتُ أن أخبركَ به." تنحنح بعصبية. "يجب أن أسافر إلى أُولَغْبون. أمي مريضة. يقول أقاربي إنَّ

ساعتها وشيكة."

"متى ستسافر؟" لم ينظر بابا ساغي ناحيته. ثم تذكَّر أنه أعطى تاجو مالًا لجنازة والدته قبل عامين.

"لا أعرف. تلقَّيْتُ الرسالة اليوم."

"أفهم من ذلك أنك تطلب راتبك أبكر من موعده المحدد؟" إذًا، فتاجو سيغادرنا.

"سأكون شاكرًا جدًّا لأي مساعدة مالية، يا سيدي."

يقولون حين يُظْلَمُ أحد الآلهة، فإنه يدعو الآلهة الآخرين لينضمُّوا إليه بغية السعي للثأر. شعر بابا ساغي وكأنَّ عشرة أرياح تدور في رأسه. أحسَّ بقوة الغضب وتساءل عمَّا فعله لتضربه الآلهة بقوة. "فقط خذني إلى المُعلِّم. وإن شئت، دفعْتُ لك عندما نصل."

"شكرًا لك، سيدي." لم يكن في صوته أيُّ امتنان، قلق فقط. أخذ يفكر مليًّا باعتراف إيا ساغي. الأحمق فقط يسأل من أشعل عود الثقاب عندما يرى الدخان المتصاعد فوق سطح منزله. لقد قضت إيا ساغي على عِشرة امتدَّتْ ثمانية عشر عامًا. نظر إلى مديره، جالسًا هناك، تفوح منه رائحة القيء النتنة، ولم يشعر بأيِّ ذنب. ثمة خوف فقط، ولم يكن هناك أيُّ ذنب. كان بابا ساغي أطول منه مرتين، وأسمن منه ثلاث مرات. شاهده يتحسَّسُ بولنله؛ لم يُطلقوا عليه اسم فهد لأن لديه بقعًا.

صمتا طوال الطريق. تجاهل بابا ساغي الذُّبابَ الذي انجذب إلى رائحة النتانة في ثيابه. وهو من كان يضربه عادة، لكنه اليوم يجلس بلا حِراك، ويتركه ليتغذى عليه. كان بابا ساغي يتمرَّن على الموت. إذ أخذ أنفاسًا عميقة ومتقطعة، وتمنَّى لو تسرَّبت الحياةُ منه إن سحب نَفَسًا عميقًا بما يكفي.

عندما وضع بابا ساغي المال في يد تاجو، قبض على أصابع سائقه الصغيرة ونظر في وجهه عميقًا. فما كان من تاجو إلا أن جفل وانسحب، لكنَّ بابا ساغي لم يترك أطراف أصابعه. "ألن تعطيني مفاتيحي قبل أن تغادر؟" لم يدرك بتاتًا أنَّ مثانة تاجو طافحة. أخذ المفاتيح وأعاد لتاجو يده. ثم حثَّهُ بقوله: "تمنياتي الطيبة."

"شكرًا لك يا سيدي." لم يلتفت تاجو بل سار عبر الطريق بخطىً واسعة وسريعة.

عاد بابا ساغي إلى كوخ المُعلِّم، متمنِّيًا أن تلتوي ساقاه من تحته. رأى بشاعة المكان من حوله: المباني المنحنية؛ وألواح الخشب المحطَّمة تربط بينها الرُّطوبةُ الصاعدة من المزاريب الصَّدئة؛ والطرق غير المستوية التي تزفر غيومًا من أتربة كلما أزعجَتْ سيارة هدوءها. "لا! ليس هذا المكان المناسب،" كرَّرها لنفسه.

وقفت امرأة خارج كوخ المُعلِّم. فخذاها مضمومان بتنورة جينز قصيرة جدًّا، وثدياها مقيدان بقميص ضيق فوشي اللون مطابق للون أحمر الشفاه. في أي يوم آخر، كان بابا ساغي سيُدلي بتعليق سمج يتعلق بصلابتها في المشي. لربما سألها متظاهرًا بالقلق: "هل تتنفسين جيدًا؟" أو ربما قال: "لو لم يكن لدي منزل مليء بالزوجات والأطفال، لجعلتك عروسي." كان سيقولها بنفس ساخر وفوقيٍّ طبعًا. كان من الممكن لهذا أن يقال بطريقةِ تعبيرٍ تافهةٍ ومتعالية. وعليه، كانت المرأة ستجيب بقولها: "هل أعجَبَتْكَ الطريقة التي أمشي بها أم تلك التي أضاجع بها؟" أو ربما أجابَتْ تعاليه بصفيرِ استهجانٍ مُدوٍّ يلاحقه الطريق كلَّها حتى يصل وجهته. نساء أبيكارا يائسات، إلا أنهن يبصقن في وجه الصفاقة. اليوم، بهتت عينا بابا ساغي من الحزن؛ لن يُوقظ

ظرافته شيء. مرَّ بالمرأة، وتنشق الهواء، وانحنى فيما كان يدخل كوخ المُعلِّم. عجَّتْ مساحة المكان الضيقة برجال تواقين للشرب وطيِّ المساء ونسيان ما فيه. وقد قطع العديد منهم شوطًا. تحدَّى الحرَّاسُ الليليون النوم. أسندوا عصيَّهم على الجدران الخشبية وغمَّسوا أصابعهم في كؤوسهم ليطردوا الحشرات الميتة. بعضهم جعل من الإفراط في شرب الويسكي غايته في يومه ذاك، كما كان حاله في الأمس، وقبل الأمس. احتشدوا جميعًا وتلاصقوا على مقاعد منخفضة، يلعبون الداما، ويضحكون على حكايات متفرقة. انزعج بابا ساغي من استخفافهم لمآسي الحياة العديدة. تجمَّعَتْ قطراتُ عَرَقٍ غاضبة على حاجبه، انطلقَتْ عبر تغضنات وجهه ورسَمَتْ دموعًا عند طرف أنفه. نهض المُعلِّمُ وأشار إليه.

"تدمَّرَتْ حياتي." مسح بابا ساغي جبهته بكفه. "أشعر بأني في حفرة من الرمال المتحركة. وكل ما فيها ظلام، يا مُعلِّم. كله ما فيها ظلام."

"الأمل والحياة صنوان." تشرَّب المُعلِّمُ حكايته بتعاطفٍ ورضا. تخمَّر في داخله شعورٌ بالرفقة والتكاتف؛ واساه أن يسمع أنَّ رجلًا آخر قد جُرِّدَ من رجولته. ما دام استطاع هو أن يعيش مدركًا أن قضيبه لن يشقَّ "شفتَيْ" امرأة قط، فلِمَ لا يستطيع بابا ساغي التعايش مع ورطته؟ إذ يمكنه أن يُلينَ امرأةً بفحولته، على الأقل.

"أين الأمل؟"

"ثمة قوس قزح عند باب كلِّ نفق."

"لا أفهم ما تقول."

"مم." نهض المُعلِّمُ وملأ قدح بابا ساغي الفارغة ثانية. "سيبدو ما سأقوله لك مثل ما يقوله رجل مجنون، لكن عليك أن تفكر به مليًّا."

صوَّب عينيه المتلألئتين على وجه بابا ساغي وتمتم قائلًا: "حان الوقت لتعيد المخادعات؛ اللواتي جلبن أطفال الزنا إلى منزلك، إلى منازل آبائهنَّ."

شبك بابا ساغي كلتي يديه وضمَّهما أسفل ذقنه. وثقلت رأسه فجأة. "أصرفهنَّ هكذا كما يُكشَحُ الدَّجاج؟"

"هذا أشرفُ ما يمكن فعله." تابع المُعلِّمُ، وعيناه تتسعان على فكرة أنَّ بابا ساغي سيتردَّدُ إلى كوخه كثيرًا وسينفق أمواله فيه. "كما تبسط حصيرتك في هذه الحياة، عليك أن تستلقي عليها." توقَّف. "ما لم" - وأشار نحو بابا ساغي حتى صارت أُنملته على بعد شبر واحد من أنفه- "تريد أن تملأ منزلك بأطفال ينتمون إليك بالاسم فقط."

"لعنة! سيكون ذلك لعنة!" أزعجَت الفكرةُ بابا ساغي كثيرًا.

منتصرًا، رفع المُعلِّمُ يديه. ثم قال "أَصْغِ إليَّ. عندما خلَّفني المُبشِّرون وراءهم، ذقت أقسى مرارة، لأني اتَّخذتهم آباءً لي. انتشلوني من منزل والدي حين كنتُ صبيًّا، وأشعروني بأني ابنهم بالفعل. ولكن عندما حان وقتُ رجوعهم إلى بلدهم، تخلَّوا عني وتركوني هُنا، مثلما يتخلَّى ديك صغير عن قشور الفول السوداني ويطرحها جانبًا." ارتشف قليلًا من الويسكي ونظر بكآبة إلى سحب الدخان المتطايرة من شفتين شبه مفتوحتين وأعقاب السجائر المُطفأة جزئيًّا. فقدْتُ الأمل لثلاثة أعوام، غير قادر على قبول قدري. هل تعرف أنَّ اليتامى أناسٌ بائسون؟" جذب انتباهَهُ سطحُ البناية المقابلة. "ولم أكد أرجع إلى والدي الحقيقي حتى انقشع بؤسي عني. ما أحاول قوله هو حقيقة أنَّ والدك سيبقى دائمًا والدك، حتى عندما تجبرك الحياةُ على إيجاد والدٍ لك من بين الغرباء."

"هل تقول إنَّ أطفالي سيبحثون عن آبائهم الحقيقيين ذات يوم؟ وأنني

لستُ سوى وصيٍّ وراعٍ مؤقَّتٍ لهم؟" بصق بابا ساغي كلماته القليلة الأخيرة كما لو أنها أحرقَتْ له لسانَهُ.

"بكل تأكيد، يا صديقي. لست أكثر من بوَّاب. وفي اليوم الذي يتمكن فيه هؤلاء الأطفال من فتح الأبواب بأنفسهم، سيغادرون، ولن تبقى معك إلا خسارتك."

أومأ بابا ساغي برأسه. "مُعلِّمي، حكمتك تُخجل تواضعي."

"لا تقل ذلك، بابا ... ممم.. يا صديقي. يتعثر الرجال بالكبرياء قبل وقوعهم في هاويته." أُنجِزَت المهمة، أخذ المُعلِّمُ جرعةً كافية من شرابه المخمر، وحكَّ ذقنه.

الفصل السادس والعشرون

صمت

تعاظم الصمت في منزل آل آلاو، بمرور كل ساعة، حتى أصبح حادًّا لدرجةٍ تلسع العيون وتستقي الماء المالح من الأنوف. جلست الزوجات على أرائكهن، ينتظرن عودة بابا ساغي ليقرر مصيرهن. أخذت كل واحدة منهن تفكر في كلماتٍ تلقي بها اللوم على الأخريات، إلا أنَّ حناجرهن ظمئت من فرط القلق. كنَّ يشردن، بين الحين والآخر، في أطفالهن النائمين في أسرَّتهم، غافلات عن المجهول الذي يحيط بمستقبلهن، غير مدركات لاحتمال أن تكون هذه آخر ليلة ينمن فيها في أسرَّتهنَّ.

جلسَتْ بولنله على الأرض، ورأس ساغي يستند إلى كتفيها، وقد رأت إيا ساغي، حين عادت إلى المنزل، بعينين حمراوين ووشاحِ رأسٍ مُلطَّخٍ بالمخاط، لكنَّ الحزنَ الباديَ على وجهَيْ الزوجتين الأخريين لم يكن مفهومًا بالنسبة لها. ثمة ندمٌ وتأنيبُ ضمير، ولكن لماذا؟ وكذا ساغي التي تشرَّبَتْ الجزعَ. أصابتها الحيرةُ وارتفعت درجة حرارتها لفترة وجيزة. فقامت بولنله بلفِّ جسدها كله بقماش مبلَّل، وهي الآن مرتاحة أكثر. مع ذلك، رفضت أن تنام

في فراشها. وكلما مرَّتْ في شارعهم سيارة مسرعة، رفعت رأسها وسألت "هل عاد والدي؟" فتنتظر الزوجاتُ الأكبر إلى بعضهنَّ، عاجزاتٍ عن الرد.

أخيرًا، وقبل أن تدقَّ الساعة الحادية عشرة بقليل، دخلت السيارة منطقة المُجمَّع. توقف المُحرِّكُ فجأة وأُغلِقَ البابُ بقوة. عدَّلَتْ ساغي رقبتها.

قالت "وصل،" فيما كانت تسدُّ فم ابنتها.

تناثرت الحجارة تحت وقع خطوات بابا ساغي المتزعزعة. واصطدم بالباب الجرَّار، وتعثر أثناء دخوله البناية، حاملًا معه رائحتَيْ قيئه المنتنة والويسكي الآسنة.

وقفت بولنله لتحيته لكنَّ بابا ساغي لم يرها ولم ير ساغي أيضًا. "إذًا، ها هنَّ السَّاحراتُ اجتمعن ليسفكْنَ الدِّماء!" تمتم كلامًا يَعُوزه الوضوح، مُحدِّقًا بغضب في الزوجات الأخريات اللواتي جلسن برؤوس محنيَّة. "عد من حيث جئت وأخبر الأرواح الشريرة التي أرسلتك أنني لم أكن في المنزل لمَّا حضرت." قال ثم مزَّق قميصه المتَّسخ، وألقى به أرضًا.

"تنتظرك ساغي منذ مدة،" قالت وهي تستعطفه، آمِلَةً أن يُوقظه الحديث عن ابنته المريضة قليلًا.

"أحقًّا؟ أخبريني لِمَ تنتظرني. أيتها الزوجات، أخبرنني لماذا!" صاح مُوجِّهًا كلامه إلى زوجاته.

"بابا ساغي، فلنفعل هذا بطريقة ثانية." تصوَّرَتْ إيا ساغي أنها بهذا قد تعيده إلى صوابه، كما كانت تفعل دائمًا.

لم يقبل بابا ساغي منطقها هذه الليلة. فاندفع نحوها ورفع ذراعه حتى كادت تلمس مروحة السقف. ثم بحركة واحدة سلسة، أسقطها على

فكَّها. قفز الجميع، بمن فيهم ساغي التي كانت تئن. لم يتعرف والدها عليها، واعتقدت أنها قد تثير إعجابه برفع رأسها عن الأرض.

"عسى أن تأكل الكلابُ فمَكِ!" قالها وهو يعتلي إيا ساغي. "أيُّ فمٍ هذا الذي تخبرينني به كيف أفعل أيَّ شيء؟ أنتِ، يا من أتيتِ بأطفال الزنا إلى منزلي! استغلَّيْتِني! جرحْتِني!" انخفض صوته إلى الهمهمة. "لكن، دعيني أؤكد لكِ أنَّ الأسد زأر، والكلب نبح، والفأر صرَّ. طفح الكيل!"

استقرَّ وجهُ إيا ساغي على ذراع أريكتها حيث قذفتها قوة الصفعة. أمَّا الزوجات الأخريات فصمتن، في انتظار أن ينقلب بابا ساغي عليهنَّ أيضًا.

ثم طرأت على بالِ إيا فمي فكرة جيدة، وقررت أن تغني لحنها المميز. "إنه الشيطان!" جهرت بصوتها وهي تجثو على ركبتيها في خشوع وتضرُّع على بلاط أرضية التيرازو البارد.

"أجل، إنه الشيطان، ولقد سئمت من القيام بعمله. لا بدَّ أن يحضر ليأخذ ذريته من منزلي!" استقام بابا ساغي وكأنه تحدَّى الشيطان أن يعصيه.

"بابا ساغي، ما سبب كلِّ هذا؟"

جعله صوتُ بولنله يُغيِّرُ فِكرَهُ. ويا للدهشة، لان وجهه. "ما سبب هذا؟ سأخبرِكِ. في الحقيقة، عليَّ أن أشكركِ أولًا، فلولاكِ، لَمَا اكتشفْتُ الغش الذي عشتُ معه طوال هذه السنين." جفل. "تبيَّن في المستشفى اليوم أنَّ أطفالي ليسو من صلبي. اكتشفْتُ، اليوم فقط، أنَّ مَنْ ربَّيْتهم وأسميتهم باسمي أنجبهم رجالٌ ضاجعنهم زوجاتي." قال هذا، ثم بصق بلغمًا كان في جوفه ثم صوَّبه على إيا فمي. تصويبة جيدة؛ فقد طارت البصقة عبر الهواء واستقرَّتْ فوق جبهتها رذاذًا. لم تجرؤ على رفع كمِّها لتمسحها.

وبينما كان بابا ساغي يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، ضرب رأسَ إيا توبه

وخلع عنها وشاحها، ثم عاد إلى مقعده. خدمَتْها ردودُ أفعالها. فلقد قفزت من مقعدها، مثل طفلة اكتشفت للتو ثعبانًا في أغطية فِراشها، فحشرت نفسها في زاوية الغرفة. "عاهرة!" قال مُتَّهِمًا. نظر إليها باشمئزاز. ثم، وبانحناءة رأس واحدة، خرَّ مغشيًّا عليه على مقعده، غائبًا عن العالَم.

ظلَّتْ عينا بولنله تتنقَّلان من زوجة إلى أخرى إلى أن اقتحم فضولَها صوتُ ارتطام. ضرب الجزءُ الخلفيُّ من رأسِ ساغي الجرداء أرضيَّةَ بلاط التيرازو العارية بتناغم واضح. انقلبت عيناها إلى الأعلى، وكشفتا مقلتَيها الصفراوين الحادتين. وتدلَّى لسانُها، من جانبِ فمِها، وقد أمسكَتْ به الأسنانُ المشدودة.

استيقظت إيا ساغي من غفوتها التي سبَّبَتْها الصفعة هرعت نحو ابنتها. لفَّتْ ذراعيها حول بطن ساغي ورفعَتْها إلى وضعية الجلوس.

صاحت إيا توبه "ساغي! ساغي!" كانت تلك صيحة تضرُّعٍ لطفلٍ يرقص على حافة بئر بفمٍ فاغر.

ركضت بولنله إلى المطبخ لإحضار وعاء من الماء وعادت بيدين مرتعشتين. غطَّسَتْ إيا توبه يديها في الوعاء ورشَّتْ بضع قطراتٍ على وجه ساغي، في حين فركَتْ إيا فمي اليد اليسرى للصغيرة، آمِلَةً أن تعيد إليها الدفء. هدأت الرَّجرجة وآلَتْ إلى تيبُّسٍ جعل أصابع أقدإيا ساغي تستطيل وتمتد مثل أصابع جارورة[18]. استقامت ذراعاها عند المرفقين وامتدَّتْ عنقها خارج كتفيها. كان الألمُ المتبدِّي في وجهها جليلًا للغاية لدرجة أنه أَبْكى النساء الأربعة. ثم، بعد نفس طويل وعميق، زفرَتْ ساغي كلَّ ما فيها من حياة. وبعد أن تلاشَتْ كلُّ علامات التوتر والعذاب من وجهها

---

18 آلة لتسوية الأرض. م.

فجأة، ظلَّتْ عيناها المنفرجتان قليلًا تُحدِّقان في المقعد خلف أظافر قدميها الشَّاحبتين.

سحبَتْ إيا ساغي ذراعَها فورًا من تحت عنق ابنتها. رويدًا رويدًا، وقفت على قدميها، ورجعَتْ إلى الوراء بضع خطوات، دون أن تُفارقَ عيناها جسدَ ابنتها الهامد. حتى عندما لامس ظهرُها الجدار، لم تقتنع أنها لا تستطيع الرُّجوعَ خطوة أخرى إلى الوراء.

"رأيْتُ ما لا يجب أن تراه أمٌّ مطلقًا،" قالت لاهثة، كما لو أنَّ أحدًا سألها. عقدت العزم على أن تنحنيَ احترامًا، ولكن قبل أن تتمكن إيا توبه من كبح جماحها، صدمَتْ مؤخرة رأسِها بالجدار. لم تطرف عيناها. ولم تجفل أيضًا. لو أنَّ إيا توبه لم تُطوِّق رأسَها بذراعيها، بأسلوب مسكة الطَّوق، لاصطدم ثانية. انضمَّتْ إيا فمي إليهما، وسرعان ما تلوَّتْ ثلاثتهنَّ على الأرض في جسمٍ واحدٍ تشابكَتْ فيه الأذرع والأقدام.

وبينما كانت بولنله تحدِّقُ في وجهِ ساغي، خلعَتْ مئزرها ووضعَتْهُ برفق فوق جسد ساغي.

"غطِّي وجهَها!" صاحَتْ إيا توبه. "يجب ألَّا ترى الأمُّ عينَيْ طفلها بعد أن تغادرهما الحياة!"

رفعَتْ بولنله قماش المئزر من حاشيته وسحبَتْهُ على وجه ساغي، وبذا كشفَتْ قدمَيْها الصفراوين الرقيقتين. أدهشها جمالُ كلِّ إصبعٍ، ثم أتاها صوتُ شخيرٍ حاد من بابا ساغي.

أفلتَتْ نخرةٌ من فم بابا ساغي، من حين لآخر، لكنَّ النوم جافى النساء في منزل آل آلاو. وعندما يهدِّدهنَّ التعب بالنوم، يدفعهنَّ الأسى للاستيقاظ، والدموع تنهمر على وجوههنَّ في سيلٍ لا ينتهي. ولأنَّ أيًّا منهنَّ لا تجرؤ على

نقل جثة ساغي، استيقظ أطفالهنَّ ليجدوها متيبسة تحت المئزر المصبوغفي وسط غرفة الجلوس. تجمَّع الأطفالُ الأكبرُ سنًّا، بصورة ثنائية، وشاهدوا إخوتهم الصغار يحبطون رغبتهم في التساؤل عن سبب وجود ثوبٍ على رأس أختهم. جلس آكن بالقرب من قدمَيْ شقيقته، يحدِّقُ وينتحب.

طرفت عينا بابا ساغي، عند نحو الساعة السادسة صباحًا، وقابلتا عشرة أزواج من العيون المتفحِّصة والمحتقنة بالدم. أغمض عينيه كما لو كان يقوم بتقييم خاص للحالة، ولكن عندما فتحهما ثانية، انتقل ببصره من الكومة المستترة على الأرض إلى وجهِ إيا ساغي. دون كلام، أخرج نفسه من مقعده وتوجَّه نحو غرفة نومه، مصحوبًا بسيلٍ دافقٍ من البول الدافئ.

لا بدَّ أنه اعتقد أنَّ أحدًا لن يسمعه لأنه أطلق صيحاتٍ متتالية ومتكررة إلى الحدِّ الذي جعل الجيران ينفرون إلى بوَّاباتهم. ولم يكد آكن يعثر على المفاتيح، ويسمح لهم بالدخول، حتى عاد بابا ساغي إلى مقعده مرتديًا ملابسه كاملة باستثناء بنطاله الذي كان مقلوبًا. لم يهتمَّ أحد بذلك. حرصًا منه على تحاشي الكومة في وسط الغرفة، ثبَّتَ عينيه على واحدة من الجيران المهتمين وسألها عن مكان يشتري منه نعشًا. تخلَّلَتْ كلماتها حازوقة.

"تباع على جانب الطريق ما بين سابو وأوريتامرين. لكن أرجوك، يا بابا ساغي، زوجي سيذهب ويشتريه."

لكأنها لم تنبس إلا بالاتجاهات، خرج بابا ساغي تاركًا أفراد عائلته يحدِّقون في حاشية بنطاله بأفواه فاغرة.

استُدعي طبيبٌ لتأكيد وفاة ساغي، في حين أُخِذَتْ إيا ساغي إلى منزل جيرانهم. ملأ الزوجات الأخريات خوفٌ وحزنٌ شديدان حين تجهَّزْنَ لتبديل ثياب ساغي. فرَّتْ إيا فمي، في منتصف العملية، إلى حمَّام الضيوف، وهدَّدتْ

بالانتحار إن حاول أحد إقناعها بالخروج.

ساعد آكن في حمل جسد شقيقته الخفيف إلى الوسادة الناعمة في النعش الصغير. قاد الجار سيارته بحذر إلا أنَّ حُفرَ الطريق مالت بالنعش فانزلق على المعدن. أمسك آكن بالصندوق الرمادي المُلمَّع طيلة طريق الرحلة إلى المقبرة.

كان كلُّ شيء مُعَدًّا عند وصولهم إلى هناك؛ خدمة من جار طيب آخر. جرَّ كلٌّ من آكن، وبولنله، وإيا توبه النعش عبر بوابات المقبرة وأدخلوه في قبر مُسطَّح بين شاهدَيْ قبرين. تقشَّرَ النقش الموجود على الشاهد الأيمن بسبب العوامل الجوية. ولمعرفته أنَّ شقيقته ستُدفَنُ في قبر مجهول دون علامة، حفظ آكن الكلمات المنقوشة على لوح الرُّخام الصغير:

دولا أولاديجي
الفقيدة المحبوبة

لم تكن تلك جنازة كبيرة. إذ أنَّ حضورَ الآباء والأمهات جنازات أطفالهم من المحرَّمات، لذلك لم تكن أمها هناك لتولول عليها. ولأسباب مفهومة أيضًا لم يكن ثمة كهنة، ولا صلوات، ولا مباركة جهة القبر ترافقها في رحلتها. لم يكن هناك سوى حفَّار قبور، يتكلَّف الابتسام ويتكئ على شجرة، آمِلًا أن يحصل على إكرامية كبيرة لأنه وجد قبرًا بمساحة جيدة حُفِر على عجل. انحنى كلٌّ من آكن وبولنله بعيدًا عن قبر ساغي، يدًا بيد، ملتوي الأرجل، وقد أخرسهُما الحزن.

عند عودتهم إلى شارعهم، تردَّد صدى كلمات "فليغفر لها" من كلِّ نافذة وكلِّ باب. تحدَّثْ ساغي مجرى الطبيعة وبصقت الحليب من صدر أمها. إنها

معصية ولكنها مغفورة. غير أنَّ الحكمَ متروكٌ للآلهة.

دخلا معًا غرفة نوم بابا ساغي، وقد تخلَّفَتْ بولنله خطوة واحدة وراء آكن.

"هل قُضي الأمر؟" سأل.

"أجل،" أجابت بولنله فيما كانت تستدير لتغادر. لم تكن تريد أن تبقى هناك؛ أرادت أن تبكيَ ساغي على انفراد.

كتم آكن دموعَهُ. "أبي، أريد أن أكون رجلًا، ولكني أخشى أن أكون ضعيفًا."

نظر بابا ساغي إلى الصبي الطويل والنحيل الذي يجلس بظهر محدودب على حافة فِراشه. خلقَتْ كلمة "أبي" صدىً لكلِّ كلمةٍ أخرى. كانت مميزة ومريحة لسمعه.

"آكن، أنتَ أكثر من مجرد رجل، لأن من يعترف بضعفه رجل حقيقي. ستحرسك شقيقتك من عالَم الأرواح. افهم هذا ودعه يُقوِّيك."

"هل كان بمقدوري أن أفعل شيئًا، يا بابا؟ هل كان بوسعي إنقاذها بطريقة ما؟"

همهم بابا ساغي بارتباك، وهزَّ رأسَهُ نافيًا. أحسَّ بالدموع تُلهب مؤخرة عينيه. "لستَ إلهًا، لذا اشطب ذلك الأمر من عقلك. إننا مجرد بشر، وعلينا أن نقبل أقدارنا بتواضع."

"بابا، أنا متعب، ولكني أخاف أن أنام. لا أريد أن أصحو وأتذكر أنها لم تعد معي. من أين لي بالقوة لأعيش؟"

"ستجد القوة. علينا جميعًا أن نجدها. هذا هو حال الرجال: نصحو لنجد أنَّ الأشياء ليست بالطريقة التي تخيَّلناها. ولكن، ماذا يمكننا أن

نفعل؟" كان محتاجًا لأن يسمع أفكار بابا ساغي. غطى فمه بكفه، ونظر إلى السقف.

"أبي، أريد أن أذهب لأتأكد أنَّ إخوتي وأخواتي بخير. فقد غبْتُ عن المنزل بضع ساعات."

"سأقول لكَ شيئًا قبل أن تذهب، يا صغيري." بدأ حديثه بغتة، واللهفة تدفق من عينيه على غير طبيعته. "احتفظ بهذه الكلمات في يدك اليسرى مخافة أن تغسلها بعد أن تأكل بيدك اليمنى. عندما يحين وقت زواجك، تزوَّج بزوجة واحدة، واحدة فقط. وعندما تُسبِّبُ لك الألم، كما تفعل كلُّ النساء، تذكَّر أنَّ من الأفضل أن يأتيكَ الألمُ من مصدر واحد فقط. أصغِ إلى ما تقوله زوجتك، وإلى ما لا تقوله حتى تكون مستعدًّا. يجب أن يكون الرجل مستعدًّا دائمًا."

"أفهمك، بابا." ارتبك آكن من صراحة والده، لكنه شكَّ أنَّ السَّببَ في ذلك حزنه. إذ كان في الثالثة عشرة من العمر فقط، والزواج بعيد عن تفكيره. انتبه إلى أنَّ بابا ساغي أغمض عينيه، فنهض عن الفِراش، وسار على رؤوس أصابعه نحو الباب. وحين وضع يده على مقبض الباب، ناداه بابا ساغي باسمه، وأشار إليه أن يعود إلى المكان الذي غادره للتو. مدَّ الرجل الأكبر يده ليضعها على رأس آكن. دسَّ أصابعه في شَعره وربت على وجهه. "اذهب إلى إخوتك الصغار." سحب يده ووضعها على صدره منبسطة.

الفصل السابع والعشرون

الحفاظ على السلطة

لم يتوقع أحد من بابا ساغي أن يدعو إلى اجتماع عائلي في وقت مبكر جدًّا من الحداد، لكنَّ مأساته تلاحقه. رغب جزءٌ منه في البكاء، أمَّا الجزء الآخر فأراد أن يخدش رأسَ خزيه ليُخرجَ الصَّديد المتيبِّس من داخله. في الأسابيع الثلاثة التي أمضاها أفرادُ عائلته يمشون بهدوء في أرجاء المنزل، كاتمين جميع بوادر التعافي، كان هو يثور غضبًا. وعندما لم يستطع التحمل أكثر، انتظر حتى آوى الأطفال إلى أسرَّتهم، ثم أمر إيا توبه باستدعاء الزوجات الأخريات.

جلس بابا ساغي في مقعده، منتظرًا، ومُفكِّرًا في أرجل وأجلِّ الطرق لتقديم اقتراحه. حضرت إيا ساغي أولًا بملابس سوداء. وقد تناولت وجبتها الأولى قبل ساعات فقط، وملأتها متعة الطعام بالذنب. فقدت الكثير من وزنها، كما أنَّ تنثنيات الجلد التي تجرُّها أبطأت وتيرتها في المشي. لم يحاول أحد تعزيتها لأنها رفضت ذلك تمامًا، مُؤْثِرَةً عزلة غرفتها أو التفكير الصامت الذي مارسَتْهُ عندما تكون في صحبة أحدهم.

تبعتها إيا توبه؛ التي جعَّد التعب وجهها. وبما أنها الزوجة الثانية، صارت سلامة الأطفال مسؤوليتها الآن. ثم تبعتها إيا فمي ببضع خطوات، وانضمَّتْ إليهما، وقد لفَّتْ رأسها بوشاح. تسبَّبَ موتُ ساغي بحالةٍ من التجلِّي. إذ أنها فقدَتْ شيئًا من وزنها أيضًا بسبب صيامها الشديد. في يوم الدفن، سحبَتْ ماء المرحاض على هاتفها النقال، وأحرقَتْ ملابسها المزخرفة كلَّها. أخفت مصاغ الجدة تحت سريرها، وتظاهرت بأنها لا تتذكر مكانه عندما كانت تصلي، وهذا ما يتوافق مع شخصيتها.

حضرت بولنله بهدوء، وجثمت فوق مقعد، شبكت أصابعها لتُهدِّئَ من روعها. كانت تقفز فزعة، في الليالي الأربع الأولى بعد وفاة ساغي، عند سماعها أدنى خشخشة. أزعجها هذا، بالإضافة إلى ثقل أنفاس ساغي في غرفة نومها. كانت تغسل الجدران بالديتول كلَّ يوم خلال الأسبوعين الماضيين، لكنَّ المرارة لم تختفِ على الرغم من المُطهِّر.

أسند بابا ساغي رأسه بقبضته. "دعوتكنَّ اليوم لأنَّ في جعبتي كلامًا كثيرًا؛ كلام يتوعَّدُ بتمزيق بطني إن لم أقله. هذه فترة حداد، ولكن على الرجل أن يتنبَّهَ عندما يتهدَّده الضَّعفُ بالسيطرة عليه." نظر إلى كلِّ زوجة من زوجاته، وبدورهنَّ، حملقن فيه أيضًا متسائلات عمَّا إذا كان بمقدور أجسادهنَّ تحمُّلُ المزيد من الشقاء. "لن أتظاهر بأن الكلمات التي ثقبَتْ أذنيَّ في المستشفى لم تفترس عقلي بالطريقة ذاتها التي يفترس بها الجوعُ عقلَ طفلٍ بلا أمٍّ. جرحي غائر. لا يكتشف الرجل كل يوم أنَّ حياته مجرد ظل، وأنَّ ثمة فجوة واسعة بين إيمانه وواقعه. كما أنه لا يكتشف كلَّ يوم أنَّ أطفاله ليسو من صلبه." رفع حاجبيه باستسلام وتوقف كما لو أنه يستعيد رباطة جأشه. الكلمات التي أدخلها المُعلِّمُ عنوةً في أحشائي عالقة الآن في

حلقومه مثل بذور برتقال كبيرة؛ تأبى أن تُبتَلَع، غير أنها تُقاوم إخراجها. تنفس نفسًا عميقًا. "أريدكنَّ أن تعرفن أنَّ بوسعكنَّ المغادرة. الباب مفتوح. لن أُوقفَ أحدًا."

"لكن أين؟ أين؟ إلى أين نذهب؟" ذعرت إيا فمي.

"أينما يحلو لك! لا أريد أن أبقيَكنَّ هنا."

"لكن إلى أين نذهب؟"

"ربما يقبل بك والد أطفالك،" تمتم بابا ساغي فيما كان يهزُّ كتفيه الضخمتين.

"سيدي." تنحنحت إيا ساغي. "فكَّرْتُ بكلماتك، وهي حكيمة بالفعل. إنها أكثر من حكيمة، إنك مُحقٌّ فيها."

أومأ بابا ساغي برأسه، مرة تقديرًا منه لهنَّ على فهم ما قال، وثانية لمعرفته أنَّ بوسعه الوثوق بإيا ساغي لابتكار ردٍّ سليم على اقتراحه.

"تتحدث عن والد أطفالنا. من هو والد أطفالنا؟ من والد الطفلة التي تتعفن تحت الأرض الآن؟" انبتر صوتُها لكنها تابعت. "لا يوجد أب غيرك. فأنت من أسمَيْتها. أسمَيْتَ كلَّ طفلٍ في هذا المنزل، كلَّ واحد منهم. ربَّيْتَهم لذا فهو اسمك الذي سيحملونه من بعدك. قد تقول ثمة آباء آخرون لكنك الأب الوحيد الذي عرفوه. أنتَ وحدكَ والدهم، لأن الأبوة ليست مجرد قذف بذرة."

ملأت الزوجتان الأخريان صدريهما بالهواء مؤيِّدَتين، عدا بولنله، التي انهمكت بالتفكير العميق.

تابعت إيا ساغي حديثها بصوتٍ بارد كالبلسم "جلسْتُ لعدة أيام مغشيًّا عليَّ من فرط الحزن، لكنَّ خطاياي طافحة تتجاوز الجميع. فأنا من

تتحمل خطايا هاتين المرأتين. ضع اللوم كله عليَّ، ودعني أتولَّاهما ما حييت. إن أردْتَ أن تعاقبنا على آثامنا، فحمِّلني المسؤولية وحدي. ولتخبر الناس في كل مكان بفداحة ما فعلْتُ. أقول هذا لأنني أنا التي اقتدْتُ هاتين المرأتين إلى الظلام الذي يبتلعهما فيه الآن. شغفي بإنجاب الأطفال دمَّرهما."

أومأ بابا ساغي موافِقًا لكنه ظلَّ صامتًا. ووضع ذراعيه اللتين كانتا مكتوفتين جانبًا.

عرفَتْهُ إيا ساغي أكثر من كل الجالسات هناك بصمتٍ يحرِّكه القلق، ثم رمت ورقتها الأخيرة. "يا سيدي، أعلم أنك تريد أن تطردني، لكني أتوسَّل إليك أن ترحمني. لقد رأت عيناي ما لا يجب أن تراه أمٌّ بالفعل. سامحني، فأنا لا أنشد سوى البقاء إلى جانبك، وخدمتك كما كنت أفعل طوال هذه الأعوام. ضع باعتبارك أنني فقدْتُ طفلتي، ولم يتبقَّ لي إلا واحد آخر. أهبك ذاك الطفل. خذه! امتلكه! فما الذي أعرفه عن تنشئة الصبيان؟ وأيُّ الكلمات سأستخدم لتأديبه؟ إن لم يسامحني قلبك، يا مولاي، فخذ آكن. وإن قبلني خادمة لك، خذني أنا أيضًا." وهكذا جثت على ركبتيها، واستلقت على الأرض، ومدَّتْ يديها حتى أمسكتا قدمَيْ زوجها. "مولاي" همسَتْ قائلة. "ينبغي ألَّا نسمح للعالَم بأن يرى عارنا. ولنكتم أسرارَنا عمَّن يسعى للاستهزاء بنا."

كانت جيدة، هكذا رأت بولنله وهي تشاهد الزوجتين الأُخريين يشاركانها توسُّلَها. عندها فقط اتَّضحَ كلُّ شيء وعادت الأمور إلى نِصابها. فحولةُ بابا ساغي جوفاء، ولا حياة فيها.

بولنله

كما توقعت؛ القرار سهل كما قوبل بالتفهم. كنت أعرف أنَّ بابا ساغي لا يريدني أن أرحل، لكن ما اكتشفه مؤخرًا لم يترك له بديلًا عمليًّا. صونُ رجولته أهمُّ من أيِّ شيء آخر، بحسب ما اكتشفته إيا ساغي. أُبْرِمَ بينهم اتفاق: يمكنكنَّ البقاء إذا وعدتنَّ بأن تكنَّ الزوجات اللاتي أريد. وسرعان ما منعهنَّ من مغادرة المنزل دون إذنه. أُمِرَتْ إيا ساغي بإقفال جميع متاجرها والتنازل له عن كلِّ كوبو وفَرَّتْهُ. مُنِعَتْ إيا فمي من التزين بأدوات التجميل، كما أنها لن ترتاد الكنيسة بعد الآن. فالله يسمع ما في قلبك أينما كنت، هكذا قال. عجيب أنه لم يضع أيَّ قوانين لإيا توبه. بدلًا من ذلك، فضَّلها على الأخريات وقرَّر الآن أن يُمضيَ معظم لياليه معها. في المقابل، أقسم بابا ساغي أن يشتري لهن كل المجوهرات، وأقمشة الدانتيل المُخرَّمة، وكلَّ وسيلة من وسائل الترف يحتجنها ويردنها، شريطة ارتدائها داخل جدران منزله الأربعة فقط.

وفي اليوم الذي دعا فيه لاجتماع يضع فيه هذه القوانين الجديدة،

أُتيحَتْ فرصةُ الرد للجميع. بكت إيا ساغي في صمت، وقالت له إنها فقط ممنونة لرأفته وكرمه وحسن معاملته. ابتسمت إيا توبه؛ فقط أَشْبَعَتْها كلماتُهُ للغاية. وشرعَتْ إيا فمي في صلاتها ودعت أن ينعم الرب عليه بثروات الملك سليمان. وعندما حان دوري، قلت ببساطة إنني فكَّرْتُ في الأمر، وقرَّرْتُ أن أعود إلى منزل والدَيَّ.

أُخِذَ بابا ساغي على حين غرَّة؛ وسألني إن كان قد أساء إليَّ بأيِّ شكلٍ من الأشكال. أخبرته أنه لم يفعل، وأوضحْتُ له أنَّ مكوثي دون أن أهبه أطفالًا لا جدوى منه. أصغى إليَّ بانتباهٍ وتعهَّد بأن يكون حاضرًا دومًا ويمنحني أيَّ شيء أحتاجه. رأيْتُ الحزنَ في عينيه؛ كان كما لو اتَّضح له فجأة أنَّ دربَيْنا تقاطعا لغايةٍ، وقدرنا أن نفترق.

بالطبع، لم أخبره أني شعرْتُ كما لو أنني استفقْتُ من حلم مُريع في جلد الذات، بدأ بعد أيام قليلة من وفاة ساغي. كنت أسير في المنزل بإحساسِ أني أعيش وسط مجموعة من الغرباء؛ أناس من حقبة تاريخية مختلفة، وعالَمٍ مختلف. لم أعد أشعر بالدَّنس بعد اليوم.

الأمر الآخر هو أنَّ فتاة صغيرة قضت من أجل آثامٍ لم تقترفها. تَلُوحُ ساغي في فِكري مرارًا وتكرارًا. فلم أتمكن من إخراج صورتها وهي تموت بجواري من رأسي. ربما كانت ستظلُّ على قيد الحياة لو لم آتِ إلى هذا المنزل أبدًا، ولما عرف بابا ساغي بأمر زوجاته وخداعهنَّ له.

سأحفظ بابا ساغي في ذاكرتي. لن أفتقده غير أني سأتذكَّره. سأتذكَّره بإعزازٍ في بعض الأوقات، ربما. فلقد تعلَّمْتُ أشياء كثيرة في السنوات التي أمضيْتُها تحت سقفه. هزَّني مُكوثي في منزله فأفاقني من غفلتي. يجدر بي أن أكون ممتنة لذلك.

ستر تاح الزوجات بمغادرتي، أعرف ذلك. ليست إيا توبه ربما، لكنَّ الزوجتين الأخريين سيحفظاني في ذاكرتهما على أني الرياح الشريرة التي قلبَتْ سَكينة منزلهما. وعندما تتكلمان عني، ستواسي الواحدة منها الأخرى بتسميتي الدخيلة المغرورة؛ التي لم تستطع أن تشقَّ طريقَها كزوجة لعائلة آلاو. سأتذكَّرهما حبيستين، لأنَّ ما يمِّز بيننا حقًّا هو أنني التحقْتُ بمسار حياتي ثانية؛ أمَّا هما فلن يبرحا المكان.

واحدةً واحدة، عرضْنَ عليَّ المساعدة في جمع حاجيَّاتي، لكنني أخبرتهن بأني سأتدبر الأمر وحدي. لم يكن ثمة الكثير لأحزمه، على أيِّ حال؛ إذ أنَّ كثيرًا من حاجياتي كان محزومًا ولم يُفرغ مطلقًا. آكن أيضًا عرض عليَّ المساعدة. ولو كنتُ رفضْتُها، لما استجاب. ساعدني في نقل حاجيَّاتي إلى سيارة أجرة كانت تنتظر. وقف منفردًا عند البوابة، ولوَّح لي حتى غبتُ عن الأنظار.

لا أعتقد بأني لا أستطيع رؤية ما ينتظرني من تحديات. سيقول الناس إني امرأة ذات علاقات سابقة. سيؤذيني الرجال وسيسخرون مني لكنني لن أسمح لأحد أن يُوقفني. وسأبقى في أرض الأحياء. هأنذا أعود الآن والحياة تفتح ذراعيها أمامي مثل بيضةٍ تنشقُّ.



لـولا شـونيّن، كاتبـة مـن نيجيريـا، نُشـر لهـا ثـلاث مجموعـات شـعرية وكتـاب للطفـل قبـل إصـدار روايتهـا الأولى «الحيـاة السـريّة لزوجـات بابـا سـاغي» عـام 2010 والتـي نالـت جائـزة PEN Oakland وجائـزة Saro-Wiwa وجائـزة جمعيّـة الكتّـاب النيجيريّيـن عـام 2011 وترشـحت لنيـل جائـزة أورانـج العـام نفسـه. تُديـر شـونيّن مهرجـان Ake السـنوي للفنـون والكتـب وكانـت قـد أسّسـته عـام 2013، ويُعتبـر أضخـم مهرجـان أفريقـي يضـمّ الأفارقـة مـن كُتّـاب ومُحرّريـن ونُقّـاد ومهتميـن بالكتـب والفنـون.



هيفاء أبو النادي، قاصّة ومترجمة وأكاديمية من الأردن. صدرت لها مجموعتان قصصيّتان: «على أهبة الحلم» 2012، و«مُراودات» 2016. ترجمت إلى العربية كتاب «المسرح في العالَم» و«من خوابي نبيذي» قصائد غابرييلا مِسترال.



الحياة السريّة لزوجات بابا ساغي

يعيش بابا ساغي مع زوجاته الثلاث الأُميّات في بيت واحد، بين سبعة أطفال، وثراء وغِنى. لكن عينيه الآن وقعتا على بولنله، الفتاة الصغيرة التي أنهت تعليمها الجامعي، ولسبب ما تستجيب لبابا ساغي، وضد رغبة والدتها تتزوّجه وتدخل بيته، لتجد أن زوجاته الثلاث أعددن لها الشّر والكراهية دفاعًا عن سِرٍّ كبير يخبّئنه ويهدد عرش بابا ساغي. تتناول «الحياة السريّة لزوجات بابا ساغي» تعدّد الزوجات في نيجيريا الحديثة، وأسباب انتشاره والقصص المختبئة داخل تلك البيوت.



لولا شونيِّن



روايات
REWAYAT

ISBN 978-9948-468-25-7

Cover Illustration © Diana Ejaita